

# بلاغة التراكيب في تفسير القرطبي

رسالة مقدمة من الطالب

ذيب بن مقعد العصيمي

للحصول على درجة الماجستير في الدراسات الأدبية

تخصص : بلاغة

بإشراف الدكتور

السيد عبد السميع حسونة

الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد



## إهداء

إلى الحنان المفقود أمي رحمها الله وأسكنها

فسيح جناته .

إلى أبي « حفظه الله

إلى زوجتي الغالية ، التي كانت سنداً لي بعد الله

في فترة البحث .

إلى أبنائي :

أنفال ، عبدالمجيد ، معاذ ، إيلاف ، أصايل .

## شكر وتقدير

الحمد والشكر لله أولاً ثم للدكتور/ علي النملة لما وجدت منه من أبوة  
حانية ، ومساندة لي على تجاوز عقبات هذا البحث .  
ثم للدكتور مشرف هذا البحث : السيد عبدالسميع حسونة ، وقد  
وجدت منه صدرًا رحبًا ، وعلماً نافعًا ، ولكافة أساتذة القسم ، ولا سيما  
دكتور/ مصطفى بكري السيد ، الذي أمدني ببعض المراجع في الدراسات  
اللسانية المعاصرة .  
والحمد لله أولاً وآخراً .

## المقدمة

إن القرآن الكريم قد اختص بأنه معجزة بالغة تتحدى الإنس والجن في كل زمان ومكان أياً كانت ثقافة ذلك الإنسان وأدبه وعلمه، وقد أفادت الدراسات المتعددة التي قام بها أئمة البيان على مر العصور أن إعجاز القرآن لا يقتصر على مقياسٍ فني معين في عصر من العصور وأن أي عصر مهما تقدم في الدراسة الأدبية لا يحيط بإعجاز القرآن .

ومن أبرز آراء العلماء في تفسير الإعجاز البلاغي في القرآن ، ما ذهبوا إليه ، من أن هذا الإعجاز يكمن في نظمه ، أي في أسلوب تأليفه ، أو في تركيب الألفاظ والعبارات فيه على نسق معين ، يبلغ ذروة البلاغة بما يتميز به من خصائص وسمات .

وإذا تأملنا الجملة القرآنية وجدناها بناءً قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق في شبكة من العلاقات التركيبية التي يتعامل معها النظم في السياق، وإذا كان السياق هو الذي يعطي المدلولات ، فإنه من جانب آخر ، هو الذي يعطي الشكل التركيبي للعبارة ، بحيث يكون هناك تفاعل بينهما ، وكلما أتاحت لنا وبدقة - رصد السياقات التي تحيط بالنص القرآني - استطعنا تفهم كثير من الربط تركيبياً ، وما يشغلنا في بلاغة التراكيب في تفسير القرطبي هو النظر في الربط بين الجمل داخل النص القرآني ، ربطاً تركيبياً، وهو ما يطلق عليه في البلاغة المعاصرة بـ "نحو الروابط التركيبية"<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر : نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً) ، الأزهر الزناد ، المركز الثقافي

وقد ألمح القرطبي في مواضع كثيرة من تفسيره إلى مواضع هذا الربط في الحديث عن التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والقصر ، والفصل والوصل ، وغير ذلك مما له صلة بأحوال التراكيب ، وهذه البحوث سماها البلاغيون "علم المعاني" (١) .

وعلى هذا فالتركيب هو جزء أصيل في قضية النظم التي أرسى دعائمها عبدالقاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ، وحلق القرطبي في تفسيره على أضواء هذه الفكرة ، سابراً العلاقات بين وحداتها الصغيرة (الجمل) على أساس أنها وحدة بنائية مترابطة بلوازم ثلاث : النظم والأسلوب والجزالة ، وهذه الثلاثة لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مجموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدي والتعجيز (٢) .

وينتهي القرطبي في تفسيره إلى أن النص القرآني يتسم بالانسجام وتلاحم أجزائه وتراكيبه ، سواء بين الجملة والجملة ، أو بين الجملة والفقرة إلى أن يصل إلى النص القرآني ككل .

### أهمية الموضوع :

ومن هنا يزداد إدراكي لأهمية الموضوع (دراسة بلاغة التراكيب في تفسير القرطبي) ذلك لأن بلاغة التراكيب تُعد عناية فائقة بالنص القرآني وتدبره ، وتأمله ، واستنباط المنهج الفني الذي يسري في نظمه وتركيبه .

---

(١) انظر : خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. محمد محمد أبو

موسى ، مكتبة وهبة ص ١١٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٧٣/١ .

وقد وجدت للدارسين المعاصرين جهداً مبذولاً في إبراز الجانب البياني والإعجازي في تفسيره ، ولم يتناول أحدٌ من الباحثين بحثاً يجمع بلاغة التراكيب في هذا التفسير الكبير ، ولهذا فقد انتدبت نفسي لنيل شرف تناول التصور الذي انتهى إليه القرطبي في بلاغة التراكيب القرآنية وذلك من خلال أمثلة ونماذج تكشف عن منهجه في التفسير ، وتبين أثره في تجلية دقائق المعنى ومواطن الجمال فيه ، ولا يمكن أن يعد تقديم تلك المعاني أو الكشف عن أسرارها هدفاً في ذاته ، بقدر ما يهدف إلى جمع التراكيب ودراستها من النواحي البلاغية ، وبمجرد تحقيق هذا الهدف ليس أمراً يسيراً في كتاب من أضخم كتب التفسير ، ووسط حشد هائل من المعارف المختلفة التي جمعها القرطبي من أقوال السابقين لتقديم أكثر من وجه من وجوه الفهم لبلاغة النص القرآني ، والتي عدها القرطبي في مقدمة تفسيره وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني .

وعلى الرغم مما ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره فإن جهوده في بيان بلاغة النص تكاد تختفي وتطوى بشهرته بين الدارسين باهتمامه بالقراءات القرآنية دون سواها ومن خلال قراءتي للتفسير وضعت يدي على كثير من النماذج البلاغية التي ظلت تائهة زمناً طويلاً في ثنايا تفسيره ، ولهذا فقد رأيت أن أحصرها وألمم مسائلها تحت العنوان الذي ارتأته الدراسة (بلاغة التراكيب) ليتمكن الدارسون من وضع أيديهم على جهود القرطبي في هذا السفر النفيس .

## أسباب اختيار الموضوع :

- إن من أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع هو :
- ١- الرغبة في دراسة البلاغة العربية في دائرة القرآن الكريم وبخاصة بلاغة (التراكيب) ، إذ إن التراكيب قوام علم المعاني وعلم المعاني والبيان لهما أكبر شرف حتى زعم صاحب الكشف أنه لا يغوص على حقائق وأسرار البلاغات القرآنية إلا رجلٌ برع في هذين العلمين المختصين بالقرآن الكريم<sup>(١)</sup> .
  - ٢- إبراز أهمية تفسير القرطبي من الناحية البلاغية وخاصة بلاغة التراكيب .
  - ٣- وعي القرطبي - رحمه الله - بأهمية البلاغة في إبراز جوانب الإعجاز في القرآن الكريم .
  - ٤- الرغبة في إبراز دور القرطبي ومشاركته في بيان أوجه إعجاز القرآن ولا سيما فيما يخص التراكيب التي كان كثيراً ما يربط بينها من خلال الدلالات النحوية والبلاغية .
  - ٥- عدم وجود دراسة متخصصة لإبراز هذا المنحى البلاغي .

## أهداف الدراسة :

- وأما الأهداف التي سعت إلى تحقيقها من خلال هذه الدراسة ، فهي :
- الكشف عن السمات البارزة لبلاغة التراكيب القرآنية لتفسير القرطبي ومعالجتها من خلال تعليقات القرطبي عليها سواء المنسوبة إليه أو التي ارتضاها وصاغها نقلاً عن غيره ، وإبراز ذلك كله في ضوء المفاهيم الأسلوبية المعاصرة للتراكيب اللغوية .

(١) انظر : الكشف ٧٣/١ ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٧٧/٢ .



■ إبراز بلاغة النص القرآني بين الأفراد والتراكيب من مستوى الجملة إلى مستوى النص ، وهذا يستلزم قدرة كبيرة من الباحث على التأمل ، والتذوق ، والتحليل ، والدراسة ، لنقل مدار البحث في التراكيب من النظرة الجزئية في البلاغة (بلاغة الجملة) إلى النظرة الكلية التي يراها البحث قد تُحقق منهجاً جديداً في دراسة التراكيب في تفسير القرطبي.

### **الدراسات السابقة للبحث:**

ركزت الدراسات التي تناولت تفسير القرطبي على الجانب الأدبي ، والبياني ، والإعجازي في تفسيره ، ولقد حاولت جاهداً أن أتبع هذه البحوث والدراسات التي كُتبت حول القرطبي فوجدتها كالتالي :

#### **١- الاتجاه البياني في تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) :**

إعداد : محمد رضا الحسن ، الأردن .

والرسالة كما هو واضح من عنوانها تركز على الجانب البياني من تشبيه ، واستعارة ، ومجاز ، وإن تعرض صاحبها لشيء من أقسام البلاغة كالمعاني ، والبديع فهي مجرد لمحات سريعة ووقفات خاطفة لم تلتفت إلى التراكيب التفاتاً يستحق التنويه .

#### **٢- الاتجاه الأدبي في تفسير القرطبي :**

للباحث : أمين جمعة أمين خليفة .

وهي رسالة تهم بإبراز الاتجاه الأدبي في تفسير القرطبي ، وقد اهتم فيها بالشواهد الأدبية شعرية ونثرية بعيداً عن الجانب البلاغي .

#### **٣- النظم القرآني في تفسير القرطبي (دراسة أسلوبية) :**

للدكتور/ السيد عبدالسميع حسونة .

وهو بحث منشور في مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية بالإمارات العربية المتحدة ، أبرز فيه صاحبه اهتماماً بالدراسة الأسلوبية المعاصرة ، وحاول تطبيق المنهج الأسلوبي المعاصر على النظم القرآني الذي تناوله القرطبي في مقدمة تفسيره ، وانتقى بعض النماذج التي تتناسب مع الدراسة الأسلوبية ، ولم يزد في تناوله على آيات معدودات ؛ ولم تحظ التراكيب عنده إلا بلمحات سريعة .

#### ٤- من أسرار الإعجاز في القرآن عند الإمام القرطبي :

عبدالفتاح محمد سلامة ، وهي دراسة تهتم ببيان الإعجاز القرآني في تفسير القرطبي ولم تتناول شيئاً من بلاغة التراكيب .

#### **منهجي في البحث :**

إن نجاح أي دراسة يعتمد على المنهج المستخدم فيها ، وعلى مدى صحة النتائج المنبثقة عنها ، ولهذا فقد اتبعت في الدراسة المنهج النقدي التحليلي القائم على وصف الأفكار البلاغية التي طرحها القرطبي في تفسيره ، وتحليلها ، ومن ثم مناقشتها ، والحكم عليها في ضوء الكتب البلاغية السابقة عليه والمعاصرة له ، مع ضرورة الالتزام بالموضوعية التي لا غنى عنها للباحث .

## خطة البحث :

بعد الاطلاع على تفسير القرطبي ، والوقوف على بعض تعليقاته  
البلاغية على الآيات القرآنية فقد ترأى لي أن تكون خطة البحث مكونة  
من :

### المقدمة :

وتتضمن العناصر التالية : أهمية الموضوع ، وسبب اختيار الموضوع ،  
والصعوبات التي قد تواجه الباحث ، والدراسات السابقة على البحث ،  
ومنهجي في الدراسة .

### التمهيد : ويتضمن مبحثين :

#### الأول : البلاغة بين الأفراد والتركيب :

تحدثت فيه عن نظرة البلاغة العربية إلى المفردة ، والتركيب ، ومدى  
الربط بينهما .

#### الثاني : خصائص التراكيب عند البلاغيين :

وفيه تحدثت عن معالجة البلاغة للتراكيب ، بدءاً من نظرية النظم عند  
عبدالقاهر ، والنظرة التحليلية عند متقدمي البلاغيين وانتهاءً بتعريف علم  
المعاني عند المتأخرين ، وسمات ذلك التعريف ، وعلاقته ببنية التراكيب .

#### الفصل الأول : بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي :

ويتضمن مبحثين :

#### الأول : خصائص التراكيب في تفسير القرطبي .

ويشتمل على :

(أ) خصائص التراكيب عند المفسرين : تحدثت فيه عن بذور الاهتمام بالتراكيب في القرآن الكريم ، ثم عن دور المفسرين في معالجة التراكيب ، وخاصة تراكيب القرآن ، ومدى اهتمامهم بذلك .

(ب) خصائص التراكيب في تفسير القرطبي : تحدثت فيه عن الخصائص العامة للتراكيب في تفسير القرطبي ، ضارباً بعض الأمثلة لتلك الخصائص .

### **الثاني : بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي :**

عرضت فيه عرضاً تفصيلياً وتحليلياً لبلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي ، والجملة الخبرية ، والجملة الإنشائية ، وجملة القصر ، والجملة المتعلقة بطرفي الإسناد (الحذف ، والتقديم ، والتأخير) ، وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (الالتفات) .

### **الفصل الثاني : بلاغة التراكيب في بناء الجمل عند القرطبي :**

ويضم مبحثين :

#### **الأول : الوصل والفصل عند الإمام القرطبي :**

ويشتمل على :

١- الوصل والفصل عند البلاغيين : تحدثت فيه عن الوصل والفصل عند البلاغيين ، وموقفهم من هذا الباب ، وعلاقة ذلك بالدراسات اللسانية المعاصرة .

٢- الوصل والفصل عند القرطبي : تحدثت فيه عن معالجة القرطبي في تفسيره للوصل والفصل ، مع التحليل والتعليق في ضوء الدراسات النصية المعاصرة .

## **الثاني : الإيجاز والإطناب عند القرطبي :**

ويشتمل على :

١- الإيجاز والإطناب عند البلاغيين : تحدثت فيه عن موقف البلاغيين (متقدمين ومتأخرين) من الإيجاز ، والإطناب ، ومدى انسجام ذلك مع بناء النص .

٢- الإيجاز والإطناب عند القرطبي : وتحدثت فيه عن موقف الإمام القرطبي من الإيجاز ، والإطناب ، وأمثلة ذلك ، مع التحليل ، ومقارنة موقفه بأقوال من سبقه .

## **الفصل الثالث : بلاغة التراكيب في بناء النص القرآني عند القرطبي :**

وتحت مبحثان :

### **الأول : التناسب بين الآيات والسور عند القرطبي :**

وتحدثت فيه عن التناسب بين الآيات والسور عند القرطبي لأهمية هذا الباب في بناء النص القرآني . وكيف ينظر القرطبي إلى الترابط ، والتناسب بين آيات القرآن وسوره .

### **الثاني : التناسب بين النص القرآني في ضوء النصية المعاصرة .**

وتحدثت فيه عن أهمية الدراسة النصية في دراسة النصوص ، ومنها القرآن الكريم ، مع الأخذ في الاعتبار بقدسية القرآن الكريم ، ثم إبراز نظرة القرطبي إلى هذه النصية في القرآن الكريم ، وربطه بين أجزاء القرآن الكريم ، حيث تبدو نظرة تكاملية للنص ، وليست نظرة جزئية ، كما عرف عند القدماء .

وخاتمة القول أسأل الله عزَّ وجل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يجعل القرآن زبيح قلوبنا ، وجلاء همومنا وأحزاننا .  
والحمد لله رب العالمين .

# التّمهيد

وتحتة مبحثان :

المبحث الأول : البلاغة بين الإفراد والتراكيب .

المبحث الثاني : خصائص التراكيب عند البلاغيين .

## المبحث الأول البلاغة بين الأفراد والتركيب

تعد نظرة البلاغيين ومعالجتهم للبلاغة نظرة ومعالجة شمولية ، وما كان حديثهم عن مصطلحي الفصاحة والبلاغة إلا تكاملاً ، بدليل أن السكاكي لم يفرق بشكل واضح بين الفصاحة والبلاغة ، ولم يبين علاقة الفصاحة بالبلاغة <sup>(١)</sup> ، ولعلّ جعل الحديث عن الفصاحة والبلاغة متأخرًا في كتابه "مفتاح العلوم" يؤخذ منه تجاوز مرحلة المفردة إلى مرحلة التركيب . ويرى د. الربيعي أن الفصاحة مصطلح قد استقر على يد السكاكي حيث إن ميدانه إمّا راجع إلى المعنى ، أو إلى اللفظ <sup>(٢)</sup> .

ولقد أفاض علماء البلاغة في الحديث عن فصاحة المفردة ، وأطالوا في ذلك ، وحددوا كثيرا من الشروط محتكمين إلى علوم أخرى نحوية ، وصرفية <sup>(٣)</sup> بعيدًا عن مرحلة البناء الإبداعي ، وهذا جعل المفردة حبيسة عن مجالها وسياقها الإبداعي الفني ، إلا أن حديثهم عن ذلك لا ينبغي أن ينظر إليه كناعية سلبية ، إذ إن المفردة لا يمكن أن يغفل الحديث عنها ؛ لأنها تحمل في ذاتها بعدًا دلاليًا ، وصوتيًا كالحقيقة ، والمجاز ، والبعد الصوتي للحروف ،

---

(١) انظر : اتجاهات البحث الأسنوبي ، د. شكري محمد عياد ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٢١٧ .

(٢) انظر : مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، د. حامد صالح الربيعي ، سلسلة بحوث اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، ص ٤٨٤ .

(٣) انظر : السابق ص ٥١٣ .

فمعنى "الألفاظ كامن فيها لا يفترق إلى دليل من جهة العقل ودلالة اللفظ على المعنى ، ليست دلالة خارجية ... بل هي دلالة داخلية يحملها اللفظ في طبيته" (١) .

والنظر إلى المفردة هو قوام علم البيان من تشبيه ، واستعارة ، وكناية .  
ويمكن القول بأن حديث البلاغيين عن فصاحة المفردة هو منطلق من الإدراك الشمولي لمباحث البلاغة الذي "يعطي مؤشراً على اعتماد ظاهرة التوالد كأساس لتفريعات المنهج ، وما كان من الممكن أن يتحقق هذا التوالد الثنائي إلا بافتراض الوحدة التصورية لمفردات البلاغة ، ذلك أن علم البيان إذا تعلق بالمفردات فإن ذلك لا يعني الاحتكام إلى المواضع المعجمية ، بل إن إدراك اهتزاز الدلالة في انزياح الدال عن المدلول لا يمكن إدراكه إلا بدخول المفردة في السياق التركيبي ، وهو ما يعني تداخل البيان مع المعاني فيبين العلمين علاقة جدلية" (٢) .

ولعل هذا يفسر جمع بعض علماء البلاغة بين علم البيان وعلم المعاني .  
إذ لا انفصال بين الحديث عن أي جانب من جوانب البلاغة ، فإذا كان الحديث عن المفردة فذلك خطوة للوصول إلى الانزياح فيها حسب علم البيان وصولاً إلى انزياح أكبر في التركيب "علم المعاني" ، فصور البيان من الاستعارة والتشبيه أو ما يتعلق بالمفردة هو الانزياح الاستبدالي ، كما أن هناك في علم المعاني يتمثل الانزياح التركيبي (٣) .

---

(١) فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث : د. لطفى عبدالبديع ، مكتبة لبنان ، ص ١٧٦ .

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى ، د. محمد بن عبدالمطلب ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م ، ص ٣٩ .

(٣) انظر : الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : د. أحمد محمد ويس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ط الأولى ، ٢٠٠٥ م ، ص ١١١ وما بعدها .



ولم يكن نظر علماء البلاغة إلى المفردة أو فصاحة المفردة بمعزل عن سياقها ، فإذا كان ابن سنان الخفاجي قد حدد شروطاً لفصاحة المفردة متمثلة في تباعد حروفها ... وأن تكون حسنة الموقع في السمع ، وأن تكون غير متوعرة وغير ساقطة إلى غير ذلك من الشروط الثمانية <sup>(١)</sup> ، فإن هذه الشروط كما يقول د. محمد العمري قد تناولت "التوازن من زاويتين في موقعين مختلفين ... تناولها من زاوية سلب العيب في باب شروط فصاحة اللفظ ، وتناولها من زاوية تحصيل المزية في الشرط الثامن من شروط فصاحة التأليف بين الألفاظ ... وبالنظر إلى ذلك تكون هذه القائمة هي أرقى عملية قامت بتصنيف المكونات الاجتماعية تحت مفهوم واحد" <sup>(٢)</sup> .

ولعل من أهمية المفردة بعدها الصوتي، ولذا وجدنا ابن الأثير يعقب على ابن سنان في هذه الشروط ، وفي تعقيبه ما يوحي بالاهتمام بالجانب الصوتي ، وحسن وقعه ، إذ يقول في ذلك : "ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح" <sup>(٣)</sup> ، ويتبع حديثه عن تباعد الحروف وسهولة النطق حديثه عن خفة الحركة ، ومع ذلك لا تعالج القضية بعيدة عن الذوق ، وعن السياق الذي ترد فيه ، بل والبعد الزمني ، وهذه كله يدركه ابن الأثير بقوله : "ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نعمة لذيدة كنغمة أوتار ، وصوتاً منكراً

(١) انظر : سر الفصاحة : لأبي محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، اعتنى

به : د. داوود عكاشة ، الشوابكة ، دار الفكر ، ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص ٤٥٨ .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير، تحقيق : د. بدوي

طبانة، ود. أحمد الحوفي ، دار الرفاعي ، الرياض ، ٢٥٩/١ .

كصوت حمار ، وأن لها في الفم - أيضاً - حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم .

ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذي غلب عليه غلظ الطبع ، ومجاجة الدهن بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسناً ، والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقيماً ... فإن استحسان الألفاظ واستقباحتها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شيء له خصائص ، وهيئات ، وعلامات إذا وجدت على حسنه وقبحه" (١) .

وهذا النص بطوله يدلنا على البعد الدلالي ، والسياقي ، والزماني الذي كان ينظر إليه ابن الأثير ، ولا سيما أنه كان لا يفرق بين الفصاحة والبلاغة ، إذ يقول في المقدمة : " وموضوع البيان هو الفصاحة والبلاغة " (٢) .

فابن الأثير في هذا التعميم يعيد وصله بالجاحظ ، مبتعداً عن المفهوم الجزئي للبيان عند السكاكي ، ويصل بين البلاغة والنقد الأدبي ، حيث اندمج هذان الفن في المثل السائر بعيداً عن الأسلوب التقعيدي الجاف (٣) .

فعند دراسة البلاغة للمفردة ، يجب التأكيد على (أن ما وضعه البلاغيون من معايير إنما كان للتركيز على فحص المفردة التي هي أساس البنية ومن ثم يمكن توظيف هذه الفحوصات في التعامل مع النص كله ؛ لإدراك

(١) المثل السائر ١/٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) انظر : السابق ١/٥١ .

(٣) المثل السائر مقدمة التحقيق ص ٣٢ .

أثر المستوى الصوتي والدلالي في تشكيل محاور ، وعلامات مهمة في بناء النص ، وما أخذ من شروط سلبية على المفردة إنما ذلك لترقى إلى مستوى الجمال الصوتي ، والدلالي) (١) .

وتعد المفردة في القرآن الكريم من الأهمية بمكان ، ولذلك شغل البحث فيها أول التأليف في القرآن ، وقد ذكر الرافي - رحمه الله - جملة في تلك المؤلفات التي كانت منصبة على البحث في وجه الإعجاز بدءاً من الاهتمام بالمفردة ، والغريب ، والمشكل منه إلى البحث في وجوه إعجازه البياني (٢) .

وما يلفت النظر في المفردات القرآنية أنها قد اتسمت بما تحويه المفردة من جوانب الإعجاز ، حيث اشتمالها كما يقول الرافي على الأصوات الثلاثة ، صوت النفس ، وصوت النغم بالحروف ومخارجها ، وصوت العقل ، وهو الصوت المعنوي ، الذي يكون من لطائف التركيب ، وصوت الحس ، وهو أبلغهن شأناً ، ولا يكون إلا من دقة التصور المعنوي ، والإبداع في تكوين الخطاب (٣) .

ولا يزال الحديث عن صغرى الوحدات (المفردة) ، ذا بال في الدرس القرآني ، وقد أشاد العلماء بما قام به الزمخشري في هذا المجال ، حيث (وقف الزمخشري عند مفردات النص القرآني يتأمل وقع كلماته وملاءمتها للسياق ،

---

(١) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية : د. سعد أبو الرضا ، منشأة المعارف ،

الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص ٦٠ .

(٢) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافي ، دار الكتاب

العربي ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٣) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٢٠ .

والنظر في مفردات النص الأدبي من أوجب ما يجب على مفسره ، ودارسه ؛ لأنها مفتاح النص ، وزمام ما فيه من دقيق المعاني ، وخفي الإشارات) (١) .

ولذا فإن النص القرآني الكريم كان هو الملهم الأول لتطور النظر البلاغي من النظرة إلى المفردة و صحتها وملاءمتها للسياق في التركيب و النظم القرآني ، حتى ظهرت الدراسات البيانية التي تربط بين الألفاظ ، والمعاني أو النظم القرآني (٢) .

فالاهتمام بالمفردة هو قوام علم البيان الذي يهتم بدراستها ، ونقلها الدلالي من المعنى المعجمي إلى المعنى البلاغي ، وهذا النقل الدلالي (يتحقق في بنيتين أساسيتين ، المجاز ، والكناية ، ذلك أن المجاز انتقل فيه من الملزوم إلى اللازم ، كما تقول : "رعينا المطر" ، وهذه البنية تحول المستوى العميق فيها إلى (رعينا النبات) أما الكناية فيتم فيها التحول من اللازم إلى الملزوم ، كما تقول "طويل الثوب" ، فإنه يقتضي حضور بنية العمق عن طريق اللزوم ، وهو طويل القامة ، أما دخول التشبيه دائرة علم البيان فهو راجع إلى أنه البنية الأساسية لبنية الاستعارة ، فهي متحولة عنه على معنى أن إدراك التحول في الاستعارة يقتضي استحضار التشبيه ضرورة) (٣) .

وهذا العلم يمس العلاقات الدلالية ، والمعنوية بين الألفاظ ؛ لتتكون الصورة الحسية ، والمعنوية لأبعاد مختلفة ، وليست محصورة في صورة معنوية ،

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد أبو موسى ، دار الفكر العربي ، ص ٢١٣ .

(٢) انظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي : د. محمد زغلول سلام ، مكتبة الشباب ، ص ٣٩ .

(٣) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ١٣٠ .

كما يبدو في النظرة غير الفاحصة ، والصورة الفنية تنقلنا إلى بعد حسي ، ونفسي أبعد مما يؤدي إلى النظر في المعنى الأول والمعنى الثاني ، ويبدو أن المعنى الثاني هو الذي يتسم بالكناية ، والاستعارة ، والتمثيل ، وقد أدرك الشيخ عبدالقاهر الجرجاني هذه الأبعاد بقوله : " الكلام على ضربين ، ضرب : أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تحبر عن زيد مثلاً بالخروج عن الحقيقة ، فقلت : "خرج زيد" ، وضرب آخر : أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه ، الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد في هذا المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية ، والاستعارة ، والتمثيل " (١) .

فتلك المفردات هي التي تنتج الدلالة عن طريق العلاقة بينها ، وذلك دفع البلاغيين إلى تحديد هذه الدلالة من ناحية ، وكيفية إنتاجها من ناحية أخرى ، وبذلك تجاوز المدلول اللغوي إلى المدلول العقلي الذهني ، الذي يدرك بالتأمل من وراء تلك الدوال البارزة ، فعلم البيان (قد قام على نوع من التصور الكلي الذي يجمع بين مفردات في علاقة تحولية) (٢) .

وانطلاقاً من فصاحة المفردة ، وبناء العلاقة بين الأفراد تحركت البلاغة للحديث عن بلاغة التركيب ، فالعناية بالمفردة كما يقول د. محمد عبدالمطلب إنما هو : " عملية تمهيدية للغرض الفعلي وهو التركيب ، إذ إن الفصاحة كما تتعلق بالمفردات من خلال مواصفات صوتية ودلالية محددة ، فإنها تتعلق بالتركيب من خلال مواصفات صوتية ، ودلالية محددة .

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ،

مكتبة الخانجي ، ص ٢٦٢ .

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ١٣٣ .

وهذه المواصفات متأثرة بما يطرحه<sup>(١)</sup> . علماء اللغة ، والنحو ، ويبدو أن هنا خيطاً يجمع البعد البلاغي بالبعد اللغوي والنحوي ، وهذا الخيط هو ما استوى في الأسلوبية الحديثة .

وانطلاقاً من دائرة المعنى النحوي المحدد راح البلاغيون يفيدون من الإمكانيات المختلفة للغة ، ومن ثم إلى المعنى البلاغي القائم على الانزياح في تلك الصيغة المختلفة ، فحديث البلاغيين عن التراكيب وإن بدأ بالمستوى النحوي وتبادر إلى الذهن منه مستوى الصحة والخطأ ، إلا أنهم لم يقفوا عند ذلك ، بل تجاوزوه إلى المستوى الفني ، ولا أدل على ذلك من حديثهم عن الحال ومطابقة التركيب له ، بل ومخالفة التركيب للظاهر مطابقة للحال ، بعيداً عن المستوى النحوي ، فبلاغة التركيب هي أن يكون (موافقاً لما يقتضيه الحال لا ما يقتضيه الظاهر تبعاً لسنن القوم في كون البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الظاهر مع فصاحته ، وهو ما سماه الشيخ عبدالقاهر توحى معاني النحو)<sup>(٢)</sup> .

كما أن مفهوم التأليف الذي تحدثوا عنه قريب من مفهوم النظم عند عبدالقاهر ، حيث ساوى بين النظم والتأليف<sup>(٣)</sup> ، ولكنه يتجاوز (لفظ المفردة ، بل لا يكاد يعطيها من الأهمية إلا بمقدار دورها في التأليف ، ذلك أن اللفظة لا تتميز بحسن ذاتي ، وإنما يتحقق لها ذلك من خلال التركيب ،

(١) السابق ص ٥٦ .

(٢) بلاغة القرآن الكريم دراسة لأسرار العدول في استعمال صيغ الأفعال : د. ظافر بن ضرمان العمري ، مكتبة وهبة ، ص ٩ .

(٣) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٥٨ .

ومن هنا يرفض أن يكون النظم نظم الألفاظ ؛ لأنه ليس للفظ من حيث هو لفظ مزية ، وإنما المزية حين تتدخل معاني النحو وأحكامه ، فصواب التأليف يقتضي وضع الكلام بحيث تتعلق فيه اللفظة بغيرها نحوياً<sup>(١)</sup> .

وهذا التأليف والنظم الذي هو توحي معاني النحو يذهب به الشيخ عبدالقاهر إلى معاني بعيدة من التحليل ، فالمراد بالنحو هو المعنى العام الذي يتجاوز حدود الإعراب بدليل أنه يشير إلى الخبر وهو يريد به الإخبار ، لا الخبر للمبتدأ<sup>(٢)</sup> .

ولذا فإن بناء التركيب على معاني النحو يتجاوز مجرد النسق الظاهري إلى نسق أعمق ، هو نسق عقلي فكري<sup>(٣)</sup> ، وبهذا يكون وراء البناء النحوي بناء فكري عقلي ، داخل (القاعدة النحوية ذاتها التي تحكي اضطراداً لغوياً ، قام هذا الاضطراد على هذا الأصل العقلي ، والفكري ، وهذا ينفي عن النحو تلك التهمة التي يرددها البعض بأنه صناعة لفظية)<sup>(٤)</sup> ، والإعراب فرع عن المعنى العقلي ، والفكري .

لقد كان الأساس النظري الذي انطلق منه البلاغيون يعتمد على أن مهمة الوصف التعبيري أن يحدد الإجراءات التي تحول الصياغة المنطوقة إلى ناتج دلالي ، ولا يمكن تفسير منظومة الإمكانيات إلا بتدخل الحدس أحياناً

---

(١) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٥٩ .

(٢) انظر : البلاغة بين عهدين : د. محمد نائل أحمد ، دار الفكر العربي ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر : مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ص ٦٢ .

(٤) انظر : مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني ص ٦٥ .

ليساعد على تقديم التفسير البلاغي ، استناداً إلى مجموعة الحقائق التعبيرية التي سبق النحاة إلى تحديدها ، والكشف عن وظائفها <sup>(١)</sup> .

ولذا يعد التركيب مجموعة من الدلائل التي تخضع لاعتبارات داخلية وخارجية ، تبدأ من دقة التركيب ، بحيث يتناسب والانزياح الأدبي دون التقييد بجمتمية القواعد النحوية ، واللغوية ، وإذا عرفنا أن اللغة العربية تتصرف أحياناً في أبنيتها تصرفاً يخرجها عن نطاق القواعد المبنية عليها ، إذا ترتب على الموافقة العامة ما يتعارض والخفة المطلوبة في النطق <sup>(٢)</sup> ، فما بالك في طلب التصرف في التركيب الفني الذي يبدأ من الإدراك الصوتي بتناسب الكلمات مع بعضها ، بحيث لا يحصل تنافر بينها ، بحيث إذا حصل ذلك التنافر لأدى إلى عسر في النطق (وثقل في السمع ، ومن ثم فإن ردود الفعل الذهنية ، والعاطفية من جانب المتلقي لن تحقق التجاوب المبتغى من ذلك النص) <sup>(٣)</sup> .

ولكن هذا الانزياح في التركيب لا ينبغي أن يصل إلى حد الإبهام والغموض والتعمية ، وإذا كان التركيب الأدبي لا يطلب منه السطحية المفرطة والأداء النفعي ، فإنه كذلك لا يجب أن يصل إلى حد الانغلاق النصي حتى يصبح بعيداً عن الإدراك ، وقد رأينا سوء ذلك في السريالية ، حيث (بلغ ذلك التعقيد من الغرابة والتفكك ، والإبهام حداً جعلها تبدو في كثير من الأحيان متعذرة الإدراك) <sup>(٤)</sup> .

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٩٥ .

(٢) انظر : أصوات اللغة العربية : د. عبدالغفار حامد هلال ، مكتبة وهبة ، ص ١٧٧ .

(٣) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٦٧ .

(٤) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ص ٩٢ .



وليس المجال هنا لبسط موقف القدماء من قضية الغموض ، إلا أنهم لم يجعلوا الغموض بمترلة واحدة ، فإن هناك من الغموض ما يشحد الذهن ، ويؤدي إلى التأمل ، فهذا الغموض محمود يحث المتأمل على المشاركة ، ولذة الاستماع ، بعكس ذلك الغموض الذي ينتج عن اضطراب في التأليف ، فيحتاج إلى جهد كبير للوصول إلى المعنى .

وعموماً ينبغي النظر إلى عملية الانزياح التي تمارس في التركيب الأدبي إلى أنها ضرورة للإبداع ، حيث يستخدم الأديب (بعض الكلمات والصياغات في دلالات ومعان لم يستخدمها العرف اللغوي ، ولكنها تكشف عن ابتكار ، وبراعة الأداء ، وحسن تأتٍ للمعاني بغية خلق وسائل تأثير خاصة لدى المتلقي) (١) .

ونستطيع أن نقول إن النظرة إلى التركيب البلاغي لا بد أن تربط بالمستوى الإبداعي ؛ لأن بحث البلاغيين الذي اتصف بهذه الشمولية قد حقق لنفسه نوعاً من التعالي على ما كان مطروحاً في البحث اللغوي ؛ لأنه تجاوز القدرة اللغوية إلى الطاقة الإبداعية ؛ لأن الأخيرة صاحبة القدرة على خلخلة الدلالة الوضعية ، والخروج بها إلى تشكيلات لا يسمح بها المعجم ؛ لأنها تسمح بتكون صياغي ، متنافر الدلالة لا يمكن قبوله إلا من منطلق إبداعي خالص (٢) .

فالبلاغة العربية نظرت إلى التراكيب نظرة تجاوزت المستوى اللغوي ، أو القاعدة النحوية إلى التركيب الفني ، ولا أدل على ذلك من مطابقة

---

(١) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٦٨ .

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٩٨ .

الحال ، ومخالفة الكلام لمقتضى الظاهر ، والأخير هو بعينه ما يتناوله درس الأسلوب في النقد الحديث تحت اسم (العدول ، أو الانزياح) ، واستعمال كلمة العدول في تراثنا البلاغي للدلالة على الخروج كثير وشائع ، مما يدل على أن البلاغيين قد فهموا الخروج على أنه عدول ، وإن لم يتخذوا من كلمة العدول مصطلحاً<sup>(١)</sup> .

ومن هنا ينبغي البحث في خصائص هذه التراكيب ؛ لأنها النهاية السليمة للدرس البلاغي ، أو ما يعرف بعلم المعاني الذي أطّره عبد القاهر بنظريّة (النظم) .

\*\*\*\*\*

---

(١) انظر : مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ص ٥٨٠ .

**المبَحَث الثاني**  
**خصائص التراكيب عند البلاغيين**

## المبحث الثاني

### خصائص التراكيب عند البلاغيين

إذا كان علم البيان يهتم بالعلاقات بين المفردات ، وبناء تلك العلاقات على أساس تحرر الدال من مرجعه المعجمي <sup>(١)</sup> ، فإن ذلك يعد تمهيداً للحديث عن التراكيب "علم المعاني" الذي هو الخطوة الأهم لبحث العمق الدلالي في النص الإبداعي ، فاهتمام علم المعاني "منصب على البنية سواء أكانت للعبارة أم للنص كله للوصول إلى المعنى الأصلي ، أو الإضافي ، أو الهامشي ، أو مستويات المعنى بصفة عامة <sup>(٢)</sup> .

ويؤكد د. أبو موسى علاقة علم المعاني بدراسة التراكيب بقوله في تقسيم علوم البلاغة : "فهناك بحوث تعني بالصياغة وأحوالها ، وموقع الكلمة المفردة ، فتبحث في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ... وغير ذلك مما له صلة بأحوال التراكيب ، وهذه البحوث سماها البلاغيون علم المعاني" <sup>(٣)</sup> . إن أحوال التراكيب مرتبطة بعلاقات داخلية تحكمها نظرية النظم القائمة على توخي معاني النحو <sup>(٤)</sup> ، وهذه الخاصية الأهم والأعمق في دراسة التراكيب ، حيث خضوعها لعلاقات داخلية وخارجية ، فالداخلية هي توخي

(١) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى : ص ٢٠٠ .

(٢) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية : ص ٩ .

(٣) خصائص التراكيب - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ص ١١٠ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٥٢٥ .

معاني النحو ، وهي لا تنفك عن علاقات خارجية متمثلة في مراعاة مقتضى الحال .

ومن هنا ندرك مدى العمق المتمثل في دراسة التراكيب ، ومدى تجاذب العلوم لها ، حتى وصل الأمر في الدراسات الحديثة إلى ما يسمى بالاتجاه النفسي الذي يؤثر في التراكيب وبنائها اللغوي والإبداعي .

وقبل الدخول إلى دراسة تلك العلاقات الداخلية القائمة على توخي معاني النحو تجدر الإشارة إلى أن علم البلاغة العربية قد اختلط بعلم النحو ، وعلم الكلام ، وعلم النقد<sup>(١)</sup> . فاستقى من هذا ومن ذاك ، فالحديث عن تأثر البلاغة بشيءٍ من ذلك أمر لا ينبغي أن يكون نشازاً ، ولكن إلى أي مدى نظر البلاغيون إلى خاصية العلاقات الداخلية للتراكيب .

إن هناك ملاحظات غاية في الأهمية في تحوّل التراكيب ، أعني بذلك نظرية "النظم" عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ومن قبله ملاحظات الجاحظ التي يمكن أن نقول إن الشيخ عبدالقاهر قد طورها في نظرية النظم ، وهي النظرية التي كان الإمام عبدالقاهر يتحدث عنها ، ويحدد أركانها وفي ذهنه قضية إعجاز القرآن الكريم ، كما أن هذه القضية هي التي شغلت من قبله ، وحاولوا أن يفسروها ، فالذين تحدثوا عن الإعجاز لم يقفوا عند اللفظ المعجز للقرآن الكريم ، بل تجاوزوا بيان المشكل والغريب من الألفاظ إلى الحديث عن النظم البليغ ، الذي أعجز العرب ، وقد ذكر الإمام الخطابي ذلك بقوله : "ولم تقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي

(١) انظر : خصائص التراكيب : ص ٨٢ .

منها يتركب الكلام دُونَ ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه وملابسه التي هي نظوم تأليفه" (١) .

وبعد أن يقسم الخطابي الكلام إلى أقسام ثلاثة ، فمنها البليغ الرصين ، ومنها الفصيح الغريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، بعد ذلك يذكر "أن القرآن قد مزج بين تلك الأنواع من الأساليب ... وبذلك "ميزة أسلوب القرآن - كما يقول - هي القدرة على إدماج تلك الألوان اللفظية في نظمه، مع نبو كل واحد منها عن الآخر ، وبهذا يمهد لنظريته في النظم وصلة الألفاظ بعضها ببعض في العبارة أو الآية" (٢) .

ومن هنا يؤكد د. سلام بأن الخطابي قد سبق إلى ذلك الامتزاج بين اللفظ والمعنى ، ولم يسبقه أحد إلى ذلك من علماء الدراسات القرآنية والنقد والبلاغة (٣) .

ولكن يبدو أن الجاحظ قد سبق إلى ذلك ، حيث أكد الجاحظ "على أهمية النظر إلى عناصر التأليف اللفظي" (٤) ، أو التركيب للنص ، ومن هنا عُد الجاحظ هو الممهد لنظرية النظم .

ولم يكن الذين تعرضوا لنظرية الإعجاز القرآني ليغفلوا عن أهمية التراكيب في هذا الإعجاز . فالباقلاني يُرجع إعجاز القرآن إلى نظمه وتأليفه ويفصل القول في ثلاثة أوجه من ذلك الإعجاز ، ومنه قوله : "أنه بديع النظم

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : للرماني والخطابي وعبدالقاهر ، حققها : محمد خلف

الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ص ٣٢ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص ٢٥٦ .

(٣) السابق ، ص ٢٥٦ .

(٤) الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي : ص ٣٤٨ .

عجيب التأليف ،منتهاه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ، ومن ذلك ، ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ... وله أسلوب يختص به ، ويتميز عن أساليب الكلام المعتاد" (١) . ويذهب الباقلاني إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن إعجاز القرآن في نظمه وبيانه "مُنصب ... على القرآن كله كوحدة وجملة لا تفصيلاً ، كنص كامل له ميزاته ، وصفاته التي تميزه عن أقوال العرب ، وفنون كلامهم ... وهو يأخذ بفكرة النظم التي نادى بها الخطابي ، وقال : إن ترتيب الألفاظ في الكلام خاضع لترتيب معانيها في النفس" (٢) .

ولم يغب عن الرماني أهمية التراكيب والنظم في إعجاز القرآن ، إذ إنه يعرف البلاغة بذلك ، حيث يقول : "إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ" (٣) ، وهو تعريف كما يقول د. سلام : "طريف نلمس منه روحاً جديداً في فهم مترلة البلاغة ودورها في التعبير ، ويتضح منه أنه يهدف إلى تحقيق معنيين ، أحدهما متعلق بالأثر النفسي للبلاغة ، وهو إيصال المعنى إلى القلب ، والثاني متعلق بالأسلوب والصورة البيانية للبلاغة من اللفظ ، والصياغة، أو النظم وهو في أحسن صورة من اللفظ" (٤) .

(١) إعجاز القرآن : للقاضي أبي بكر الباقلاني ، دراسة وتحقيق : الأستاذ الدكتور: محمود

محمد مزروعة ، دار كنوز المعرفة ، ص ١٠١ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص ٢٧٠ .

المراد بالنفس للبشر لا لله ، فالحديث ليس عن القرآن وحده .

(٣) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ٦٩ .

(٤) أثر القرآن في تطور النقد العربي : ص ٢٣٦ .

كما يذكر الإمام السيوطي الكثير من الآراء التي كانت تُرجع إعجاز القرآن إلى نظمه وتأليفه <sup>(١)</sup> ، مما يدل على أهمية الخاصية التركيبية للقرآن الكريم.

ويبدو أن مفهوم التركيب أو النظم في هذه المرحلة لم يكن بالمفهوم الدقيق عند عبدالقاهر ، بل المراد به "صورة من صور التأليف البليغة التي تختلف عما ألفه العرب من شعر أو نثر" <sup>(٢)</sup> .



وإذا كان المتكلمون والنقاد قد لمسوا أهمية التركيب بعيداً عن المفردة فإن البلاغيين قد لمسوا عمق المعالجة للتركيب ، فبرزت للتراكيب خصائص أكثر عمقاً من خلال الربط بالمستوى النحوي ، كما ظهر في نظرية النظم عن عبدالقاهر <sup>(٣)</sup> .

إن ربط الكلمة بسياقها الدلالي ، وسياقها النحوي ، وهي نظرية النظم التي طورها الشيخ عبدالقاهر الذي كانت تشغل ذهنه قضية الإعجاز القرآني <sup>(٤)</sup> ، ولكنه أراد في دلائل الإعجاز أن يؤسس لنظرية النظم التي يفسر

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن : للإمام السيوطي ، حققه وعلق عليه : فواز أحمد زمرلي دار الكتاب العربي ، ص ٧١٣ - ٧١٩ .

(٢) الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي : ص ٣٧٥ .

(٣) يرى د. حمد السويلم : أن المؤسس الحقيقي لنظرية النظم هو القاضي عبدالجبار ، وقبله قال بهذا الرأي د. عبدالفتاح لاشين .

انظر : الاتجاه الفني في تراثنا البلاغي والنقدي ص ٣٧٦ ، وبلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية : د. عبدالفتاح لاشين ص ٨٠ .

(٤) انظر : الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي : ص ٣٨٠ .



بها إعجاز القرآن الكريم ، وهذه النظرية (أي النظم) هي ثمرة الاستفادة من علم النحو ، الاستفادة التي ترد الإبداع إلى علاقات لغوية ، داخلية ، كما أنها تجاوزت المفردة التي لا قيمة إبداعية لها في ذاتها ، إلا بمقدار وضعها في سياقها الإبداعي المناسب ، وهذا التركيب بين الألفاظ هو القائم على ترتيب معانيها في النفس ، وهذه المعاني ليست إلا معاني النحو " (١) .

إن نظرية الإمام عبدالقاهر يمكن أن نعتبرها كما يقول د. العمري مقولة معاصرة ، وهي أن النص الأدبي تشكيل لغوي في الدرجة الأولى ، وعلينا أن ننشد أسرار جماله الفني في تحليل بنائه اللغوي ، الذي يرجع إليه وحده كل ما في النص الأدبي من جمال وروعة ، أو فساد واختلاف (٢) .

لهذا لقيت نظرية النظم النجاح الكبير ؛ لأنها دخلت إلى النص سواء القرآني أو غيره لإبراز ذلك الترابط الداخلي للتركيب الفني ، مسترشدة بالقواعد النحوية التي لا مفر لتكلم عنها ؛ لأنه لا يمكن جمع كلمات ورفضها لتكون تركيباً بعيداً عن قواعد النحو ، فلو غير مواضع كلمات صدر بيت امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل ، فقلت من نبك قفا حبيب ذكرى  
مترل هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها ؟ !! (٣) .

---

(١) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني :د:أحمد جمال العمري مكتبة الخانجي بالقاهرة ص ٢٣٩ .

(٢) السابق ص ٢٤٢ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤١٠ .

ولربما يتصور الجانب اللغوي أو الإعرابي فقط في هذه القواعد ، إلا أن عبدالقاهر يرقى بهذه القواعد النحوية لتكون "قواعد فنية" ، شأنها في ذلك شأن قواعد الوزن تتجاوب مع الصياغة الأدبية ، وتتفاعل معها " (١) .

فالنظم ليس هو النحو كما تقول الباحثة د/منيرة العلولا (٢) ، ولم يقل الشيخ عبدالقاهر ذلك إنما قال : "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، وأصوله ... " (٣) .

يعلق د. السويلم على ذلك بقوله : " ففي هذه الفقرة ... يبين

عبدالقاهر أبعاد نظريته ، وهو هنا لا يستخدم لفظ قواعد النحو أو مقاييس النحو ، وإنما يستخدم مصطلح علم النحو ، ليكون أكثر استيعاباً لمستويات الكلام من حيث الإسناد ، وأحواله ، والشرط ، والجزاء ، ووجوهه ... وترابط الجمل بعضها مع بعض ، أو ما عبر عنه بالسرد ... - إن -

عبدالقاهر يفرق بين أصول النحويين وعلم النحو ، فالأول منهما ينتمي إلى مجال قوانين اللغة ، أما علم النحو فهو الذي يحصل الخصائص الفنية ، أو الأدبية في الكلام شعراً كان أو نثراً " (٤) . إن النحو عنده أعمق من قضية الإعراب التي ارتضاها النحاة.

وتضيف الباحثة على ما سبق أن هناك نصوصاً تبين مدى عنايته -

يعني - عبدالقاهر " بالنحو ، والإعراب ، والدافع له إلى هذه العناية ، حيث

(١) الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي ص ٣٨٤ .

(٢) انظر : الإعراب وأثره في ضبط المعنى ص ١٤٦ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٨١ .

(٤) الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي ص ٣٨٢ .

عده الأساس الذي يستقيم معه النظم ، وهو الميزان الذي يتبين به صحة النظم من خطئه " (١) .

فالصحة والخطأ المتعلقة بالإعراب ليست من اهتمام الشيخ عبدالقاهر لأنه يريد بالنحو تجاوز القواعد إلى الاختيار ، حيث إن القضية المهمة (ليست إعمال قواعد النحو ؛ لأن قواعد النحو قائمة في الكلام كله في الجيد ، والرديء على حد واحد ، كما أنه لا يتأتى الاختيار في هذه القواعد ، فلا يجوز ولا يتصور أن أوثر في كلامي قاعدة ، وأتخلى عن قاعدة ، والنحو لا يتجزأ ، وإنما يقوم في الكلام كله على الصحة والتمام ، كما ينبغي كما يقول عبدالقاهر : وإنما المراد هو انتقاء التعريف في مقام يقتضيه وانتقاء التقديم في مقام يقتضيه... والانتقاء إنما هو الاختيار الأشبه بالمعنى ، والأشكال في الدلالة " (٢)

وحاصل ما سبق أن عبدالقاهر يعالج قضية النظم ، واستطاع أن يفسرها تفسيراً أعمق من قضية الإعراب ، إنه يردّها إلى المعاني الثانية أو المعاني الإضافية التي تلمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ، ودلالاته في النفس " (٣) .

ويؤكد د. أبو موسى الصلة القديمة بين نظرية النظم وعلم المعاني ، وعلم الإعراب ، والتي أغرت بعض النحاة الذين عجزوا عن تحديد النحو من ذات نفسه بأن يجتازوا علم المعاني ، وأن يضمّوه إلى النحو ، وأن يعتبروه

---

(١) الإعراب وأثره في ضبط المعنى ص ١٤٦ .

(٢) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني ص ٢٠٦ .

(٣) انظر : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٩ .

فرعاً منه " (١) ، بل هو الأصل ، وإن كانت علاقته بالنحو قد جعلته أعمق في الدراسة اللغوية ، والأسلوبية .

فواضح إذاً أن القضية المهمة هي قضية بلاغية ، ولكننا نجد الباحثة تبالغ في عناية الشيخ عبدالقاهر بالنحو ، وتقول : (يوشك أن يكون في مباحث الدلائل متصدياً لخصومة طائفة حاولت التقليل من شأن النحو ، والشعر كليهما) (٢) .

فموقف عبدالقاهر من خصوم النحو لم يكن بهذه المبالغة حتى بنى مباحث الدلائل عليها ، فهو " يناقش خصومه الذين قللوا من شأن النحو في مسائل كثيرة ، وهو يتفق معهم أن فيها إغراباً على السامعين ، وأنه لا خير في كثير منها ، ولكن أراد أن يصل إلى تجديد النظرة إلى النحو (٣) .

فعبدلقاهر يذكر في أول كتابه قوله : " ومعلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض " (٤) ، وواضح من هذا أنه يعالج قضية بلاغية ، هي النظم ، حيث إن " هناك فكرتين قويتين ، وقضيتين عظيمتين قد استحثتا من قريحته وأذكتنا من حميته وكانت ذاتي أثر بالغ في نضاله عن النظم ، وتجواله في أفنانه ، وهما قضية الإعجاز ، وقضية اللفظ والمعنى (٥) ، وهما قضيتان بلاغيتان ، وتأكيد ذلك عندما يدافع عن

(١) انظر : مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني ص ٢٠٥ .

(٢) الإعراب وضبطه في المعنى ص ١٤٣ .

(٣) عالم اللغة عبدالقاهر المقتن في العربية ونحوها : د. البدرراوي زهران ، دار المعارف

ص ١٥٨

(٤) دلائل الإعجاز ص ٤ .

(٥) البلاغة بين عهدين ص ١٤٣ .

علم البيان ، ويرى أنه علم لقي الحيف ، وسوء الفهم كثيراً<sup>(١)</sup> ، ولذلك فهو يعالج في الكتاب قضية بلاغية ، متسلحاً بتضلعه في علم النحو .

وقضية النظم ما هو إلا جزء من البلاغة ، ولذا يؤكد الشيخ عبدالقاهر أن هناك فنوناً بجانب النظم ، ولكن النظم هو السلطان عليها<sup>(٢)</sup> ، فالاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۖ ﴾ [سورة مريم : ٤] ، " لم تبلغ غايتها من الحسن إلا بمعاونة النظم ، ومؤازرته لها ، وأنها لو عريت من خصائص النظم ، ومعاني النحو لم يكن لها ذلك الحسن وتلك المزية " <sup>(٣)</sup> .

وإلى جانب هذا النوع من التراكيب الذي اتسمت خصائصه بكمال النظم فيه لم يغفل الشيخ عبدالقاهر تلك التراكيب التي قل إعمال النظم فيها ، ولكنها مع ذلك لم تخل من جودة فيها ، ومدار ذلك الذوق ، والجمال ، والسهولة فيها ، فيبدو هذا النوع ليس فيه كثير صنعة ، ولم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم<sup>(٤)</sup> ، ومع ذلك هو بجانب هذا سواء من حيث الجمال الفني ، والحسن الأدبي ، ويضرب لذلك بقول الجاحظ : " جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ... " <sup>(٥)</sup> .

يعلق د. محمد نائل أحمد على ذلك بقوله : " إن مثل قول الجاحظ لا يقل بلاغة وروعة عن ذلك النظم السابق ، وإن قل في دقة الصنع ، وكثرة

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز ص ٨١ .

(٢) البلاغة بين عهدين ص ١٠٨ .

(٣) انظر : دلائل الإعجاز ص ٩٦ .

(٤) السابق ص ٩٧ .

(٥) البلاغة بين عهدين ص ١١٣ .

التصرف ، و فرق كبير بين درجات النظم ، و درجات البلاغة ، فإن البلاغة كما تكون بالكلام البارع تكون بغيره من بهاء اللفظ ، و رونق العبارة ، و وضوح التركيب ، و تسلسل المعنى ، و تلاؤم الأجزاء ، و من الاستعارة الرائقة و الكناية اللطيفة ، إن مرجع البلاغة إلى التأثير و إصابة الغرض ، و ذلك كما ينشأ عن براعة النظم ، و دقة الصنع يجيء بحسن الاستعارة و روعتها ، و رشاقة الألفاظ ، و حلاوتها ، و بكثرة مائها ، و صفاء ديباجتها ، و لطف قوامها ، و حسن دلالتها "

و من بديع صنيع الشيخ عبدالقاهر كما يقول د. أبو موسى أنه :  
"يسط مسائل في البلاغة ، ليحلل تراكيب الكلام ، و يدخل منها في أبواب منسقة " (١) ، فلم يكتب الشيخ للتقعيد و المعيارية الجافة ، بل إن كثيرا من فصول كتابه دلائل الإعجاز عامرة بالفكر البلاغي الحي ، و المدارس التحليلية لفقهِ الأسلوب ، و التغلغل في مباني الكلام ، و التعرف على حقائقه و وجوه دلالاته .

كل هذا بعيداً عن التقعيد في أبواب معينة ، كما فعل المتأخرون من علماء البلاغة ، لذلك يعتب د. أبو موسى على عدم الاهتمام بهذا الجانب ، و الاقتصار على ما حاول المتأخرون من البلاغيين تقعيده ، و تحديده في أبواب محددة مهملين تحليلات الشيخ عبدالقاهر التي هي أكثر ما أودع في كتابه (٢) .

\* \* \* \* \*

(١) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني ص ٩٩ .

(٢) انظر : السابق ص ١٠١ .

وإذا انتقلنا إلى مرحلة متأخرة وجدنا التراكيب تتخذ خصائص جديدة عند علماء البلاغة الذين اتسموا بالعلمية ، والتقنين ، وإن كان هذا الأمر أبعد التراكيب عن خصائص الوصف ، والتحليل للبنية الداخلية ، كما وجدناها فيما قبل ، إلا أننا هنا نجد سمات ، وخصائص نستطيع أن نسميها خصائص خارجية لها أثر بالغ في نجاح الأثر الفني ، لا سيما أنه يخضع لبنائه الداخلي ، ومحيطه الخارجي المتمثل في المبدع ، والمتلقي ، بل والبعد "الزمكاني".

وبداية نجد تعريف علم المعاني يتخذ هذه الأبعاد المختلفة ، حيث روعي فيه أقطاب ثلاثة هي : الكلام ، والمتكلم ، والمخاطب ، فعلم المعاني هو : " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " (١) .

وقبل هذا التعريف المختصر نجد السكاكي يعرف علم المعاني بأنه :  
" تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره " (٢) .

وبالنظر إلى هذا التعريف نجد الاهتمام بتلك الأقطاب المؤثرة في التراكيب :الكلام (الرسالة) ، والمتكلم ، والمخاطب ، حيث الاهتمام بكيفية مطابقة هذا الكلام لمقتضى الحال (المخاطب) . ويبدو من التعريف أيضاً سمة التراكيب المراد هنا ، فمن خلال كلمة (تتبع) في التعريف ندرك اهتمام البلاغة بالناحية الاستقرائية ، بهدف الوصول إلى ظواهر الكلام التركيبية في سياقاتها

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص ٧ .

(٢) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ص ٧٠ .

المختلفة ، وهذا يقودنا إلى ظاهرة إضافية - في التراكيب - وهي ظاهرة وخاصة التوالد ، أي أن إنتاج التراكيب يتم على أساس أن الأصل يمثل عملية مخاض دائمة ، تنتج للمبدع قدراً كبيراً غير محدد من أشكال الصور التعبيرية <sup>(١)</sup> .

ومع أن الخطيب القزويني تعقب السكاكي بأن التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، إلا أنه أراد بالتتبع كما يقول د. شكري عياد أن يبين طريقة بناء العلم ، والتتبع هنا يجر السكاكي إلى قضية الذوق ، الذي بدا مفهومه عنده قريب من "الحدس" <sup>(٢)</sup> ، إذا فهمنا من هذا المصطلح الأخير ضرباً من الحكم العقلي الناشئ عن مراعاة عدد كبير من العوامل دفعة واحدة ، وكثيراً ما يكون مثل هذا الحكم ضرورياً إذا كان من المتوقع أن يؤدي التحليل والقياس إلى إغفال بعض تلك العوامل ، أو إساءة تقديرها ، ولا شك أن تعدد الاعتبارات البلاغية إلى درجة تكاد تفوق الحصر يجعل الذوق ، أو الحدس هو المرجع الأساسي في الحكم <sup>(٣)</sup> .

ويستخلص د. محمد عبدالمطلب من ذلك التعريف لعلم المعاني ثنائيات التراكيب : فهناك :

أولاً : ثنائية الكلام المؤلف ، والكلام الأدبي ، أو المستوى المثالي والمنحرف ، ذلك أن التصنيف الصياغي يرجع - بالدرجة الأولى - إلى المستهدف الإنتاجي ، فإذا كان المستهدف لغاية عملية صرفة أو إيصالية ،

(١) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) اتجاهات البحث الأسلوبي ص ٢٢٥

(٣) السابق ص ٢٢٥ .



فإن النسق يرتد إلى قيمة مجردة عن التأثير ،... وهناك - الأداء العدولي الذي يعمل على انتهاك هذه المعيارية " (١) ، للوصول إلى لغة الخطاب الأدبي الذي يتميز بكثافة شديدة ، لا تسمح للمتلقي الاختراق السريع ، وإنما تجعله يقف أمامها ، وهو المشار إليه بقضية - الاستحسان - في تعريف السكاكي ، حيث يكون أمام عملية توالد تقدم التركيب المفيد أولاً لتستولد منه التركيب الحسن ثانياً (٢)

والنظرة الاستحسانية أو غيرها هي لب التركيب الأدبي ، فهو يشير إلى قضية الذوق المتعلقة بالتركيب ، والذوق (قدرة للإنسان تحفزه على التفاعل مع القيم الجمالية في الأشياء ، أو في الأعمال الفنية ، وهو معيار عام ذو مكانة جوهرية في النقد الأدبي " (٣) ، إلا أن هذا الذوق لا بد أن يكون مدرباً مع أنه فطرة بشرية ، وعموماً يعد معياراً - لما يظهر في التركيب من انزياح - يمارسه القارئ ، وإن اختلف من قارئ مدرب ذي خبرة إلى قارئ آخر .

ويؤكد د. محمد العمري دور السكاكي في نظريته إلى الذوق مع ما اشتهر أنه هو الذي جمد البلاغة ، حيث يقول : " هذا الوعي بالظاهرة - يعني الذوق - هو الذي جعل السكاكي يحدد موقفه منذ البداية ، منطلقاً من طبيعة العلم نفسه " .

---

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٣ .

(٢) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٤ .

(٣) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ص ١٤١ .

فمهما كان العلم عقلياً فلا بدّ له من نظرة من الاستعانة بالذوق ، فكيف به إذا كان مبنياً مثل علم المعاني أو علم البلاغة عامة ، على المواضعة ، والألفة " (١) .

ثم ينقل عنه ذلك صراحة في قول السكاكي " وقبل أن تمنح هذه الفنون حقها في الذكر نبهك على أصل لتكون على ذكر ، وهو أو ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريحها إلى مجرد العقل ، أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استعادة الذوق ، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكّات وضعية واعتبارات إلفية ، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فناده إن فاته الذوق " (٢) .

الثانية الثانية في تعريف السكاكي هي ثنائية المتكلم ، والمتلقي ، فعلم المعاني الذي يقوم على عملية التتبع يقتضي حضور الذات ، حيث إنها تمتلك قدرة خاصة على استقراء الصيغ ثم إنشاء صيغ تتوفر فيها مجموعة المواصفات المكتسبة (٣) . ومن ثم يكون حضور المتلقي واستحضار حالته الإدراكية ، والثقافية ، وكون الكلام مستهدفاً لذلك المتلقي ، أو غير مطابقاً له ، ومن ثم يدخل دائرة الخطأ ، وهو كما يقول د. محمد عبدالمطلب ليس الخطأ المنطقي أو اللغوي بل هو الخطأ الفني الذي يحيل الكلام إلى نوع من العبث ، الذي لا يدخل دائرة علم المعاني ، ولا دائرة البلاغة (٤) .

(١) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص ٤٨٧ .

(٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص ٤٨٨ .

(٣) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٥ .

(٤) انظر : السابق ص ٢٠٧ .

والمتلقي بهذه الأهمية في البلاغة يسبق الأهمية التي رسمتها له الأسلوبية الحديثة ، التي جعلت دخول المستقبل " المتلقي " قارئاً ، أو سامعاً في التنظير والتحديد ذا أهمية بالغة ، حيث أكسبها ثراءً في تعريف أسلوبها (١) .

والحديث عن المتلقي ذو صلة بمقتضى الحال ؛ لأن هذا المقتضى "يتفاوت فتارة يقتضي ما لا يفتقر في تأديته إلى مزيد من الدلالة الوضعية ... وهو الذي سماه السكاكي" ، أصل المعنى ، وتارة يفتقر إلى ما ينحرف عن هذا المستوى المؤلف ، حيث يستوفي التراكم خواصها الإبداعية التي تتجاوز الأصل ، فالخطأ إذاً لا يتعلق بالمستوى الأول ، وإنما يتعلق بالمستوى الثاني الذي يحتمل الوضوح والخفاء ، والعموم ، والخصوص ، والقلة والكثرة (٢) .

ثم إن هناك علاقة كبيرة بين المتكلم ، والمتلقي ؛ لأن " المتكلم يكيّف صيغ خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم " (٣) .

ولعل تأكيد البلاغة على جانب المتلقي يأتي لأهميته في العملية التواصلية الإبداعية ، فالمتلقي "هو بمثابة انقداح شرارة الوجود للنص" (٤) ؛ لما يقوم به من استجابة ، ومن تحليل ومن تأثر بهذا النص ، أو ذاك ، وتأكيداً على الجانب السابق ، تأتي ثنائية الحال ومقتضى الحال . والحال حصره البلاغيون في مستويات إدراكية هي : الابتدائية ، والشك ، والإنكار (٥) ، وهي تدل

(١) انظر : الأسلوبية والأسلوب ص ٦٨ .

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) الأسلوبية والأسلوب ص ٦٤ .

(٤) السابق ص ٦٩ .

(٥) انظر : البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٦ .

على " أن يكون الكلام فيه خصائص في الصياغة ، وأوضاع في التراكيب تدل هذه الخصائص وهذه الأوضاع على معانٍ يكون الكلام وافياً ، ومطابقاً لما يطلبه الموقف الداعي " (١) .

فهناك إذن ارتباط وتلازم بين تلك الشحنة الإبداعية التي يتولد عنها النص ، وبين المتلقي الذي لا بد أن يكون الكلام مؤثراً فيه .

والبلاغيون بتقسيم التراكيب إلى هذه الأضرب الثلاثة " يدركون العلاقات الداخلية في التراكيب المختلفة نتيجة لما يتصل بها من لواصق ، ولواحق ، فإضافة أدوات التوكيد في بداية الجملة ينقل الدلالة من المستوى العادي إلى مستوى أعمق في تأكيد المعنى كما تحقق هذه الزيادة في حجم البنية التلاؤم بين المستويات الدلالية للنص ، وحالة المتلقي " (٢) .

فقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة يس : آيات ١٤ - ١٥ - ١٦] .

نجد التصعيد في التأكيد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ ، ثم ازداد التأكيد في قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ ، كل ذلك تبعاً لحال المخاطب ، ومقامه من الشك والإنكار .

فالتركيب هنا يتغير حيث " تتكاثر عناصر من التوكيد وفقاً لتصاعد أحوال الإنكار في هذا الحوار القرآني الخصب " (٣) .

(١) خصائص التراكيب ص ١٠٧ .

(٢) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) خصائص التراكيب ص ١٤٨ .

ولم يتوقف البلاغيون عند هذه النظرة لمقتضى الحال ، بل إنهم " يتجاوزون ذلك في هذا المنحى ، من ثم يقدمون تصورات أخرى لبعض اختيارات المبدع في بيئته بناءً على اعتبارات سياقية ، وملابسات قد يتطلبها موقف المتلقي ، وقد سميت هذه التصورات بمجيء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر " (١) .

وبهذا ندخل في الثنائية الرابعة ، وهي ثنائية مقتضى الظاهر ، وغير مقتضى الظاهر (٢) . ففي الخروج في مقتضى الظاهر يهمل حال المتلقي ، ويمكن القول : " بتفريغ المتلقي من حالاته الإدراكية الظاهرة ، وشحنه بمحالات طارئة لأهداف إبداعية محدودة ، وقد يكون المتلقي في حالة الإحاطة بفائدة التركيب ، لكن يتم تجاهل هذه الحال ، وإنزاله - مثل حالة أخرى - لاعتبارات خطائية مرجعها تحميله بوجوه الدلالة المباشرة (٣) .

ويرى د. حامد الربيعي أن هذا المستوى - الخروج على مقتضى الظاهر - هو الأكثر "أهمية في ميدان البلاغة لما له من ظلال ، وإيحاءات ، وأبعاد جمالية ، لا تتحقق في الأسلوب في حالة كونه على مقتضى الظاهر ، ولأن فنية الصياغة في الأول تتمثل في مجرد القدرة على تطبيق الكلام مع ما يقتضيه الحال ، أما الثاني ففيه خروج ومطابقة في آن واحد " (٤) .

---

(١) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٩٣ .

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٧ .

(٣) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٨ .

(٤) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ص ٥٧٩ .

ويبدو أن هذا الخروج جاء تحت أبواب عدة ، منها : وضع الظاهر موضع المضمَر ، والالتفات ، والأسلوب الحكيم ، والقلب ، والتعبير بصيغة من صيغ الأفعال عن صيغة أخرى، وغير ذلك (١) .

وبهذا يكون البلاغيون قد فتحوا هذا الباب المهم الذي هو "الانزياح" .

في الدراسات الحديثة ، وإن كان عندهم تحت مصطلحات عدة ، وقد أثبت د. ظافر العمري مدى عناية علماء البلاغة لهذا الجانب ، حتى إن البحث البلاغي قد عني به ، وأولاه البلاغيون عنايتهم لما وراءه من نكات وفوائد (٢) .

ولذا نجد المؤلفات البلاغية في العصر الحديث تنطلق من هذه الزاوية لدراسة الالتفات ، والعدول عموماً بما فيه من عموم بلاغي ودلالي في سمات التراكيب البلاغية . ثم هناك ثنائية أخيرة يذكرها د. عبدالمطلب وهي الفائدة ولازم الفائدة وهي كما يقول "لها علاقة باستحضار المتلقي أو المتكلم وغلبة أحدهما داخل السياق" (٣) .

إن هذا التعريف لعلم المعاني يبرز السمات والخصائص العامة للتركيب وخاصة تلك الخارجية المؤثرة فيه ، ومن ثم يمكن الرجوع مرة أخرى إلى داخل التراكيب ، ومن ثم ندرك مدى ما تكتسبه التراكيب من خصائص

---

(١) انظر : الإيضاح ص ٤٢ " المطول سعد الدين التفتازاني " ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الأفعال ص ١٢ .

(٣) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢٠٩ .

التحرك والنمو حسب أقطاب العملية الإبداعية المتكلم والمتلقي والتركيب نفسه "الرسالة" وهي سمات "تنفي مقولة شاعت بين الدارسين وهي أن البلاغة القديمة لم يكن لها عناية إلا بطرف واحد من طرفي الاتصال وهو المتلقي" (١).

مع أنها قد اهتمت بالأقطاب الثلاثة التي تجعلنا ندرك أن هناك بذوراً أسلوبية في أعماق البلاغة القديمة ، وهذه خاصية ذات أهمية ، وهي الخاصية الأسلوبية .

\* \* \*

### الخاصية الأسلوبية :

يتميز الأسلوب بأنه "يتمثل في النصوص المنطوقة أو المكتوبة ، أو هو الطبقة العليا لهذه الظاهرة ، وهو يبرز خلال عملية التلقي بشكل تستطيع مناهج علم اللغة التقليدي نحوية ، ودلالية أن تلم به ، أو تحلل مقاصده ، وتأثيراته" (٢).

ومن ثم هو داخل تحت مظلة النظرية الأسلوبية التي تستمد معاييرها من النظرية العلمية (٣).

وترتبط الأسلوبية بالبعد اللغوي كما حددها "بالي" ، فإن المنطلق التعريفي لها كما يقول د. عبدالسلام المسدي : "يمتزج فيه المقياس اللساني بالبعد الفني استناداً إلى تصنيف عمودي للحدث الإبلاغي ، فإذا كانت عملية

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٢١٠ .

(٢) علم الأسلوب والنظرية البنائية : د. صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ١٢٧/١ .

(٣) انظر : علم الأسلوب والنظرية البنائية ١٢٧/١ .

الإخبار علة الحدث اللساني أساساً فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغي إلى الإثارة ، وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية<sup>(١)</sup> .

ولهذا فإن "المبدأ المحرك لهذه النظرية في ضبط حدود الأسلوبية هو اعتبار أن الفصل بين لغة الأثر الأدبي ومضمونه من شأنه أن يحول دون نفاذ إلى صميم نوعيته ، لذلك تفادت الأسلوبية في جل اتجاهاتها هذه الثنائية المصطنعة ،... وكان مرمى الأسلوبيين بعامة تزييل عملهم منزلة المنهج الذي يمكن القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكاً نقدياً مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية"<sup>(٢)</sup> .

وهذا جعل الأسلوبية في بعض اتجاهاتها تنحو منحى علمياً بحتاً ، وهي تدرس الأثر الأدبي بمعزل عما يحيط به من ظروف سياسية أو تاريخية أو اجتماعية ، كما أنها تعني عناية كبرى بالكيان اللغوي ، فمن لغة النص تبدأ وإليه تعود ، فمحور دراستها اللغة فحسب ، فالذاتية والانطباعية تكادان تكونان منعدمتين فيها ، فاللغة في يد الناقد الأسلوبي أشبه بمركب كيميائي ، إلا أن التعاطف مع النص يسبق عملية النقد الأسلوبي ، ولذلك فالناقد الأسلوبي لا يمكن أن يدرس عملاً لا يتذوقه ، ومع أن ذلك ربما يضيق النظرة الأسلوبية للنص ، إلا أنها تزيدها عمقاً وصدقاً<sup>(٣)</sup> .

(١) الأسلوبية والأسلوب ص ٣٣ .

(٢) السابق ص ٣٣ .

(٣) انظر : الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية : د. فتح الله أحمد سليمان ، دار الآفاق

العربية ، ط الأولى ، ٢٠٠٢م ، ص ٣٦ .



فمن هذه السمة العلمية الأدبية يكون علم الأسلوب قد أدى إلى إثراء النقد الأدبي، إلا أنه لا يبوح بكل أسراره من خلال مجموعة من الإجراءات ذات الألق الرياضي المبسط ، وإنما يؤدي فقط إلى تأكيد لمحة نقدية لامعة تمد الباحث بأداة منهجية ، لتأصيل فكرته وتعميقها وربطها بسواها من الأفكار الجمالية الشارحة <sup>(١)</sup> . ولكنه يعد ذا أهمية في مجال الدرس اللغوي والنقدي، إضافة إلى إثراء مصطلحي واسع.

\* \* \* \* \*

وإذا كان هذا هو الأسلوب والدراسة الأسلوبية فما يا ترى صلة ذلك بالبلاغة العربية ولا سيما خصائص التراكيب ؟ وهل نجد ما يربط هذا بذلك . ينبغي التأكيد أولاً أن هناك هدفاً مشتركاً بين الأسلوبية والبلاغة "فالأسلوبية شأنها شأن البلاغة في التفكير الإنساني بعامه ، لا تستقيم حدودها ما لم يسلم بمصادرة جذرية ، ألا وهي سعي الحيوان الناطق إلى إدراك التبليغ الأكمل " <sup>(٢)</sup> ، وهو الهدف الذي تتجاوز فيه كل من البلاغة والأسلوبية حدود التواصل اللغوي العادي إلى مستوى التأثير الفني ، "فموضوع كليهما" فن الكتابة ، وفن التركيب، وفن الكلام ، وفن الأدب " <sup>(٣)</sup> .

فالبلاغة تتجاوز الربط المعجمي بين المفردات إلى مرحلة من الوعي الإبداعي الذي لا يعرف معنى الالتزام التركيبي ، وإنما كل تركيب يخلق علاماته الخاصة ، وبما أن التراكيب لا تنتهي فإن العلاقات لا تنتهي

(١) انظر : رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٢١ .

(٢) الأسلوبية والأسلوب ص ٣٣ .

(٣) الأسلوبية والأسلوب ص ٣٩ .

أيضاً<sup>(١)</sup> ، وهذا هو ما نجده في الأسلوبية وعلم الأسلوب ، يقول عن ذلك د. المسدي : "الأسلوب مجموعة من الطاقات الإيجابية في الخطاب الأدبي ، وذلك أن الذي يميز هذا الخطاب هو كثافة الإيحاء ، وتقلص التصريح ، وهو نقيض ما يطرد في الخطاب العادي ... ولعل ماهية الأسلوب تتحدد بنسيج الروابط بين الطاقتين التعبيريتين في الخطاب الأدبي : طاقة الإخبار ، وطاقة التضمين"<sup>(٢)</sup> ، إلى جانب هذا فإن المنهج العلمي الذي تتبناه الأسلوبية قد سبقت إليه البلاغة حتى قال د. صلاح فضل : "وإذا كان قد قيل بأن البلاغة هي علم أسلوب الأقدمين فمن الملاحظ أن حظها من العلم كان يوازي ، بل يفوق في بعض الأحيان تصورات العلوم الأخرى ، فكثير من تحليلات التراث البلاغي المتصلة بمضمون التعبير تضاهي المنطقة التي يغطيها علم اللغة الحديث ، من قضايا تتصل باللغة ، والفكر ، والفصاحة وبأشكال القول وتكوينه ، مما يشمل جوانبه الثلاثة ، الصوتية ، والمعجمية ، والنحوية ...

وربما تبدو في بعض الأحيان ساذجة في نزعتها التقييدية الصارمة ، لكنها بالرغم من ذلك أحق العلوم القديمة لتسمية العلم ، فبقدر اتساع ملاحظاتها ، ودقة تحاليلها ، وتعريفها ، وقوة تصنيفها ، وخضوعها للمنطق بقدر ما تمثل دراسة منظمة لوسائل اللغة التعبيرية ، لا تعدلها أية دراسة أخرى معاصرة لها ، ولا تكمن أهميتها في أنها تعكس تصوراً معيناً عن اللغة ،

---

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى ص ٩٨ .

(٢) الأسلوبية والأسلوب ص ٧٦ .

والأدب فحسب ، بل في أنها تبلور فلسفة حية ، وتراثاً ثقافياً فيه النماذج الفكرية السائدة" (١) .

وهذه العلمية لم تكن بالشكل الذي يتخلى عن الجانب الوصفي التحليلي ، حيث انصرف جانب مشرق من البلاغة العربية إلى وصف النصوص المنجزة ، وارتباطها بالخصومات ، والإعجاز للقرآن الكريم (٢) .

فالبلاغيون كانوا يتخذون أحياناً الكلام العادي ، وأحياناً أخرى المعنى المجرد مرحلة من مراحل الدخول إلى عالم المعاني التي تجسدها الفنون البلاغية" (٣) ، وكان السبيل إلى ذلك هو اتخاذ أدوات تمثل تلك العلاقات بين ديوان اللغة ، معتمدين على المستوى النحوي ، الذي تمثل في بناء "نظرية النظم" ، وذلك هو ما بذله الشيخ عبدالقاهر ، إذ إنه قد بذل "جهداً صادقاً وهو بصدد التفرقة بين معاني النحو عنده ومعاني الكلم المفردة ، أو المعاني الدلالية ، وأوضح في جلاء أنه لا يقصد بها المعاني القاموسية أو ما هو على شاكلتها ، ويمكن القول بأنه يقصد ما يعنيه اللغويون اليوم "معاني البنية" الذي هو مدلول العلامات اللغوية ، سواء أكانت هذه العلامات أصواتاً ، أم كلمات أم جملاً ، وهو معنى يوصل إليه عن طريق المنهج الشكلي ...

وواضح أن عبدالقاهر ألح إلحاحاً شديداً على بيان أن معاني النحو : "هي ما تعنيه اليوم المعاني الوظيفية أو الشكلية التي تدور حول وظيفة الباب في

---

(١) علم الأسلوب والنظرية البنائية ١٦٧/١ .

(٢) انظر : البلاغة والأسلوبية تعليق المترجم محمد العمري هانس ٢٣/٩ .

(٣) رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية ص ٢٣ .

السياق" (١) . وهو ما تحدث عنه "شارلي بالي" ، فإن علم الأسلوب ينبسط على رقعة اللغة كلها بجميع الظواهر اللغوية ، ابتداءً من الأصوات حتى أبنية الجملة الأكثر تركيباً ، يمكن أن تكشف عن حقيقة أساسية في اللغة المدروسة" (٢) .

إن الشيخ عبدالقاهر قد سبق إلى التأكيد أن "اللغة بالنسبة لأبنائها عادات وميدان حركة ، ووسيلة حياة في مجتمع متكلم بها ، له عادات نطقية ، معينة ، يحددها العرف اللغوي ، كما أن للمتكلم استجابة لقواعد لغوية يراعيها في الكلام ، وإن لم يدركها لا جملة ولا تفصيلاً" (٣) .

فالمعاني تأتلف في ذهن المتكلم باللغة ، فهي تصدر منه بطريقة لا شعورية ، فهو لا يفكر فيها ولا يعطيها حظها من الدرس ، والتأمل ، ولكننا نتلقى المعاني مرتبة بالترتيب الذي يقدمه البناء الكلامي أي في صورة الأشكال اللفظية ، ومن هنا لا بد من الاهتمام بالاتجاه الشكلي في التحليل اللغوي (٤) .

ومن هنا يمكن القول بأن التراث اللغوي العلمي النابع من "فرديناند دي سوسير" هو جزء من التراث اللغوي العربي ، كما تبلور في عمل ناقد فذ هو عبدالقاهر .

---

(١) عالم اللغة عبدالقاهر المفتن في العربية ونحوها : د. البدرابي زهران ، دار المعارف ص ١٨٤ .

(٢) انظر : مقال "علم الأسلوب وعلم اللغة العام من كتاب "اتجاهات البحث الأسلوبي : د. شكري عياد ص ٣١ .

(٣) عالم اللغة : عبدالقاهر ، ص ١٨٣ .

(٤) انظر : السابق ص ١٨٦ .

ولا غرو أن الشيخ الجرجاني قد تحدث عن الكلام وليس عن اللغة ، وهو ما كان يركز عليه "سوسير" إذن نستطيع أن نقول "إن في كل ما نقوله من كلام عادي توجد بذور الفن ، لكن هذه البذور يجب أن نلاحظ صلتها الشديدة بما تسميه باسم النحو" <sup>(١)</sup> ، وهو ما كان يركز عليه الشيخ عبدالقاهر ، حيث أدرك أن الصيغ والتراكيب لها التحام شديد بأهداف الأدباء الكبرى ، وفلسفاتهم ، وإذا أريد بحث المعنى الكلي أو الجزئي دون النظر إلى النحو أو التراكيب من حيث هي ذات فعالية في تشكيل المعنى ، فقد ظللنا السبل" <sup>(٢)</sup> .

ومن هنا كانت بذور الأسلوبية منبثة في تراثنا البلاغي ، ولا سيما عند الشيخ عبدالقاهر ، ولم يقف ذلك عند البنية الداخلية ، فقد كانت هناك صلات بين البلاغة والأسلوبية في التشكيل اللغوي، ويمكن أن تستغل البحوث البلاغية في مجال الدراسة الأسلوبية ، فالهدف (النهائي لعلم الأسلوب - كما يراه كثير من علماء الأسلوب - هو أنه يقدم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب ، وما يختص به كل منها من دلالات . وهذا نفسه هو ما يصفه عالم البلاغة ، فنحن نعرف مثلاً أن علم البلاغة يتناول طرقاً معينة في استعمال المفردات كالاستعارة والمجاز المرسل ، والكناية ... ويتناول أنواعاً معينة من الجمل الخبرية ، والجمل الإنشائية ، وطرقاً معينة في تركيب الجمل كحذف بعض أجزائها أو تقديم بعض أجزائها على بعض ، ... ولا شك أن

---

(١) اللغة بين البلاغة والأسلوبية : د. مصطفى ناصف ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٩٨٩م (ص ٢٥٠) .

(٢) انظر : السابق ص ٢٥٦ .

دارس علم الأسلوب في هذا العصر سعيد الحظ جداً ، إذ يجد بين يديه هذه الحصيلة الوافرة المنظمة من الملاحظات حول الألفاظ والتراكيب ، ودلالاتها التي تتجاوز الدلالات المعجمية والنحوية) (١) .

وليس التماس بين البلاغة والأسلوبية فيما تعالجانه من بنية داخلية للنص الإبداعي ، بل إن هناك مثل هذا التقارب في النظرة إلى البناء الخارجي لذلك النص الإبداعي، فالتراث الأسلوبي " يقوم على ركح ثلاثي دعائمه هي المخاطب ، والمخاطب ، والمخاطب ... ويبدو أن هذا التنظير الثلاثي قد كان قائم الذات منذ كان تفكير لغوي في تاريخ البشرية بعامة ، لكن هذا الجهاز المثلث يتراءى لنا الآن وثيق الصلة بنظرية الإبلاغ" (٢) .

وهو ما نجده في البلاغة العربية التي اهتمت بالبلاغة متمثلاً في أقطاب ثلاثة، وذلك من خلال ما اتضح في ثنائيات تعريف السكاكي (٣) ، فإذا كان المنظرون لتحديد مفهوم الأسلوب يرون أن المخاطب يوائم بين طريقة الصياغة وأقدار سامعيه ، فليس هذا إلا ترديداً لما قال به البلاغيون العرب في تعريف بلاغة الكلام بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال" (٤) ، فهناك بذور يمكن أن تستغل في الدراسة الأسلوبية سواء على الجانب اللغوي الإحصائي ، أو الجانب الداخلي النحوي ، إلا أن ذلك لا يعني التطابق التام بين الأسلوبية والبلاغة العربية ، فذلك ما لم يره د. المسدي ، حيث يحدد هذه الفروق بقوله

---

(١) مدخل إلى علوم الأسلوب : د. شكري محمد عياد ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) الأسلوبية والأسلوب ص ٥٠ .

(٣) انظر : ص ٣١ وما بعدها من هذا البحث .

(٤) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ص ٣١ .

"إن من أبرز المفارقات بين المنظورين البلاغي والأسلوبي أن البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ، ويرمي إلى تعليم مادته ، وموضوعه .. بلاغة البيان ، بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كل معيارية ، وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية بالمدح ، أو بالتهجين ، ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة ، فالبلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة ، وتصنيفات جاهزة ، بينما تتحدد الأسلوبية بقيود العلوم الوصفية ، والبلاغة ترمي إلى خلق الإبداع بوصاياها التقييمية ، بينما تسعى الأسلوبية إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتكرر وجودها .

ومن المفارقات ... أن البلاغة قد اعتمدت الفصل بين الشكل والمضمون في الخطاب اللساني ... بينما ترفض الأسلوبية مبدأ الفصل بين الدال والمدلول ، إذ لا وجود لكليهما إلا متقاطعين ، ومكونين للدلالة " (١) . وهذه الفروق ، وإن كانت تبدو واضحة في حيز جزئي من البلاغة إلا أنها ليست كذلك في النظرة الشمولية ، فالمعيارية اتضح كونها منهجاً لضبط العلم تدرج تحته عملية الاستقراء المستمرة ، التي يمكن أن يصدق عليها مفهوم النظرية . كما أن كون البلاغة قبلية الأحكام وسابقة للنص لا يستقيم كما يقول د. أبو موسى : " لا فرق بين علم البلاغة وعلم نقد الأدب وأن القول بأن البلاغة تأتي قبل النص لأنها تشريع له ، وتقول للأديب إذا أردت كذا فقل كذا ، وأن النقد يأتي بعد النص يدرسه ويحلله ، ويحكم عليه كل هذا كلام لا يلتئم مع الذي نقرؤه في كتب العلم " (٢) .

(١) الأسلوبية والأسلوب ص ٤١ .

(٢) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر ص ٥٦ - ٥٧ .

فالنظرة العامة للبلاغة تنفي ذلك ، حيث الممارسة الحية للنصوص ودراستها ، وتحليلها بعيداً عن التقعيد ، والمعيارية .

أما قضية فصل الدال عن المدلول أو اللفظ والمعنى فهي قضية انتهت بنظرية النظم ، ولم تعد تدرس إلا كتاريخ ، ومرحلة من مراحل البلاغة ، لا قضية تناقش وتدرس ، فقد اتضح الأمر وانتهى إلى نظرة عميقة بعيدة عن الشكلية، ويكفي قضية المعاني الأول والثواني ، والمعاني التخيلية ، ودور المتلقي في ذلك ، كما عند حازم القرطاجني في القرن السابع .

وقد نظرت الأسلوبية إلى اللغة على أنها "بناء مفروض على الأديب من الخارج ، والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة ويستغل أكبر قدر ممكن منها الكاتب الناجح ، أو صانع الجمال الماهر الذي لا يهمة تأدية المعنى فحسب ، بل ينبغي إيصال المعنى بأوضح السبل، وأحسنها وأجملها ، وإذا لم يتحقق هذا الأمر فشل الكاتب وانعدم معه الأسلوب (١) .

وفي الجانب المقابل - جانب البلاغة - نجد أنها وخاصة الشيخ عبدالقاهر "لا يفصل أبداً تصوره عن مفهوم القصد أو الغرض - فإنه - يعطي للمتكلم سلطة أكبر ؛ لأنه هو مصدر الحقيقة" (٢)

ولم يغفل أن يعطي المتلقي دوره في تفسير العمل الأدبي لذا ندرك "أن النظرية البلاغية العربية برمتها بنيت على أساس مفهوم التواصل بالمعنى الخاص الذي يصبح فيه المرسل المصدر الأساس للمعرفة ، والقارئ متلقياً للمعرفة أو

(١) الأسلوبية والأسلوب ص ٦٧ .

(٢) القراءة وتوليد الدلالة تقيد عاداتنا في قراءة النص الأدبي : حميد الحميداني ، المركز الثقافي

العربي بالمغرب ، ط الثانية ، ٢٠٠٧م ، ص ١١٢ .



على الأصح باحثاً عن المعرفة، لا مساهماً في تأسيسها " (١) وهذا تأثر بالنظر في القرآن الكريم، لذا وجدنا تحجيم دور التلقي، لكنه ليس التحجيم الذي يلغي دوره في التحليل والوصف.

إن كل ما سبق يدلنا على خصائص أسلوبية كامنة في أعماق البلاغة العربية، وليس المراد هو عقد "مقارنة لما هو عند الغربيين من مناهج حديثة وبين ما هو قديم في تراثنا الفكري، بل الهدف هو صياغة ملامح دراسية ملائمة للنص الأدبي يعتمد منهجية قادرة على النظرة الشمولية للنص.

وهذا لا يتحقق إلا من خلال الفهم لحقائق التراث العربي وأصوله، إذ لا معاصرة بدون أصالة، ولا أصالة بدون معاصرة، فاعلة متفاعلة بعيداً عن التحيز لهذا أو ذاك، بحثاً عن كل ما يساعد على الدخول إلى النص الأدبي، وإدراك جماليات الإبداع.

\*\*\*\*\*

---

(١) القراءة وتوليد الدلالة ص ٦٤-٦٥

**الفصل الأول**  
**بلاغة التراكيب في بناء الجملة**  
**عند القرطبي**

وتحته مبحثان :

المبحث الأول :

خصائص التراكيب عند الإمام القرطبي .

المبحث الثاني :

بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي .

# المبحث الأول

## خصائص التراكيب عند الإمام القرطبي

ويشتمل على محورين :

- الأول : خصائص التراكيب عند المفسرين .
- الثاني : خصائص التراكيب في تفسير القرطبي .

## المحور الأول : خصائص التراكيب عند المفسرين :

إن دراسة التراكيب جزء أصيل في الدرس البلاغي ، بل هو الجزء الذي يتضمن أبعاداً دلالية وأسلوبية تنظر إلى النص الأدبي بأبعاد عميقة ، حيث تتوسع دائرة التراكيب لتشمل النص الأدبي كله بدءاً بالمفردة وعلاقتها بأحوالها في الجملة ، وعلاقتها بالجملة الأخرى ، وأخذ بعضها برقاب بعض إلى النص كله وحدة نهائية لدراسته ، وإدراك أسرارهِ .

و دراسة التراكيب في القرآن الكريم ذات أهمية بالغة لاسيما وأن "علم البلاغة قد نشأ في ظل الدراسات القرآنية ، ولخدمة قضاياها وبخاصة قضية الإعجاز ، ولهذا فهو من العلوم القرآنية " (١) .

و دراسة التراكيب عموماً أو علم المعاني لا يمكن أن يقف عند حدود تلك الأبواب المقررة في هذا الباب ، بل إنه يعد إسهاماً قوياً ، وأصيلاً في دراسة الأسلوب بدأها عبد القاهر الجرجاني ، وأكثر من التطبيق عليها جار الله الزمخشري وابن الأثير ، لما في هذا العلم من دور كبير في بناء الجملة على نحو يؤدي إلى وفاء المعنى وتماحه طبقاً لما يقتضيه الحال (٢) . وتبرز أهمية دراسة التراكيب عند تناول كتاب الله عز وجل ، الذي كان له دور كبير في نشأة وتطور علوم لغوية ، وأدبية لم تكن لتوجد لولا القرآن الكريم ، وإذا كانت البلاغة العربية قد استقت في نشأتها من علوم لغوية ، وأدبية ، فإنها مع القرآن الكريم بدت شيئاً آخر . يقول د/ أحمد العمري : "إننا لا يمكن أن ننكر علوماً أخرى كان لها أكبر الأثر أيضاً ، ومن هذه العلوم اللغوية ، والعلوم

(١) بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني : أ.د / توفيق الفيل ، مكتبة الآداب ص ٣ .

(٢) انظر السابق ص ٧ .

الأدبية ، وقد لا يبدو في احتضان مجموعة العلوم اللغوية ، والأدبية بنشأة البلاغة شيء من الغرابة ، فالبلاغة نفسها علم أدبي لغوي ، يتعامل مع النصوص الأدبية من حيث هي إبداع أدبي أولاً ، ومن حيث هي بناء لغوي ثانياً ، لكن ما يستوقف النظر بحق مساهمة العلوم القرآنية في احتضان نشأة البلاغة العربية بنصيب يفوق نصيب العلوم الأخرى" (١) .

ومن هذا المنطلق فقد أدلى علماء لغويون ، ونحويون بدلوه في دراسة القرآن الكريم سواء أكانت هذه الدراسة قائمة على بيان غريب القرآن ، كما في كتاب (غريب القرآن) لأبي عبيدة وآخر لابن قتيبة "أو نحت منحى آخر تنظر فيه إلى أسلوب القرآن والمعاني والنظم ، وصلته بالمعنى ، واللفظ ، كما في مجاز القرآن للجاحظ ، ونظم القرآن لابن قتيبة" (٢) .

كما أن هناك كُتُبا ، ألفت تحت مُسمى (معاني القرآن) ، ويذكر ابن النديم ما يزيد عن خمسة عشر كتاباً تحت هذا المسمى لعدد من اللغويين ، والنحاة" (٣) ، ومصطلح كلمه "معاني" ، كما يقول د/ عمار الددو : "كانت ذائعة منتشرة ، واضحة الدلالة عندهم ، ثمَّ سوغ لابن عطاء أن يتخذها عنواناً لكتاب" (٤) ، وهو أول من استعمل هذه الكلمة" (٥) .

---

(١) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : د. أحمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص ٣٩ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) انظر : الفهرست ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤) البحث الدلالي في كتب معاني القرآن : لأبي عبيدة ، والأخفش ، والفراء ، د/ عمار

الددو ، عالم الكتب الحديث ، ص ١٣ .

(٥) انظر : السابق ص ١٧ .

والذي يهمننا في هذه البدايات هو نظرتهم إلى تراكيب القرآن الكريم .  
وإن ما يلاحظ في تلك المصنفات هو اهتمامها بجانب النحو أولاً ، ثم بالغريب  
ثانياً ، وما يمس الحس البلاغي هو حديثهم عن المجاز ، وهو من الأساليب  
الدقيقة في دلالة التراكيب ، ومن ذلك كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة ، الذي  
تكمن أهميته كما يقول د/ زايد بأنه :

١- استخدم بعض المصطلحات البلاغية التي تحدد لها فيما بعد مدلول  
بلاغي علمي .

٢- اكتشاف بعض الفنون ، والأساليب البلاغية ، التي جاء بها علماء  
البلاغة فيما بعد ، فوضعوا لها المصطلحات ، ودرسوها على نحو  
مفصّل" (١) .

وفي نظري أن أهميته أيضاً تكمن في معالجة المجاز في مرحلة مبكرة ،  
وهو إدراك لأهمية هذا الانزياح الأدبي ، وإن كان دلالاته عنده أقرب إلى  
الدلالة اللفظية .

وإذا كانت هذه الكتب الأولى يغلب عليها الجانب النحوي ، كما في  
كتاب (معاني القرآن) للأخفش ، إلا أننا لا نعدم اهتماماً بالنظر إلى التركيب  
فهو يذكر الآية بطولها ، ثم يذكر معناها التركيبي بعيداً عن معنى المفردة ،  
فمثلاً عند قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٩] ، يقول : "كأنه فسّر الوعد فبيّن ما  
وعده أي : هكذا وعدهم ، فقال : "لهم مغفرة وأجر عظيم" (٢) .

(١) البلاغة العربية : د. علي عشري زايد ، ص ٢٣ .

(٢) معاني القرآن : للأخفش ، دراسة وتحقيق : د. عبدالأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب  
ص ٣٩١ .

وإذا انتقلنا إلى كتاب آخر ، وهو (معاني القرآن) للفراء ، لوجدنا أن الجدير بالاهتمام فيه هو التفاته "إلى نظم القرآن ووزنه ، إذ لاحظ هذا النسق الصوتي ، وحاول أن يتبعه" <sup>(١)</sup> ، ولا شك أن هذا النسق ذو أهمية في دراسة التركيب ، ودلالته المعنوية .

وهذه الكتب اهتمت بناحية أخرى ، لها صلة بالتركيب ، وهي السياق، واهتمامهم به مختلف ، فدلالة "السياق عند الفراء ليست حدية وقطعية إلى هذا الحد الذي ذهب إليه أبو عبيدة ، والأحفش ، وإنما فيها شيء من الاتساع ، وهو مع هذا الاتساع ، وتعداده للوجه .... يبقى - مجالاً لاحتمالات أخرى ، ولذا نراه يُردد دائماً قوله : (الله أعلم)" <sup>(٢)</sup> .

فهذه بدايات لم تغفل الحديث عن التراكيب ، لا سيما التركيب القرآني ، وكما يقول د/ سلام فإنها بدأت بالبحث في تفسير آيات القرآن من الناحية اللغوية ، ثم تطورت إلى محاولة التعليل ، والاستشهاد بكلام العرب ثم انطبعت بالطابع البياني ، واتجه اهتمامهم إلى فنون القول لا غريب اللفظ" <sup>(٣)</sup> .

وهذا الاهتمام هو الذي برز بعد ذلك في كتب اهتمت بالبحث في إعجاز القرآن الكريم ، كما عند الرماني ، والخطابي ، والباقلاني ، وإذا أردنا أن نلمح إلى أحد هؤلاء فإن الناظر إلى كتاب الباقلاني يسترعي نظره اهتمامات عميقة بالتراكيب في القرآن الكريم ، متجاوزاً حتى التركيب للآية

(١) المباحث البلاغية ، ص ٥٦ .

(٢) البحث الدلالي ، ص ٨٢ .

(٣) انظر : أثر القرآن في تطور النقد ، ص ٢٨٦ .

إلى التركيب للسور بكاملها ، وهو أمر يندرج تحت ما يسمى بالوحدة الفنية<sup>(١)</sup> .

ثم هو أيضاً يربط بين السور بعضها ببعض ؛ لتؤلف وحدة متكاملة حتى إذا جاء المفسرون من بعد أخذ النظر إلى التراكيب ينمو فوجدنا جلّ المفسرين لا يتوقفون عند دلالة المفردة ، أو حتى دلالة الآية بدون ربطها بسياقها العام ، ومن هذا تعد الاستفادة من علم التفسير ، أو أدواته في مجال الدراسة الأدبية أمر في غاية الأهمية<sup>(٢)</sup> .

واهتمام المفسرين بالناحية البلاغية وخاصة تحليل التراكيب بدأ منذ وقت مبكر ، فهذا الإمام الطبري "شيخ المفسرين" يبدى اهتماماً بالمنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن صحابته رضوان الله عنهم ، مما يصب في الناحية البلاغية ، واللغوية . فهو "شديد العناية بالإشارات اللغوية والبيانية التي كانت تكون في كلامهم رضوان الله عليهم كالرمز ، والإيماء ، والإشارة في خفاء ، وكان تحليله لهذه الذخائر المهمة مدخلاً ظاهراً لمسائل علم البلاغة ، وخاصة ما يتصل منها بعلم المعاني ، ولهذا صار تفسيره كترّاً من كنوز البلاغة ، سبق فيه إلى كثير من المسائل ، والأصول البلاغية ، ولا يزال بمثابة الواحة الخصبة بأبكار الأفكار"<sup>(٣)</sup> .

---

(١) انظر : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، دراسة تحليلية ونقدية : د/ عبدالرؤوف مخلوف مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٤٣٧ .

(٢) انظر : أسرار التعبير القرآني ، دراسة وتحليل لسورة الأحزاب : د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ص ١١ .

(٣) السابق ص ٤ .



كما أنه قد تعرّض إلى أنواع من المجاز ، ويحلله تحليلاً دقيقاً ، رائعاً ، والأهم في هذا التحليل هو التزامه عرض الأديب الرائق ، فلا يجردها من الجمال<sup>(١)</sup> .

ومن هنا ندرك دور المفسرين الذين تناولوا آيات الذكر الحكيم بالتأمل والتعمق "وإذا جئنا نبرز العلاقة بين التفسير وعلم البلاغة بشكل عملي فليس هناك أكثر وضوحاً لهذه العلاقة من المادة العلمية التي احتوتها كتب التفسير . فإن نظرت فيها تدلك على مدى العناية بهذا الفن ، وإن خير من طبق هذا الفن في تفسيره تطبيقاً كبيراً العلامة المحقق الزمخشري"<sup>(٢)</sup> .

ومع كون "الكشاف" كتاب تفسير إلا أنه لاهتمامه بالجانب البلاغي يعد "نهاية مرحلة متميزة في الدراسة البلاغية إذ هي الامتداد الحق لدراسة عبد القاهر"<sup>(٣)</sup> .

والزمخشري لم يقف عند حدود التعريفات البلاغية ، بل ذهب إلى التأمل والتحليل ، ولذا فإن تطبيقاته في الكشاف لبعض الأصول البلاغية المفردة في زمانه يمكن أن تعتبر من إضافاته ما دام يضيف عليها من حسه وذوقه. وشيء آخر في هذه التطبيقات يعطيها أهمية وأصالة ذلك أن الأصول التي قررها عبد القاهر كانت منكورة أو قلقة بين معاصريه فأناحت لها

---

(١) انظر : أثر النحاة في البحث البلاغي : د/ عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها ، ص ٤٤ بتصرف .

(٢) الاتجاه البياني في تفسير القرطبي : إعداد محمد رضا حسن الحسن ، رسالة ماجستير - كلية الدراسات العليا - الجامعة الأردنية ص ٧ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٥ .

تطبيقات الزمخشري قوة ومكانة ، وأظهرت قدرتها في تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن في صورة دقيقة وشاملة (١) .

ولم يقف الزمخشري عند حد البلاغة المقررة ودراسة التراكيب وحدها بل تجاوز ذلك إلى التأمل والتحليل "النصي" وهذا جعله ينظر إلى النص القرآني نظرة شاملة قادت إلى الحديث عن المناسبة بين الآيات "وهو - أي علم المناسبة - علم شريف لم يحاوله إلا قلة من العلماء لدقته وصعوبة مسلكه" (٢) .

فعلم مناسبات القرآن "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو" (٣) .

ولهذا وجدنا الزمخشري بتأمله يتحدث عن بعض تلك المناسبات ، وقد كان القرطبي - رحمه الله - يشير إلى شيء من تلك المناسبات بين الآيات كما سيتضح في المبحث الثاني وفي الفصل الثالث .

(١) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٦ .

(٢) السابق ص ١٢ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : لبرهان الدين اليقاعي ، خرج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٥/١ ، وانظر : دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : د/ زاهر بن عواض الألمعي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ ، ص ٨٢ .

ثم إنه - أي الزمخشري - يتجاوز هذه الملاحظات إلى شئ من النسق النفسي لأسلوب القرآن الكريم ، وهذا النسق النفسي له دور في تشكيل التركيب ، كما أن التركيب له دور كبير في الكشف عن أسرار النفس وأغوارها.

ولم نجد من المفسرين والدارسين لبلاغة القرآن من اهتم بهذا الجانب الذي كان أساساً في بناء أسلوب القرآن اللهم إلا إشارات في بعض تفاسير الشيعة<sup>(١)</sup>.

ولقد برع الزمخشري في الحديث عن المفردة وملاءمتها لمكانها من الجملة ، وهو أمر يحتاج إلى دقة نظر وتأمل ذلك " لأنه سهل على الباحث أن يقول الكلمة المشهودة : " لكل كلمة مع صاحبها مقام " ، ومن الصعب العسير عليه أن يبحث ملاءمة الكلمة لمقامها ، وما يؤديه وجودها في هذه الصورة وعلى هذه الهيئة من المعاني والإيحاءات "<sup>(٢)</sup>.

ويبدو تأثر الزمخشري بالإمام عبد القاهر في الحديث عن المعاني البلاغية لصيغ الأفعال كما في حديثه عن دلالة " يقبض " في قوله تعالى : ﴿ **أَوْلَتْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتِ وَيَقْبِضَنَّ** ﴾ [سورة الملك : ١٩] . حيث إن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء

(١) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ١٥ .

تجدر الإشارة إلى أن سيد قطب رحمه الله له تحليلات رائعة في هذا الجانب في تفسيره في

ظلال القرآن . انظر مثلاً : قوله تعالى ﴿ **وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ**

**إِنَّا مَرَرْنَا مِنْ سَبِيلِ** ﴾ (٤٤) . انظر : في ظلال القرآن ٣١٦٨/٥ .

(٢) السابق ص ١٧ .

أما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طاريء غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة " (١) .

ومن هنا ندرك دلالة تلك الألفاظ على رسم المشهد فتأمل "هذا الطير وهو يصف جناحيه ويفردهما ثم يقبضهما ويضمهما وهو في الحالين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء يسبح فيه سباحة في يسر سهولة ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !!

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه لا يمله النظر، ولا يمله القلب وهو متعة فوق ما هو مثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع الذي يتعانق فيه الكمال والجمال " (٢) .

وإذا كان البعد النحوي له دور في توجيه دلالة التراكيب فإن من المفسرين من أخذ بأهمية هذا البعد في توجيه دلالة التراكيب، حتى إن الزمخشري يجعل المدار اتساق النظم وبهذا "يرفض أقوال أئمة النحو في إعراب القرآن التي لا تراعي اتساق نظمه يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَنرَبِّ إِنَّا هَنؤَلَاء قومٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٨٨] . و"قيله" قريء بالحركات الثلاث ، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حملة على أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، و"قيله" وعنه وقال "قيله" وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول : عجبت من ضرب زيد عمراً ، وحمل الجر على لفظ الساعة

(١) انظر :الكشاف ١٣٨/٤ ، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٦٤٢ .

والرفع على الابتداء والخير ما بعده ، وجوز عطفه على الساعة على تقدير حذف مضاف ، ومعناه عنده علم الساعة وعلم قبيله . والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ومع تنافر النظم بهذه الدقة نرى الزمخشري يغوص في أعماق دلالة التركيب ليصطفي ما هو أنسب وأحرى " (١) .

ويبدو أن الزمخشري كان مع ذلك التأمل والتحليل يتعسف في أحيان كثيرة ويتمحل في إخضاع النص ودلالته إلى قواعد المعتزلة . لأن منطلقهم هو تمجيد العقل فالعقل " عندهم هو تلك الحاسة اللطيفة الجوهر التي تميز الإنسان من الحيوان ، وكما أن فعل العين هو الإبصار فكذلك فعل العقل هو التفكير والروية والنطق ... وسماه الزمخشري السلطان قائلاً " امش في دينك تحت راية السلطان ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان " (٢) .

ومن هذا تمحل الزمخشري لإخضاع بعض النصوص الدالة على خلاف مذهبه لمذهبه كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] : أي وكلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه محفوظاً في اللوح ، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة (٣) .

(١) الكشاف ٤٩٨/٣ . والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٠٥ .

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ٥٤/١ .

(٣) انظر : السابق ص ٥٧ ، والكشاف ١١١/٢ - ١١٢ .

ومع هذا يعد الزمخشري أفضل من وقف عند الآي القرآني يتأمله  
ويطبق نظرية النظم التي أرساها عبد القاهر ، فالنظم عنده يبحث علاقة  
الجملة بالجملة " وبيان وجه ارتباطها بها .

ولعل الزمخشري قد أثر فيمن جاء بعده من المفسرين فجاءت تفاسيرهم  
ذات اهتمام بهذا الجانب البلاغي حيث يعد ابن خلدون "الكشاف" من أفضل  
الكتب التي اهتمت بما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة  
ومعرفة مقاصد الأساليب <sup>(١)</sup> . إلا أن ذلك لم يمنع ابن خلدون من التعنيف  
على هذا الكتاب لما فيه من الاعتزال <sup>(٢)</sup> .

وينقل أبو حيان الأندلسي الكثير من بلاغة تراكيب القرآن عن  
الزمخشري حيث يقول عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ  
الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [سورة مريم : ٤] : " وجاء العظم لأنه يدل على الجنس وقصد  
إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد  
أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصد آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه  
ولكن كلها " <sup>(٣)</sup> . وهذا هو ما قاله الزمخشري في الكشاف <sup>(٤)</sup> . كما أننا  
نجد له إضافات رائعة حول بلاغة التراكيب من ذلك ما ذكره عند قوله  
تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [سورة مريم : ٣٤] :

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ، دار العلم ، بيروت ، لبنان ، ط الرابعة (١٩٨١) ،  
ص ٤٤٠ .

(٢) انظر السابق الصفحة نفسها .

(٣) البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي ١٧٣/٦ .

(٤) انظر : الكشاف ٥٠٢/٢ .

"الإشارة بذلك إلى المولود الذي ولدته مريم المتصف بتلك الصفات الجميلة ،  
و"ذلك" مبتدأ "وعيسى" خبر و"ابن مريم" صفة لعيسى أو خبر أو بدل ،  
والمقصود ثبوت بنوته من مريم خاصة من غير أب ،فليس بابن له كما يزعم  
النصارى" (١) .

فأبو حيان الأندلسي قد اهتم بالجانب البلاغي فهو "لم يتأثر في تفسيره  
بظاهرة الإقلال من الأسرار البلاغية والنكات البيانية التي تأثر بها المفسرون  
الأندلسيون قبله، يدلك على ذلك جعله علم البلاغة من العلوم التي يحتاجها  
المفسر في التفسير ، لأن المفسر في هذا يستطيع معرفة حسن التراكيب ،  
وإدراك فصاحتها وتحسس مواطن الجمال فيها ، ونتيجة لذلك فإنه قد توسع  
في التعرض للمسائل البلاغية والبيانية في تفسيره كثيراً ، وذلك لأن الدراسة  
اللغوية والبلاغية أصبحت مرتكزاً للتفسير في عصره ، مما جعله حقاً مصدراً  
هاماً في الدراسات التفسيرية والبلاغية على السواء ، لثراء مادته وجودة  
استنباطاته" (٢) .

كما أن الإمام الرازي كان كثير التأثر بالإمام عبدالقاهر الجرجاني ،  
والزمخشري ، وما يهمننا هنا هو ما نجده في تفسيره (التفسير الكبير) ، فهو  
مليء بالملاحظات البلاغية ، ويبدو أن موسوعية الرازي الذهنية جعلته يملأ  
تفسيره بالآراء الفلسفية ، والعلمية ، حتى قيل إن في تفسيره كل شيء إلا  
التفسير ، ولكن هذا الحكم جائر ؛ لأن الاستطرادات فيه تأتي في موضعها

---

(١) البحر المحيط ١٨٩/٦ .

(٢) الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ١٤ .

المناسب<sup>(١)</sup> . ومن هذه الاستطرادات تحليله الدقيق للتراكيب ، كاشفاً عن أسرارها ، ودقتها ، فهو يعلق على قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨] . بقوله : "كيف تكفرون" وإن كان بصورة الاستخبار ، فالمراد به التبكيت والتعنيف لأن عظم النعمة يقتضي عظم معصية المنعم ... وبين سبحانه وتعالى بذلك عظم ما أقدموا عليه من الكفر بأن ذكرهم نعمه العظيمة عليهم ليزجرهم بذلك عما أقدموا عليه من التمسك بالكفر ... فذكر تعالى من نعمه ما هو الأصل في النعم ، وهو الإحياء . فهذا هو المقصود الكلي . فإن قيل لم كان العطف الأول بالفاء والبواقي بثم ؟ . قلنا لأن الإحياء الأول قد يعقب الموت بغير تراخٍ ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء ، والإحياء الثاني كذلك متراخٍ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً<sup>(٢)</sup> . ولما في الإحياء الأول من القدرة الإلهية التي لا تحد بالوقت ولا بالزمن .

ولعلّ ما يلفت النظر هو اهتمام المفسرين بنواحي البلاغة المختلفة ، بدءاً من معالجتهم للمشكل من ألفاظ القرآن ، ثم وصولاً إلى دلالة التراكيب القرآنية بما في ذلك دلالة المجاز بأنواعه المختلفة ، ودلالات التراكيب ، ولعلّ هناك من كانت عنايته أكبر ، كما نجد ذلك عند أبي السعود العمادي ، حيث يقول عن تفسيره صاحب كتاب التفسير والمفسرون إنه : " كثير العناية بسبك العبارة وصوغها ، مولعاً كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن ، فهو

(١) انظر : المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازي ، دراسة بلاغية بيانية ، د. أحمد هندواي

هلال ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٢) التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، طهران ١٤٩/٢ .



يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية ، وسر إعجازه في نظمه ، وأسلوبه ، وبخاصة في باب الفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير ، والاعتراض والتذييل ، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها " (١) .

لذا ندرك أن المفسرين قد انطلقوا من اهتمامهم بالبلاغة وعلم التراكيب خاصة لما له من دور كبير في تجلية المعنى والبحث عن دلالاته . فقد اتخذ بعض المفسرين من علم البلاغة والبيان وسيلة للكشف "عن جماليات النص القرآني بما ييهر الألباب " (٢) .

كما أننا لا نعدم الملاحظات البلاغية في كثير من التفاسير حتى وإن كان صلب موضوعها الأحكام كما في تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" .

\*\*\*\*\*

---

(١) التفسير والمفسرون : دكتور محمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، ط ٢ ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ، ٢٤٩/١ .

(٢) ومن أبرز التفاسير التي عنيت بذلك أنوار التزئيل ... مفاتيح الغيب للرازي ، البحر المحيط لأبي حيان ، الدر المصون للسمين الحلبي ، إرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي ، روح المعاني للألوسي ، والتحرير والتنوير لابن عاشور ، وعشرات من الحواشي الموضوعية على الكشاف والبيضاوي التي أظهرت مزية هذا الفن في خدمة القرآن الكريم " . انظر : الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ٧ .

## المحور الثاني : خصائص التراكيب في تفسير القرطبي

على الرغم من أن القرطبي \_رحمه الله\_ (١) ألف تفسيره الجامع لأحكام القرآن ليكون موسوعة في الفقه والقراءات والإعراب ، غير أن المطلع على هذا التفسير يجد فيه كثيرا من اللمحات البلاغية والتوجيهات النحوية للتركيب القرآني، وأثر ذلك في المعنى والدلالة .

ولقد تأثر في ذلك كله "بالمدرسة الأندلسية في التفسير" التي ترى أن حمل كلام الله على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ، إلا أنه يقف عند ملاحظات بلاغية وتركيبية تؤكد اهتمامه الكبير بالبلاغة القرآنية (٢) وبخاصة الأسلوبية منها .

فعند حديثه عن إعجاز القرآن الكريم يرد ذلك إلى الإعجاز البلاغي، وخاصة النظم، حيث يذكر تلك الوجوه للإعجاز ومنها "النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها . لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وهذه الثلاثة : النظم والأسلوب والجزالة لازمة لكل سورة ، ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب ... " (٣) .

---

(١) هو : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري توفي سنة ٦٧١هـ انظر :

نفتح الطيب ٤٢٨/٢ ، طبقات الداوودي ، ضبطه : عبدالسلام عبدالمعين ، دار الكتب ٣٤٧/١ ، الأعلام (٢١٧/٦) ومقدمة التفسير الجامع لأحكام القرآن .

(٢) انظر : الإتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ١٢ .

(٣) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله القرطبي ، اعتنى به الشيخ هشام سمير النجاري ، دار عالم الكتب ، إهداء صاحب السمو الملكي الأمير الوليد بن طلال آل سعود ٧٣/١ .

من هذا الكلام ندرك أن القرطبي لم يعد مطلق الأسلوب سبباً للإعجاز، إنما الإعجاز في الأسلوب يكون عن طريق نظمه<sup>(١)</sup>، وقوله "لكل سورة" يجعلنا ندرك مدى اهتمام القرطبي بوحدات الأسلوب التي يتكون منها النظم ابتداءً من "وضع الجملة في سياق الجمل المرتبطة بها، لبيان السبب في أن نحوها ومعناها لا يمكن أن يفسر تفسيراً كاملاً إلا إذا أخذ في الاعتبار سياقها الأكبر"<sup>(٢)</sup> (النص أو السورة) في القرآن، حتى يصل إلى النص الكامل في القرآن الكريم، وهذا نجده واضحاً عنده عن طريق ربط الآيات بعضها ببعض وبيان تناسب بعضها لبعض<sup>(٣)</sup>.

ولا غرو في أن النص مكون من وحدات، وتلك الوحدات الدلالية "لا يمكن أن تأخذ معناها إلا من خلال علاقتها بمجموع الوحدات التي تؤلف معها نصاً كاملاً، وعليه فإن تلك الوحدات الأخرى بما يوجد بينها من علاقات هي التي تشكل سياق تلك الوحدة، وبالتالي تعطيها معناها الحاضر داخل النص"<sup>(٤)</sup>. ومن هنا كان لكل سورة جوها الخاص، ودلالاتها الكاملة، ووحدتها التي تربط بينها وبين سابقتها ولاحققتها في وحدة متصلة، يستحيل فصل بعضها عن بعض.

---

(١) انظر: النظم القرآني في تفسير القرطبي ص ١٤٠.

(٢) المفارقة القرآنية - دراسة في بنية الدلالة: د/ محمد العبد، دار الفكر العربي، ص ٤٧.

(٣) انظر حول ذلك: تفسير القرطبي ٩٧/٣، ١٦٠، ٣٣٧/٣ مثلاً.

(٤) القراءة وتوليد الدلالة ص ١١٦.

إن الإمام القرطبي قد تحدث عن ذلك عند ربطه بين الآيات - كما سيتضح فيما بعد - ثم إن المتأمل لتفسير القرطبي يدرك خصائص التراكيب عنده والتي يمكن إبرازها فيما يلي :

**أولاً :** انطلاقاً من السياق النحوي فإن القرطبي قد تجاوز قضية الإعراب إلى توجيه الإعراب هذا أو ذاك للمعنى المراد ، وهي قضية النظم التي تتجاوز السياق النحوي إلى الدلالة البلاغية .

فهو يعلق على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٠] . بقوله : "وإذا تأملت سؤال إبراهيم عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ، نحو قولك : كيف علم زيد ؟ . وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا ... و"كيف" في هذا الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر"<sup>(١)</sup> . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [سورة الغاشية : ١٧] . حيث إن المعنى على أي كيفية خلقها الله"<sup>(٢)</sup> . ولذا فالمعنى الدلالي المستكن في "كيف" هو الذي جعل هذه الدلالة تنفي عن إبراهيم عليه السلام الشك من حيث التركيب الداخلي للأسلوب بعيداً عن الاعتبارات الخارجية .

(١) تفسير القرطبي ٢٩٩/٣ .

(٢) انظر : مغني اللبيب عن كتب الأعراب : لابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ٢٠٧/١ .

**ثانياً:** ومما يلفت النظر أن القرطبي لم يغفل دلالة الألفاظ في السياق والتركيب القرآني كما أنه يستدل على المعنى المراد من لفظة بما يجاورها في السياق القرآني ، وهو بذلك يدرك مدى العلاقة بين ألفاظ السياق الواحد ومدى الدلالة لهيئة اللفظة ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] . يقول : "والخير" في هذه الآية المال لأنه قد اقترن بذكر الإنفاق فهذه القرينة تدل على أنه المال ، ومتى لم تقترن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال نحو قوله تعالى : "خير مستقراً" وقوله "مثقال ذرة خيراً يره" إلى غير ذلك <sup>(١)</sup> . أرأيت كيف حدد مدلول كلمة خير من خلال مجاورتها في السياق للإنفاق؟ وهي دلالة على أثر التركيب والسياق في تحديد مدلولات الألفاظ" فالسياق يؤخذ من اجتماع الألفاظ أي وجود بعضها مع بعض في جملة أو جمل متتابعة ، فتستدل على معنى إحدى الكلمات بما يجتمع معها في الجملة أو الجمل بين الكلمات الأخرى " <sup>(٢)</sup> .

ومثل ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [سورة النساء : ١٣] . حيث يقول : "وقرأ نافع وابن عامر" ندخله بالنون في الموضعين على معنى الإضافة إلى نفسه سبحانه والباقون "بالياء" كلاهما لأنه سبق ذكر اسم الله تعالى أي يدخله الله " <sup>(٣)</sup> .

(١) تفسير القرطبي ٣/٣٣٩ .

(٢) علم الدلالة تأصيلاً ودراسة وتطبيقاً :د/ عثمان محمد أحمد الحاوي ، مكتبة المنشي ص ١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٥/٨٢ ، وقد أفاض الباحث محمد الحسن في الحديث عن مصادر القرطبي البلاغية ومصطلحات عنده ، انظر : الاتجاه البياني ص ٢٢ - ٣٥ .

كما أن القرطبي يستدل باللفظ والقراءة على الرأي الفقهي حيث يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢١]. في هذه الآية دليل بالنص على ألا نكاح إلا بولي " (١) .

ومن نظراته لأهمية المفردة ما أوضحه عند قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٢] : "وشهيد" بناءً مبالغة ، وفي ذلك دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه فكأنه إشارة إلى العدالة " (٢) . ودلالة صيغة المبالغة هنا تجاوزت معنى المشتق شاهد إلى شهيد ، وكأن الأمر جاء بصورة التكرار ويتجاوز القرطبي ذلك ليشير إلى معنى يمكن أن نسميه "اجتماعي" وهو تكرر الشهادة لعدالة ذلك الشاهد والثقة به . ولذلك "فإن زيادة المبني دليل على زيادة في المعنى ، وإن هذا الارتباط بين المبني والمعنى أمر تقره الفطرة اللغوية " (٣) .

وينظر القرطبي إلى أهمية ربط السياق بعضه ببعض حيث إن هذا يحل كثيراً من الإشكالات فعند الحديث عن قوله تعالى ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٩] . يقول : "اختلف في القائل له كم لبث فقبل الله عز وجل ... وقيل سمع هاتفاً من السماء يقول له ذلك ، وقيل خاطبه جبريل ، وقيل نبي وقيل رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته ... قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى لقوله : ﴿ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٩] " (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٧٢/٣ .

(٢) السابق ٣٨٩/٣ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٢٣٥ .

(٤) تفسير القرطبي ٢٩١/٣ .

**ثالثاً :** ومن خصائص التراكيب عند القرطبي إدراك المعنى الكلي للتراكيب أو إدراك المعنى البلاغي وراء التركيب بعيداً عن الدلالة المباشرة للألفاظ . وهذا بارز في حديثه عن الجملة الخبرية ، وحديثه عن معاني الاستفهام والنهي والأمر .. فعند قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُمْ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٣] . يقول : "خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أي فهو مجازيكم على البر والإثم" (١). وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ [سورة النساء : ٩٧] . قال : "سؤال تقرير وتوبيخ" (٢) .

ولا يقف القرطبي عند دلالة الخبر القريبة ، بل يذهب إلى دلالات بلاغية ذات أهمية في الكشف عن المعنى ، وبعد الدلالة فعند قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤] . يقول : "والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد -صلى الله عليه وسلم- من اليهود وغيرهم" (٣) . فالسياق هنا جعل القرطبي يدرك الغرض البلاغي من هذا الخبر ، الذي يتجاوز الفائدة ولازم الفائدة إلى أغراض بلاغية، يكشف عنها السياق الذي وردت فيه (٤) . وهو ما نجده في تعليق القرطبي هنا .

(١) تفسير القرطبي ٩٦/٣ .

(٢) السابق ٣٤٦/٤ . ولزيد من الأمثلة ٣٧/٣ ، ٤٦ ، ٤٥/٤ ، ١٢٩ ، ٢١٦ .

(٣) السابق ٢٨/٤ .

(٤) انظر : بلاغة التراكيب ص ١٥ .

**رابعاً:** ومما نراه عند القرطبي ما يمكن أن نسميه الاهتمام "ببناء النص القرآني" المتكون من آيات لتمثل بناء السورة التي لها ملامحها الخاصة ، ولذلك نجده - كما سبق- يتحدث عن الإعجاز ليس في بناء الآية فحسب ، بل في بناء السورة أيضاً ، "فالنظم والأسلوب والجزالة لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدي والتعجيز" (١) .

ويتضح هذا الأمر عنده في الجانب النظري لدى قوله : "عاشراً - يعني من وجوه الإعجاز- "التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف" (٢) .

واهتمام البلاغة بذلك - أعني بناء النص - ليس بدعاً جديداً فإن "البلاغة هي السابقة تاريخياً لعلم النص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام المتمثل في وصف النصوص ، وتحديد وظائفها المتعددة" (٣) . ولذا عندما تحدث الإمام عبد القاهر عن نظرية النظم التي هي توحي معاني النحو جعل ذلك يتسامى إلى بناء النص ، كما في حديثه عن سورة الفاتحة وتحليل عملية النظم فيها (٤) . ثم يؤكد ذلك البناء عند حديثه عن الألفاظ والمعاني بقوله : "بأن الفصاحة لا تكون في الكلم أفراداً ، وإنما إنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض وكان يكون المراد بضم بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض ،

(١) تفسير القرطبي ٧٣/١ .

(٢) السابق ٧٥/١ .

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص: د/صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ، ط الأولى ، ١٤٢٥ ص ٢٩٩ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .



لا كون بعضها في النطق على إثر بعض ، كان واجباً إذا علم ذلك أن يعلم أن الفصاحة تجب لها من أجل معانيها ، لا من أجل أنفسها" (١) .

وإذا فهمنا كلام عبد القاهر بهذا الشمول أدركنا ضرورة النظر إلى بناء النص الذي تتصل كل جملة ببناء الأخرى من الناحية المعنوية، تحت سياق من الألفاظ المترابطة ، وهنا يكون الإعجاز في القرآن الكريم حيث لا يكون هناك فجوة في البناء ، حتى ما يُرى من حذف إنما هو ضروري للبناء السياقي والمعنوي .

ومن هنا جاءت أهمية إدراك العلاقة والتناسب بين الآيات للسورة الواحدة ، بل العلاقة بين السور بعضها ببعض ، لاسيما إذا أدركنا أن الترتيب لها إنما هو أمر توقيفي (٢) كما ذكر ذلك الإمام الزركشي (٣) . كما أن ذلك يعد وجهاً من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم . قال الإمام السيوطي : "الوجه الرابع من وجوه إعجازه مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني منتظمة المباني" (٤) . ثم يعلق على أهمية هذا الوجه بقوله : "وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته وممن أكثر منه الإمام فخر الدين وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط " (٥) .

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٦٧ .

(٢) المراد بالتوقيفي : الوقوف على نص الشارع فلا يجوز الكلام في هذا الباب بطريق القياس أو الاشتقاق اللغوي . انظر : المجلد في شرح القواعد المثلى كاملة الكواري دار ابن حزم بيروت ط ١ ، ٢٠٠٢ م .

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن ٤٣/١ .

(٤) معترك الأقران في اعجاز القرآن : لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ٤٣/١ .

(٥) السابق الصفحة نفسها .

ولهذا الارتباط أوجه ظاهرة وأخرى خفية <sup>(١)</sup> . ولكن المتفق عليه أنه وجه من أوجه الإعجاز ، ولربما خفي في زمن وظهر في زمن آخر لأن دراسة النص تخضع لعلاقات داخلية وأخرى خارجية ، ولربما ظهرت علاقات جديدة بين الآيات تبدو وكأنها لا علاقة بينها ، فإن إدراك تلك العلاقات وتلك المناسبات " مرجعها - والله أعلم - إلى معنى ما رابط بينها : عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول، النظيرين والضدين ، ونحوه أو التلازم الخارجي كالترتيب على ترتيب الواقع في باب الخبر وفائدته، وجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء " <sup>(٢)</sup> وهذا البناء هو الذي تحاول البلاغة إدراكه حيث تتجاوز فيه النظرة الجزئية التي بدأت من الكلمة المفردة <sup>(٣)</sup> .

ولاشك أن هذا القرآن يمثل قمة البيان والإعجاز فلا بد أن تكون هناك علاقات تربط بين هذا الكلام المحكم . قال تعالى : ﴿الرَّكَتِبُ أُحْكِمَتْ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [سورة هود : ١] . قال الطاهر بن عاشور - رحمه الله - : " واتساق الحروف ، واتساق الآيات ، واتساق السور كله عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل " <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر : البرهان في إعجاز القرآن ٤٣/١ .

(٢) السابق ٤١/١ .

(٣) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ص ٩ .

(٤) التحرير والتنوير : الطاهر بن عاشور ، مؤسسة التاريخ ٧٨/١ .

ولأهمية هذا التناسب لم يكن القرطبي - رحمه الله - ليغفل هذا الجانب المهم في مجال التفسير ، والنظر في الآيات القرآنية ، وإن كان ربطه بين الآيات ربما لا يتميز بتلك النظرة العميقة إلا أن ما ذكره يدلنا على إدراكه لأهمية ذلك التناسب والتلاحم ، فعند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] . يقول رابطاً بين هذه الآية والتي قبلها : "لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم بطاعة رسوله ثانياً ، فيما أمر ونهى عنه ، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً" (١) .

وبنظرة أعمق للربط بين الآيات يتحدث القرطبي عن التناسب بين قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء ١٢٥] . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [سورة النساء : ١٢٦] . والمعنى إنه اتخذ إبراهيم خليلاً بحسن طاعته لا حاجة إلى مخالته ولا للتكثير والاعتصام ، وكيف وله ما في السموات وما في الأرض ، وإنما أكرمه لامثالته لأمره" (٢) .

وهذه العلاقة المتسقة قد تكون عن طريق مناسبة التضاد وذلك كمناسبة ذكر الرحمة بعد العذاب والرغبة بعد الرهبة ، وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعداً ، ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات التوحيد والتزوية ليعلم عظم الأمر والناهي (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٢٥٩/٥ .

(٢) تفسير القرطبي ٤٠٢/٥ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٤٤/١ .

والقرطبي لم يغفل هذا التناسب فهو عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٦]. يقول :  
 "لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم ، والكفر ضد الإيمان" (١) ،  
 كما أن أول السورة حديث عن القرآن ، وأن من شأنه كذا وكذا ، وأنه لا  
 يهدي القوم الذين صفاهم كصفات الكفار هؤلاء ، فتحدث بعد عن المؤمنين  
 ثم عقب بالحديث عن هؤلاء الكافرين فيبينها جامع وهمي بالتضاد على هذا  
 الوجه (٢) .

وقد تكون المناسبة ذات بعد دلالي كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْمَلُوا  
 اللَّهَ عَرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٤]. فإنه "لما أمر الله  
 تعالى بالإفراق وصحبة الأيتام والنساء بجميل المعاشرة قال : لا تمتنعوا عن  
 شيء من المكارم تعللا بأنا حلفنا ألا نفعل كذا" (٣) ومع أنها نزلت لمناسبة  
 معينة (٤) ، إلا أن هذه الآية برزت ذات صلة قوية بما قبلها وبما بعدها  
 ، فهي "جملة معطوفة على جملة "نساؤكم حرث لكم" عطف تشريع على  
 تشريع فالمناسبة بين الجملتين تعلق مضمونيهما بأحكام معاشرة الأزواج مع  
 كون الجملة الأولى منعاً من قربان الأزواج في حالة الحيض ، وكون مضمون  
 هذه الجملة تمهيداً لجملة "للذين يؤلون من نسائهم" فوقع هذا التمهيد موقع  
 الاعتراض بين جملة "نساؤكم حرث لكم" وجملة "للذين يؤلون من نسائهم"

(١) تفسير القرطبي ١/١٨٣ .

(٢) الرهان ١/٥٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٣/٩٧ .

(٤) انظر : السابق ٣/٩٧ .

وسلك فيه طريق العطف لأنه فهمى عطف على فهمى في قوله : "ولا تقربوهن حتى يطهرن" (١).

وعند قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢]. يربط القرطبي بين هذه الآية التي تبدو وكأن فيها نقلة بعيدة عن موضوع الإنفاق حيث يقول : "هذا الكلام متصل بذكر الصدقات فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين" (٢) . ففيها جزء من آفاق الإسلام "السامية الوضيئة التي يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها، ويروضهم عليها ، إن الإسلام يقرر مبدأ الحرية الدينية وحده ، ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب إنما يقرر ما هو أبعد من ذلك كله يقرر السماح للإنسانية المستمدة من توجيه الله - سبحانه - ، يقرر حق المحتاجين جميعاً في أن ينالوا العون والمساعدة ، ماداموا في غير حالة حرب مع المسلمين ، ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال ، مادام الإنفاق ابتغاء وجه الله ، وهي وثبة بالبشرية لا ينهض بها إلا الإسلام ولا يعرفها إلا أهل الإسلام" (٣).

كما يبدو من المناسبة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يثقل عليه تلك الأصناف من الناس فمنهم من ينفق أمواله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومنهم من يبطل صدقاته بالمن والأذى ، ومنهم الذين يتيممون

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٥٧.

(٢) تفسير القرطبي ٣/٣٣٧.

(٣) في ظلال القرآن ١/٣١٥.

الخبث منه فكان في هذا تسكين لقلب النبي صلى الله عليه وسلم بأن الأمر والهداية هي بيد الله عز وجل (١) .

ومن وجوه الربط كذلك الانتقال من موضوع لآخر تنشيطاً لذهن السامع ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٤٩) [سورة ص : ٤٩] . وقوله تعالى : ﴿ هَذَا وَابَتْ لِلطَّغِينِ لَشْرَّ مَآبٍ ﴾ [سورة ص : ٥٥] . يقول القرطبي : "بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به، "وإن للمتقين لحسن مآب" أي لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة... ولما ذكر ما للمنفيين ذكر ما للطاغين" (٢) . فاسم الإشارة في قوله : "هذا وإن للطاغين لشر مآب" يجوزوا" احتمال كونه مبتدأ محذوف الخبر ، واحتمال كونه خبراً محذوف المبتدأ ، وجوز بعضهم كونه فاعل فعل محذوف أي مضى هذا ، وكونه مفعولاً لفعل محذوف أي خذ هذا .. والجملة بعده "وإن للطاغين لشر مآب" عطف على ما قبله، ولزوم عطف الخبر على الإنشاء على بعض الاحتمالات جوابه سهل ، وأشار الخفاجي إلى الحالين هنا ولعل أمرها على بعض الأقوال المذكورة هيّن" (٣) .

ففي هذه الآراء ربط بين أجزاء هذا التركيب القرآني كما أن "اسم الإشارة هنا قام بربط اللاحق بالسابق رغم الانتقال ، وفي الوقت نفسه أذن

(١) انظر : التحرير والتنوير ٥٣٩/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٢١٩/١٥ - ٢٢٠ .

(٣) تفسير روح المعاني : للألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٢١٤/٢٣ .

بانتهاء الكلام السابق ، وأنه آخذ في كلام آخر لهذا تكرر اسم الإشارة بعد  
الكلام عن حسن المآب لكي يصرف الكلام إلى شر المآب"<sup>(١)</sup> .  
وهذا التناسب والربط الذي ذكره القرطبي يعد لفتة رائعة في ضوء  
الدراسات اللسانية المعاصرة .

\*\*\*\*\*

---

(١) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب : محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي ،  
ص ١٩٤ .

## المبحث الثاني بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي

ويشتمل على :

- أ - الجملة الخبرية في التركيب القرآني .
- ب- الجملة الإنشائية في التركيب القرآني .
- ج- جملة القصر في التركيب القرآني .
- د - الجملة المتعلقة بطرفي الإسناد (الحذف - التقديم والتأخير) .
- هـ- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (الالتفات) .



## أ- الجملة الخبرية في التركيب القرآني :

إننا لا نستطيع أن ندرك الأغراض اللغوية والدلالية إلا من خلال تركيب الكلمات تركيباً يجعل كل كلمة تتصل بالأخرى اتصالاً على وجه ما، لأن وراء هذه الصلات "تكنم المعاني والأفكار التي تحتويها النصوص اللغوية، وتحفظها في بنائها الحي تراناً خالداً وفكراً حياً" (١).

وهذه الصلة إما عن طريق الخبر أو عن طريق الإنشاء "لأنه لا محالة يشتمل على نسبة تامة بين الطرفين بنفس المتكلم وتفسيرها بوقوع النسبة أولاً وقوعها، أو بارتفاع النسبة أو انتزاعها خطأ في هذا المقام، لأنه لا يشمل النسبة الإنشائية" (٢).

وقد تحدث البلاغيون عن الخبر والإنشاء، وأن الأول هو: ما يحتمل الصدق والكذب لذاته، وأن الإنشاء: ما لا يحتمل الصدق ولا الكذب، وتحدثوا كذلك عن المراد بالصدق والكذب هل هو مطابقة الواقع أو غير ذلك (٣). إلا أن الأهم من ذلك هو إدراك الأسرار البلاغية من التركيب الخبري والإنشائي، وهو ما يتجاوز الدلالة المباشرة إلى أغراض تتسع لتشمل التركيب، واستعمال ألفاظ معينة كما يشمل الإسناد الخبري وأحوال المسند والمسند إليه، وغير ذلك من جميع أنواع الكلام التي يقول عنها عبد القاهر إنها: "معايير ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض وأعظمها شأنًا "الخبر"

(١) خصائص التراكيب ص ١١٣ .

(٢) المطول شرح تلخيص المفتاح ص ١٧١ .

(٣) انظر: الإيضاح ص ١٠ - ١١، والمطول ص ١٧١ وما بعدها .

فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون في الأعم المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة" (١).

ولذا نجد النكت البلاغية تتجاوز غرضي الخبر : الفائدة ولازم الفائدة إلى أغراض أخرى كما نجد أهمية الإسناد الخبري الذي قال عنه د/أبو موسى: "إنه أصل الفائدة ومناطها" (٢). كما أن أضرب الخبر التي حددها البلاغيون بالابتدائي والطلبي والإنكاري (٣) حسب حال المخاطب تتسع لتصل إلى مجيء التركيب على خلاف الظاهر لأن "البليغ من يأتي بالكلام على غير ما يقتضي الظاهر مشيراً إلى نكته بلاغية يتوصل إليها برهف الحس ودقة الملاحظة وعمق النظرة" (٤).

وإذا كان الخبر بهذه الأهمية ، وبهذا البعد البلاغي فإن الإمام القرطبي في تفسيره لم يكن يفسر الأخبار إلا بالنظر إلى أبعادها البلاغية فكان ينظر إلى أبعادها البلاغية بما استقر عليه علم المعاني ، فهو في استخدامه لتلك المصطلحات كان منضبطاً بما استقرت عليه في هذا الفن (٥). إلا أنه لم يكن ليطيل الحديث في الشرح حيث يكتفي بإشارات إلى التسمية لهذا الغرض أو ذاك فعند قوله تعالى : ﴿ وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٠]. يقول : "هذه من آيات الوعيد" (٦).

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢٨ .

(٢) خصائص التراكيب ص ١١٣ .

(٣) انظر : المطول ص ١٧٩ وما بعدها ، والإيضاح ص ١٤ وما بعدها .

(٤) بلاغة التراكيب ص ٢٢ .

(٥) انظر : الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ٣٧ ، ١٠٨ ، التحرير والتنوير ٤/٤٣ .

(٦) تفسير القرطبي ٥/٥٤ .

ولكن عند ذكر القراءات نجده يدخل إلى الدلالة لتلك القراءة في الآية السابقة يقول : "وقرأ ابن حيوة بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام وسيصلون" من التصلية لكثرة الفعل مرة بعد أخرى" (١).

وفاته أن يتحدث عن أهمية السين في هذه الآية الكريمة التي تفيد "في مقام الوعد تحقيق الوعد وكذلك الوعيد" (٢).

وأحياناً كان يحلل الخبر بصورة أعمق مما سبق فعند قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [سورة النساء : ٣٦]. يقول : "وفي هذا ضرب من التوعد ... وخص هاتين الصفتين بالذكر -ها هنا - لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وغيرهم ممن ذكر في الآية فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم" (٣).

كما أن تحليله يتجاوز الجملة ودلالاتها إلى عمق التركيب النحوي المؤثر في المعنى المراد ، فعند قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [سورة النساء : ٣٧]. يقول القرطبي : "الذين في موضع نصب على البدل من "من" في قوله "من كان" ولا يكون صفة لأن من وما لا يوصفان ولا يوصف بهما، ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من المضمرة الذي في فخور . ويجوز أن يكون في موضع رفع فيعطف عليه ، ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أي الذين يبخلون لهم كذا أو يكون الخبر "إن

(١) تفسير القرطبي ٥٤/٥

(٢) التحرير والتنوير ٤٣ / ٤ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩٢/٥ .

الله لا يظلم مثقال ذرة " ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني فيكون في المؤمنين ، فتجيء الآية على هذا التأويل أن الباخلين منفية عنهم محبة الله " (١) .

كما يدرك القرطبي بحسه النحوي دقة الصلة بين ألفاظ التركيب واختلاف دلالة الخبر تبعاً لتلك العلاقة فهو يقول في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] : "ومحضرًا" حال من الضمير المحذوف من صلة "ما" تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضرًا ، هذا على أن يكون "تجد" من وجد الضالة ، و"ما" من قوله تعالى : "وما عملت من سوء" عطف على "ما" الأولى وتود في موضع الحال من "ما" الثانية وإن جعلت "تجد" بمعنى تعلم كان محضرًا المفعول الثاني ... وتقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرًا" (٢) .

ويعتمد القرطبي على الدلالة النحوية حتى في دلالة الحروف كالحديث عن التعريف مما يؤثر في دلالة الجملة الخبرية ، قال تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الزَّيْوَ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٥] : "هذا عموم القرآن ، والألف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدم بيع مذکور يرجع إليه كما قال تعالى : ﴿وَالْعَصِيرُ إِنَّا الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر : ١ - ٢] . ثم استثنى "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" (٣) .

هذا العموم وهذا الحكم قد استغرق الجنس وشاع فيه (٤) .

(١) تفسير القرطبي ١٩٢/٥ .

(٢) تفسير القرطبي ٥٩/٤ .

(٣) السابق ٣٥٦/٣ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ص ١٩٦ .

ومن هذا يتبين "أن الإمام القرطبي - رحمه الله - يجعل الاستغراق نوعاً من أنواع الجنس الذي يمثل رأي المحققين" (١). ف"أل" هنا تفيد "عموم البيع" و"الربا" أي كل بيع وكل ربا.

واستغراق الجنس يشير إليه الإمام عبد القاهر بقوله: "الوجه الثاني: أن تقصر جنس المعنى الذي تفيد به بالخبر على المخبر عنه، لا على معنى المبالغة، وترك الاعتداد بوجوده في غير المخبر عنه، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشيء يخصصه، ويجعله في حكم نوع برأسه" (٢).

فإذا كان المعنى الأصلي الذي تفيد به اللام هو استغراق الجنس فإنه ينبغي تجاوز ذلك إلى الدلالة البلاغية (٣). وهو إفادة العموم هنا في الآية الكريمة ولا يخرجها إلا التخصيص بدليل.

كما يستعين القرطبي بالدلالات النحوية المقررة في إدراك المعنى المراد من الجملة الخبرية فعند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّهَتْ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [سورة النساء: ٢٣]. يقول: "وروى سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: "وأمهات نساءكم" قال: هي مبهمة لا تحل بالعقد على الابنة، وكذلك روى مالك في موطئه... ثم يعلق على ذلك بقوله: ويؤيد هذا القول من جهة الإعراب أن الخبرين إذا اختلفا

(١) الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ٥٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٠ .

(٣) بلاغة التعريف عند: عبد القاهر، والسكاكي، والقزويني وبعض المعاصرين:

د/إبراهيم التركي، مجلة جامعة الإمام ص ١٧٠ .

في العامل لم يكن نعتهما واحد، فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك  
وهربت من نساء زيد الظريفات ، على أن يكون الظريفات نعتًا لنسائك  
ونساء زيد ، فكذلك الآية لا يجوز أن يكون "اللاقي" من نعتهما جميعًا لأن  
الخبرين مختلفان" (١).

فهو يعتمد على القاعدة النحوية المقررة لإدراك المعنى المراد ، ولا شك  
أن ذلك ربط بالنظم ودلالته التركيبية للوصول إلى الغرض البلاغي من الخبر.  
وكذلك عند قوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾  
[سورة النساء : ٤٦].

قال : " قال الزجاج : إن جعلت من متعلقة بما قبل فلا يوقف على  
قوله نصيرا ، وإن جعلت منقطعة فيجوز الوقف على نصيرا والتقدير : من  
الذين هادوا قوم يحرفون الكلم ثم حذف ، وهذا مذهب سيويه" (٢) .  
ولاشك أن لهذا دورا كبيرا في توجيه المعنى السياقي للخبر.

ويؤكد اهتمامه بالجانب البلاغي ، وملاحظاته حول الجملة الخبرية  
تلك المصطلحات التي كان يدرك ماهيتها ، ويعطيها بعدًا بلاغيًا ودلاليًا  
، فغرض الدعاء ، والتهديد ، والتقديم للحصر ، والالتفات ، وغيرها (٣) أغراض  
وراء الجملة الخبرية كان يشير إليها ، وكان بعض هذه المصطلحات لا يمر دون  
تعليق منه كما في التقديم والتأخير ، والتكرار ، والقصر ، وغير ذلك .

(١) تفسير القرطبي ١٠٦/٥ - ١٠٧ .

(٢) السابق ٢٤٢/٥ - ٢٤٣ .

(٣) انظر : الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ٣٠ وما بعدها .

وعموماً يمكن القول إن القرطبي اهتم بدلالات الجملة الخبرية التي قد يقصد بها الوعيد والتهديد والتحذير أو غير ذلك، فعند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقِيلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَلْعُوا﴾ [سورة البقرة : ٢١٧]. يقول: "ابتداءً خبر من الله تعالى، وتحذير منه للمؤمنين من شر الكفرة" (١). فمع أن القرطبي بين الغرض البلاغي من هذا الخبر وهو التحذير إلا أنه لم يلفت النظر إلى صيغة المضارع في هذا الخبر التي وإن أشعرت "أن قتلهم موجود فالمراد به أسباب القتال وهو الأذى وإضرار القتال كذلك، وأنهم إن شرعوا فيه لا ينقطعون عنه على أن صريح "لا يزال" الدالة على أن هذا يدوم في المستقبل، و"حتى" للغاية، وهي - هنا - غاية تعليلية، والمعنى كما يذكر صاحب التحرير والتنوير أن فتنهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم، وهو أن يردوكم عن دينكم" (٢).

والقرطبي رحمه الله لم يكن يطيل في ذكر أسرار الجملة الخبرية بل يكتفي بأن يشير إلى الغرض البلاغي من ذلك الخبر، وهي تعد خطوة جديدة إذا عرفنا أن الرجل يؤثر الإيجاز في التعليق البلاغي ويطنب عندما يتصدى في تفسيره للمسائل الفقهية أكثر.

فعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٧]. يقول: "خبر ضمنه الوعد للمحسن، والحرمان لغير المحسن، أي لا يخفى عليه عفوكم واستقضاؤكم" (٣).

(١) تفسير القرطبي ٤٦/٣.

(٢) التحرير والتنوير ٣١٤/٢.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٨/٣، ولمزيد من الأمثلة ٢٤٧/٣، ٢٤٦، ٢٥١، ٣٣١، ١٨٣/٤.

٢٠٦، ٢٤١.

إلا أنه قد يحلل أحياناً الجملة الخبرية ، ويذكر شيئاً من أسرار التركيب فيها ومن ذلك عند قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢١٢]. يقول : "وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزين جملة بإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها" (١) .

وينظر القرطبي إلى الجملة الخبرية نظرة أعمق من خلال تحليل تركيبها والنظر في مفرداتها ودلالاتها مما يؤدي إلى الملمح البلاغي المراد كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١١]. حيث يقول : "خبر يتضمن الوعيد والعقاب مأخوذ من العقب كأن المعاقب يُمشي بالمجازاة له في آثار عقبه " (٢) .

وإذا تجاوزنا مضمون الخبر الذي نظر فيه القرطبي إلى أبعد من الدلالات القريبة نجده يتحدث عن الإسناد الخبري كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِمِحْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٦]. حيث يقول : "أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم ربح بيعك وخسرت صفقتك ، وقولهم "ليل قائم ونهار صائم" والشراء هنا مستعار والمعنى استحبووا الكفر على الإيمان ... فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يجبه مشتريه ، فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم" (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٢٨/٣ .

(٢) السابق ٢٨/٣ .

(٣) تفسير القرطبي ٢١٠/١ - ٢١١ .



"فالإمام القرطبي أراد أن يقول : إن إسناد الربح إلى التجارة هو إسناد مجازي لأن التجارة لا تخسر ولا تربح ، وإنما هم التجار ولكن لما كانت التجارة سببا في الربح والخسارة أسند إليها فالعلاقة هي السببية " (١) .

ومما يلفت النظر في هذه الآية هو اتساق كلمات تتبع لحقل دلالي واحد فالشراء ، الربح ، التجارة في مقابل كلمات أخرى من حقل آخر وهي الضلالة الهدى ، مهتدين ، وهذا فضلاً عما يعطيه من تناسب لفظي واضح يعطي بعداً ونقلًا لمعنى تلك الألفاظ إلى دائرة مجازية بسبب الربط بين تلك المفردات عن طريق "الكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر" (٢) .

يعلق الأستاذ الدكتور توفيق الفيل بقوله : "فالتجارة لم تتجاوز أصل وضعها ومعناها ، وكذلك الربح لكن التجوز جاء في إسناد الربح إلى التجارة" (٣) .

وإذا كان من الإسناد الخبري أن يسند الفعل إلى الجارحة التي هي آله كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٣] (٤) . فإن القرطبي ينظر إلى هذا المجاز نظرة أخرى حيث يقول : خص القلب بالذكر إذ الكتم من أفعاله ، وإذ هو المضغعة التي بصلاحتها يصلح الجسد كله كما قال عليه السلام ، فعبر بالبعض عن الجملة ... فقوله : "آثم قلبه" مجاز وهو أكد من الحقيقة في الدلالة على الوعيد ، وهو من بدیع البيان ، ولطيف

(١) الاتجاه البياني في تفسير القرطبي ص ١٤٤ .

(٢) علم الدلالة ص ٨٠ .

(٣) بلاغة التراكيب ص ٢٨ .

(٤) انظر : خصائص التراكيب ص ١٤٩ .

الإعراب عن المعاني" (١) . وهذا الاختصار لدى القرطبي نجد الزمخشري قد أطل فيه بالشرح والتحليل (٢) .

والخبر يراعى فيه حال المخاطب وهي ظاهرة أسلوبية شغلت البلاغة العربية وبخاصة في حالة التوكيد وعدمه . فإن "كان المخاطب منكراً للحكم حاكماً بخلافه وجب توكيده ، أي الحكم بحسب الإنكار قوة وضعفاً فكلما ازداد في الإنكار زيد في التوكيد" (٣) . ومع ذلك قد يكون الأمر على خلاف ذلك لسياقات أخرى وقرائن دلالية أو سياقية .

ونلاحظ شيئاً من تلك الدلالات عند تعليقه على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١] . يقول : " وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح" (٤) . كأن القرطبي يوميء إلى فساد قلوبهم وانقلاب فطرهم حتى رأوا الفساد صلاحاً .

فكأن صفة الإصلاح خلصت وتمحضت لهم دون أي قاذح فيها من وجوه الإفساد (٥) ، فجاء التعقيب مؤكداً بأكثر من مؤكد لنفي هذا الكلام ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٢] (٦) .

(١) تفسير القرطبي ٤١٥/٣ .

(٢) انظر الكشاف ٤٠٦/١ .

(٣) المطول ص ١٨٥ .

(٤) تفسير القرطبي ٢٠٤/١ .

(٥) انظر : الكشاف ١٨٠/١ .

(٦) نجد أداة الاستفتاح (ألا) و (إن) و (ضمير الفصل) و (اسمية الجملة) كل ذلك لشدة

الإنكار عليهم . انظر حول هذا نظرات لغوية في القرآن الكريم . أستاذ الدكتور صالح

العايد ، دار أشبيليا ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ص ٦١ .

ونجد القرطبي رحمه الله لم يلفت النظر إلى بعض الآيات ذات الأهمية في هذا الجانب فعند آيات " يس " لم نجده يذكر شيئاً عن أهمية التوكيد في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [سورة يس : ١٦]. حيث ازداد التوكيد لمبالغة المخاطبين في الإنكار <sup>(١)</sup> .

والزيادة في الخبر لها دلالة بلاغية وهي تدخل في باب الإطناب وربما ذكرت في سياقات الخبر والقرطبي لم يغفل عنها من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بَغْيَ الْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة : ٦١] : "بغير الحق" تعظيم للشنيعة والذنب الذي أتوه . فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به قيل له : ليس كذلك وإنما خروج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم ، وليس بحق فكان تعظيماً للشنيعة عليهم <sup>(٢)</sup> . " ولا يكون قتلهم إلا كذلك ؛ لأن معناه بغير الحق في اعتقادهم لأن التصريح بصفة فعلهم أبلغ في ذمهم " <sup>(٣)</sup> .

وقد يكون إعجاز الجملة الخبرية متضمناً لإعجازين لغوي ، وغيبى ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢٤]. فقوله تعالى : "ولن تفعلوا" إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها <sup>(٤)</sup> . والآية من أكبر معجزات القرآن ؛ لأنها معجزة من جهتين الأولى أنها أثبتت أنهم لن

(١) انظر : المطول ص ١٨٥ .

(٢) تفسير القرطبي ٤٣٢/١ .

(٣) البرهان ٢٦٥/٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٢٣٤/١ .

يعارضوا لأن ذلك أبعث لهم على المعارضة لو كانوا قادرين والثانية أنه أخبر بأنهم لا يأتون بذلك في المستقبل فما أتى أحد منهم ولا ممن خلفهم بما يعارض القرآن فكانت هاتيه الآية معجزة من نوع الإخبار عن الغيب مستمرة على تعاقب السنين<sup>(١)</sup>.

فالنفي ب "لن" هنا ليس إلى غاية معينة، بل هو أبد الدهر ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [سورة الحج : ٧٣]<sup>(٢)</sup>.

وعند قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجُمُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٨]. يقول القرطبي: "وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما تقول: فلان أصم عن الخنا"<sup>(٣)</sup>. ثم بين شيئاً من دلالات كلمة "صم": "وقال قتادة: "صم" عن استماع الحق و"بكم" عن التكلم به و"عمي" عن الإبصار"<sup>(٤)</sup>. وفي الإعراب يشير إلى أنها أخبار لمبتدأ محذوف<sup>(٥)</sup>.

وهذا يجعل كل واحد منهم متصفاً بهذه الصفات الثلاث، وهو شأن الأخبار الواردة بصيغة الجمع بعد مبتدأ هو اسم دال على الجميع، فالمعنى كل واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى، وليس المعنى على التوزيع<sup>(٦)</sup>.

(١) التحرير والتنوير ٣٣٧/١.

(٢) انظر: شرح التصريح على التوضيح: خالد الأزهرى، دار الفكر، ٢٢٩/٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٤/١.

(٤) السابق ٢١٤/١.

(٥) انظر: السابق ٢١٤/١.

(٦) انظر: التحرير والتنوير ٣٠٩/١.

ويلفت القرطبي النظر إلى دقة التعبير والتركيب في الجملة الخبرية في القرآن ، حيث إن لكل كلمة مع صاحبها علاقة ذات مغزى ومعنى فعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان : ٣] . فما وجه الجمع بين صيغتي المبالغة "شاكراً" و"كفوراً" لم يكن شكوراً ؟ .

يجيب القرطبي عن ذلك : "وجمع بين "الشاكِر" و"الكفور" ، ولم يجمع بين "الشكور" و"الكفور" مع اجتماعهما في معنى المبالغة نفيًا للمبالغة في الشكر وإثباتًا لها في الكفر ، لأن شكر الله تعالى لا يؤدي ، فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة فقلّ شكره لكثرة النعم ، وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه " (١) . فنعم الله كثيرة وكل شكر يأتي في مقابلها قليل ، وكل كفر يأتي في مقابلها عظيم (٢) .

ومما يؤثر في بناء الجملة الخبرية الاستثناء الذي يأتي لأسرار بلاغية دقيقة من ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [سورة النبأ : ٢٤ - ٢٥] . حيث يقول : "استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم ومن جعله من البرودة كان بدلًا منه" (٣) . وترك المتلقي أن يفهم سر بلاغة الاستثناء المنقطع والبدلية في قوله : "حميمًا وغساقًا" ، و"الحميم" : الماء الشديد الحرارة ليس بردًا ، والغساق : ما يقطر من جلود أهل النار فهو ليس شراب ري من ظمًا وإنما شراب من جهنم ، يأتيهم جزاء وفاقًا ، فلم تكتف الآية بجرماهم من ذوق البرد ، والشراب ولكنه يزيد

(١) تفسير القرطبي ١٩/١٢٢ .

(٢) انظر : البرهان ٢/٣١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩/١٨٠ .

العذاب عن طريق الاستثناء فكان المستثنى أدهى من هذا الحرمان إنهم سيدوقوهم حميماً ، وهذا لهم هو البرد وسيدوقون غساقاً ، وهذا هو شراهم" (١) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نُونًا ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٦] . يحدد القرطبي المعنى الأصلي "لنفحة" وهو مجموعه يكون في الخير ومنه "نفح المسك" و"نفح فلان لفلان من عطائه" أعطاه نصيباً من المال (٢) .

و"نفح الطيب" كمنع فاح نفحاً ونفاحاً ، والريح هبت ، والنفحة من الريح الدفعة ، ومن العذاب القطعة ، ومن الألبان المحضة ، والنفوح كصبور من النوق ما تخرج لبنها من غير حلب (٣) ، ولكن نلاحظ في الآية تحوُّلاً أسلوبياً في كلمة : (نفحة) من معناها الأصلي إلى معنى آخر مضاد له ، وهذا يُعدّ ظاهرة أسلوبية جديدة بالاهتمام (٤) .

ويؤخذ على القرطبي عدم إشارته إلى الغرض البلاغي في الآية ، وإلى هذا التحول المعنوي الذي طرأ على كلمة : (نفحة) من نقل معناها من الخير إلى معنى الشر كما في سياق الآية حيث نرى "استعارة هذا اللفظ (نفحة) إلى الشر على جهة التهكم ... ونلاحظ هنا أن لفظ العذاب ينفي عن النفحة

(١) المفارقة القرآنية - دراسة في بنية الدلالة : د/محمد العبد ، دار الفكر ص ١٣٣ .

(٢) انظر : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١ م ، ص ١١ .

(٣) انظر : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة مادة "نفح" .

(٤) انظر : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة مادة "نفح" .

معناها المباشر وطبيعتها المعروفة ، ليصير الغرض المقصود من السياق هو المفارقة ، وهو نقيض ذلك المعنى المعجمي المباشر تمامًا ... وفي تنكير التقليل في نفخة ملحظ أسلوبى لطيف ، فإذا كانت النفخة الواحدة من العذاب تذكرهم بالويل المنتظر وبالظلم الذي اكتسبوه ، فما بالهم بما وراءها من نفحات العذاب" (١) . نسأل الله العافية .

وتأتي الجملة الخيرية أحياناً زيادة في التأكيد ، حيث الإتيان بمعنى زائد لإبهام قبله ، ويكون في ذكر تلك الجملة أغراض بلاغية دقيقة ، وإن كان القارئ للقرآن ربما يتوهم أنها واضحة لا تحتاج إلى أن ينص عليها بجملة أخرى ، وهى ما تعرف "بالبدهيات" في القرآن (٢) . ومن ذلك ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٢٠] . حيث يقول : "ذكرت هذه تأكيداً لأن قولها : (لم يمسنى بشر) قبلها يشمل الحلال والحرام" (٣) (٤) .

(١) المفارقة القرآنية ص ٨٠ - ٨٢ بتصرف يسير .

(٢) انظر : البدهيات في القرآن الكريم ، دراسة نظرية : د / فهد الرومي ص ١٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٩١/١١ .

(٤) وإذا كان القرطبي يحدد هنا المعنى بهذا الوجه فإن الإمام الفخر الرازي قد وسع دائرة الاحتمالات لذلك حيث يقول : "والجواب من وجوه : أحدها : أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله : "من قبل أن تمسوهن والزنا ليس كذلك إنما يقال فجر بما ... وثانيها : أن إعادتها لتعظيم حالها كقوله : "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فكذلك هاهنا إن لم تعرف من النساء بزواج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه" التفسير الكبير ١٩٩/٢١ .

وعند قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يُجِدْ فَمِصَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٦]. ينقل القرطبي أقوال العلماء في السر البلاغي بذكر "تلك عشرة كاملة" ومنها كونها دفعاً لتوهم كون الثلاثة وحدها ، والسبعة وحدها. أو لأن لفظها الإخبار ويراد به الأمر . أو لكونها كاملة في الثواب <sup>(١)</sup> ثم يردف بقوله (كاملة) تأكيد آخر فيه زيادة توصية بصيامها ، وألا ينقص من عددها كما تقول لمن تأمره بأمر ذي بال : الله الله لا تقصر" <sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر الزمخشري أن الواو قد تجيء للإباحة نحو قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ... ففذلكت نفيًا لتوهم الإباحة" <sup>(٣)</sup> . وقد تعقبه أبو حيان بأن الواو هنا لا تفيد الإباحة لأن السياق سياق إيجاب" <sup>(٤)</sup> . كما رد أبو حيان على من قال إن المراد طريقة العرب في عد الأعداد وقال إن ذلك ناتج عن جهل العرب في العد ولا يحمل عليه كلام الله عز وجل <sup>(٥)</sup> . وما يهمنا هنا في سياق تركيب الآية هو ما ذكره أبو حيان من أن (الخبر) هنا فيه إفادة للأمر لأن التكليف بالشيء إذا كان متأكدًا خلافًا لظاهر دخول المكلف به في الوجوب فعبر عنه بالخبر الذي وقع واستقر <sup>(٦)</sup> . وفي ذلك تكمن بلاغة القرآن التي تراعى فيها أحوال المخاطبين (المؤمنين) في ذلك

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤٠٢/١ .

(٢) السابق ٤٠٣/١ .

(٣) الكشف ٣٤٥/١ .

(٤) الاتجاه البياني ص ٢٠٣ .

(٥) انظر : البحر المحيط ٧٩/٢ - ٨٠ .

(٦) انظر : السابق ٨٠/٢ .



الجو الإيماني - أعني الحج - ففيه مظهر اللطف والرحمة ، ذلك لأن مراد الله تعالى إيجاب صوم عشرة أيام ، وإنما فرقها رخصة منه ورحمة " .

ومما لاحظته القرطبي في أسرار الجملة الخبرية ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [سورة مريم : ٤] : " وإنما ذكر " العظم " لأنه عمود البدن وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما ورائه أوهن منه ... - وفيه أيضاً - إظهار للخضوع" (١) .

وما أضافه القرطبي هو أنه جعل هذا الخبر يفيد إظهار الخضوع لله زيادة على ما فيه من إظهار الضعف وسوء الحال ، ويبدو أن الفهم لحال الأنبياء عليهم السلام الذين يعد إظهار الخضوع في حقهم مقدم على ما يبدو من ضعف الحال لأن الله عزَّ وجل ذكر عن زكريا بعد ذلك قوله : " ولم أكن بدعائك رب شقياً " .

هذا بعض من نظرات القرطبي إلى دلالة الجملة الخبرية وقد أدرك - رحمه الله - بعضاً من أسرارها ، ولم يكن ليغفل الإشارة إليها لذا تعد ملاحظته خطوة في فهم الآي وتلمس ملامح الإعجاز فيه .

\*\*\*\*\*

(١) تفسير القرطبي ٧٦/١١ - ٧٨ .

والمعنى الأول ذكره الزمخشري في الكشاف قال : " وإنما ذكر العظم لأنه عمود انبدن ، وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقط قوته " . الكشاف ٥٠٢/٢ .

## ب- الجملة الإنشائية في التركيب القرآني :

الإنشاء قسيم الخبر ، وهو ما لا يحتمل الصدق ولا الكذب ، ويعرفه سعد الدين: بأنه "الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه"<sup>(١)</sup>.  
ويقسمه البلاغيون إلى : إنشاء طلي ، وإنشاء غير طلي ، والطلي هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب<sup>(٢)</sup> . أما غير الطلي فهو ما لا يستدعي ذلك ، ولعل الاهتمام البلاغي كان منصباً على الإنشاء الطلي لأنه كما يقول صاحب المطول : "يختص بأبحاث لم تذكر في بحث الخبر ولأن كثيراً من الإنشاءات غير الطلية في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء"<sup>(٣)</sup>.  
والإنشاء الطلي يشمل الحديث عن الأمر ، والنهي ، والاستفهام والتمني والنداء ، والأهم هو أن هذه الأبواب يتوصل بها إلى ملاحظات بلاغية دقيقة ، وقد تحدث الإمام عبد القاهر مثلاً عن الاستفهام بالهمزة ، ودقة ذلك ، وربطه بالتركيب حيث يختلف المستفهم عنه تبعاً لما يأتي بعدها، فإن جاء بعدها الفعل وقلت: أفعلت ؟ كان الشك في الفعل ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإن قلت :أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو<sup>(٤)</sup> . إلى غير ذلك من دقائق الاستفهام فقد يراد به الإنكار أو التشويق أو الاستبطاء أو التعجب أو غير ذلك<sup>(٥)</sup> .

(١) المطول ص ٤٠٦ .

(٢) انظر : الإيضاح ص ٧٨ .

(٣) المطول ص ٤٠٦ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ص ١١١ وما بعدها .

(٥) لمزيد من الإطلاع انظر : معترك الأقران ١/٣٣٥ وما بعدها ، وبلاغة التراكيب

ص ٢٠٣ وما بعدها .

والإمام القرطبي كان يهتم بالمعاني البلاغية الكامنة وراء التركيب الإنشائي القرآني، ولاسيما وقوفه عند أسلوب الأمر والاستفهام ولذلك يجدر بنا النظر إلى ما وقف عنده القرطبي من ذلك .

## ١- الأمر :

هو طلب حصول شيء على طريق الاستعلاء<sup>(١)</sup> . وله صيغ أربع هي فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، وصيغة المصدر النائب عن فعله، واسم الفعل<sup>(٢)</sup> .

وصيغة الأمر كانت كما يقول د/ أبو موسى: "موضع عناية الأصوليين والفقهاء وذلك لاهتمامهم ببيان ما يراد في أمور الدين من ناحية الوجوب والندب والإباحة، وكان المنهج الفقهي غالباً على كثير من المفكرين المسلمين في شتى ميادين الثقافة الإسلامية، لذلك كانت مباحث الأمر في بعض الدراسات اللغوية والأدبية تقف عند الحد الفقهي فلا تتجاوز الوجوب والندب والإباحة"<sup>(٣)</sup> . إلا أن المفسرين قد تجاوزوا ذلك إلى إدراك الأسرار البلاغية كما عند الزمخشري<sup>(٤)</sup> .

وقد استطاع الإمام القرطبي - رحمه الله - أن ينظر إلى صيغة الأمر في القرآن الكريم ويحدد مدلولها وفق السياق مبرزاً أهم معانيها التي تدل عليها<sup>(٥)</sup>

(١) انظر : المطول ص ٤٢٤ ، وبلاغة التراكيب ص ٢٠٩ .

(٢) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٠٩ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٤ ، وانظر : الاتجاه البياني ص ٨٨ .

(٤) انظر : السابق الصفحة نفسها .

(٥) انظر : الاتجاه البياني ص ٨٨ .

ولم يتوقف عند المعنى الأصلي والمعنى الفقهي ، بل تجاوز ذلك إلى إدراك الأسرار البلاغية ، ومن ذلك :

عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٩] .  
يقول القرطبي : "إن قيل : كيف لم يموتوا ، والله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون . قيل عنه جوابان :

أحدهما : هو دعاء عليهم ، أي : قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف اللعنة .

الثاني : أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك ، فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقرير والإغاظة" (١)  
ويبدو أن الإمام القرطبي يميل إلى الجواب الثاني بدليل قوله : "وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع)"

فالقارطبي هنا ينقل الغرض البلاغي للأمر فهو دائر بين الدعاء والتقرير والإغاظة . ويجمع العلامة ابن عاشور بين هذين المعنيين بقوله : "والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحة طلب موتهم بسبب غيظهم ، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت ، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم وهو حسن حال المسلمين وانتظام أمرهم وازدياد خيرهم ، وفي

(١) تفسير القرطبي ١٨٢/٤ - ١٨٣ .

هذا الدعاء عليهم بلزوم ألم الغيظ لهم وبتعجيل موتهم به ، وكل من المعنيين  
المكنى بهما مراد هنا" (١) .

وربما كان في صيغة الأمر إهانة ، وتحقير وتوبيخ كما في قوله تعالى :  
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [سورة الدخان : ٤٩] : "وقيل : هو  
على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص ، أي قال له :  
إنك أنت الذليل المهان وهو كما قال قوم شعيب لشعيب "إنك لأنت الحليم  
الرشيد" يعنون السفية الجاهل في أحد التأويلات" (٢) .

فالقرطبي يأتي بتلك المعاني ، وكأنه يريد أن يقول إن هذا الأمر "ذُق"  
قد تعددت أوجه البلاغة فيه ففي هذا الفعل "ذُق" ايجاءات كثيرة فهو غالباً  
"لا يقوله إلا من هو واثق من لذة الطعم ، وهذا يعني أن القائلين له كانوا  
واثقين من لذة طعم ما يقدمونه إليه وهذه سخرية بالغة من هذا الزعيم" (٣) .  
قال الإمام الرازي : "أي يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء والمراد  
أنك أنت بالضد منه" (٤) .

ويلفت النظر عدم توقف القرطبي عند دلالة الأمر بل راح يحلل  
التركيب ويستحضر المراد منه فهذا التركيب يراد منه المعنى المضاد لهذه  
الكلمات (فالعزيز الكريم) هو الذليل المهان ، كل ذلك يتجاوز لمعنى العزيز

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥١/١٦ .

(٣) انظر : المفارقة القرآنية ص ٦٥ .

(٤) التفسير الكبير ٢٥٢/٢٧ .

الكريم إلى المعنى المضاد حيث "أصبح الاستهزاء والتهكم على صورة أشد وصار المتهكم به من الصفة واللؤم بحيث بلغ فيهما الكمال" (١).

ومن التهديد كذلك قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت : ٤٠] : "فهو أمر تهديد أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء" (٢).

وفي آية التوبة عند قوله تعالى : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] . لا يرى القرطبي في صيغة الأمر التهديد فقط ، بل تخويفاً ، وتهديداً ، ودعوة إلى الخير ؛ لأن أعمال الجميع لا تخفى على الله ، ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير ... وفيه أيضاً - كما يقول الشوكاني - "ترغيب وتنشيط فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر" (٣).

ولعل القرطبي - رحمه الله - نظر إلى سياق الآيات، ففي سورة التوبة جاء الأمر بعد ذكر أصناف من الناس ليس كلهم يستحق التهديد ، أما في آية فصلت فجاء الأمر بعد ذكر الذين يلحدون في آيات الله .

ومما تحدث عنه القرطبي في معاني الأمر ما ذكره عند قوله تعالى :

﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة : ٨٠]. حيث قال : "واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى : "استغفر

(١) المفارقة القرآنية ص ٧٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٦٦/١٥ .

(٣) فتح القدير : للإمام الشوكاني ، دار الخير ٤٥٥/٢ .

لهم" هل هو إيثاس أو تخيير؟ فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: "فلن يغفر الله لهم"...وقالت طائفة: هو تخيير. منهم الحسن وقتادة<sup>(١)</sup>. ولم يرجح القرطبي بين هذين الرأيين، والذي يتناسب وحال أولئك القوم هو أنه ليس تخييراً، بل "إخبار باستواء الأمر بين الاستغفار لهم وتركه في استحالة المغفرة، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة"<sup>(٢)</sup>، كما أن دلالة التركيب ترجح معنى "الإيثاس". ويؤكد ذلك ابن عاشور: "والذي يظهر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوحى إليه بآية سورة المنافقين وفيها أن استغفاره وعدمه سواء في حقهم تأول ذلك على الاستغفار غير المؤكد، وبعثته رحمته بالناس وحرصه على هدايتهم وتكدره من اعتراضهم عن الإيمان أن يستغفر للمنافقين استغفاراً مكرراً مؤكداً، عسى الله أن يغفر لهم، ويزول عنهم غضبه تعالى فيهديهم إلى الإيمان الحق، بما أن مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجر إلى تعلق هديه بقلوبهم بأقل سبب، فيكون نزول هذه الآية تأييساً من رضى الله عنهم... وصيغة الأمر في قوله "استغفر" مستعمل في معنى التسوية المراد منها لازمها وهو عدم الحظر من الأمر المباح...

فأما قوله: "أو لا تستغفر لهم" فموقعه غريب، ولم يعن المفسرون والمعربون ببيانه فإن كونه بعد لا مجزوماً يجعله في صورة النهي، ومعنى النهي لا يستقيم في هذا المقام، إذ لا يستعمل النص في معنى التخيير والإباحة"<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير القرطبي ٢١٩/٨ - ٢٢٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٥٨٢/٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٠/١٦٤.

ولا يتوقف القرطبي عند المعنى البلاغي القريب من صيغة الأمر بل ربما أضاف إليها ملامح أخرى فعند قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٠] . يقول : "قل تمتعوا وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع" <sup>(١)</sup> ؛ لأن الممتع به في هذه الحياة الدنيا قليل إذا قيس بالآجل الذي قدره الله .

## ٢- الاستفهام :

الاستفهام هو "طلب حصول صورة لشيء في الذهن ، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق ، وإلا فهو التصور" <sup>(٢)</sup> .

وأدواته : الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأني ، ومتى ، وأيان <sup>(٣)</sup> . والاستفهام بهذه الأدوات ومعانيها هو بحث يخص وظيفة النحو ، ولا يتصل بالاستخدام البلاغي إلا ما يتصل بالصحة بوصفها مقدمة ضرورية لتحقيق البلاغة .

لكن الاستفهام يخرج عن وظيفته اللغوية لغايات بلاغية يحددها السياق ويكشف عنها <sup>(٤)</sup> .

(١) تفسير القرطبي ٣٦٥/٩ ، ولزريد من الأمثلة انظر : ٩٦/٢ ، ١٩٦ ، ٦٤/١٢ ، ٢٧٣/١٠ .

(٢) المطول ص ٤٠٩ ، وانظر : الإيضاح ص ٧٨ .

(٣) انظر : الإيضاح ص ٧٨ .

(٤) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٠٣ .



وهذه الأغراض والغايات هي الأهم في الدرس البلاغي ، كما أنها هي المرادة من دراسة الاستفهام في القرآن الكريم لأن "الاستفهام بمعناه الأصلي لا يقع في كلام رب العزة لأن إحاطة علمه شاملة ، وقد يقع الاستفهام الحقيقي في القرآن حين يحكي مواقف أو يفصل مقالات ، والمهم أن أكثر أساليب الاستفهام في الكتاب العزيز جاءت لغير المعنى الحقيقي للاستفهام" (١) .

وقد اهتم المفسرون بمعاني الاستفهام في القرآن ، فالزخشري مثلاً يكثر حديثه عن تلك المعاني التي تفهم من صورة الاستفهام (٢) . كما أن الإمام القرطبي قد اهتم ببيان ذلك وإن كان بعبارة مختصرة تدل على المقصود (٣) .

ومن ذلك حديثه عن الاستفهام المراد به الإنكار ولعله الأوضح في تفسيره فعند قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ [سورة هود : ٢٨] . يقول : "وهو استفهام بمعنى الإنكار أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة ، وإنما قصد نوح -عليه السلام- بهذا القول أن يرد عليهم" (٤) . فالإنكار متوجه إلى وقوع الفعل لوقوعه بعد الهمزة (٥) . فالإنكار هنا لأصل الإلزام (٦) .

ويتحدث عن سر استعمال كيف في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨] . فيذكر أن فيها معنى

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزخشري ص ٢٩٤ - ٢٩٥ بتصرف .

(٢) انظر : السابق ص ٢٩٥ .

(٣) انظر : الاتجاه البياني ص ٩٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٢٥/٩ .

(٥) انظر : دلائل الإعجاز ص ١١٦ .

(٦) البرهان ٢٠٥/٢ .

الاستفهام الذي معناه التعجب ،أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا ،وفيه تثبيت الحجة عليهم...وقيل : "كيف" لفظ استفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، ويخالف القرطبي رأي الزمخشري في الغرض البلاغي للاستفهام في الآية <sup>(١)</sup> ، فهو يرى فيه معنى الإنكار والتعجب "ونظيره قولك أتطير بغير جناح . وكيف تطير بغير جناح فإن قلت قولك : أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مستحيل بغير جناح ، وأما الكفر فغير مستحيل مع ذكر الإمامة والإحياء . قلت : قد أخرج في صورة المستحيل لما قوي من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان" <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الاستفهام الإنكاري قد يجيء لتعريف المخاطب أن ذلك المدعي ممتنع عليه وليس من قدرته كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى ﴾ [سورة الزخرف: ٤٠] . فإن القرطبي قد لمس ما هو أبعد من ذلك ، حيث يقول عند الآية السابقة: "أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك أن كفروا ، ففيه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- " <sup>(٣)</sup> . فهو -رحمه الله- يتجاوز الدلالة البلاغية للاستفهام إلى معنى أوسع في تسلية النبي -صلى الله عليه وسلم- ، وجعل وظيفته هي أن يسمع من يسمع أمّا هؤلاء فهم مع كوفهم ليسوا صمًا ولا عميًا على الحقيقة فإنهم كالصم والعمي في الضلال ، وقد عطلوا جوارحهم وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم ، فما للرسول إلى

(١) انظر : تفسير القرطبي ١/٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) الكشاف ١/٢٦٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٦/٩٢ .

هداهم من سبيل ، ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذي يطيق ، والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدد (١) .

ويؤكد هذا القول ما رآه عبدالقاهر في هذه الآية بقوله : " ليس ! سماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك للإنكار ، وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه ، وأن يتزل الذي يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ويهدي العمي " (٢) .

هذا جزء من حديث القرطبي عن الاستفهام الإنكاري (٣) . وإذا نظرنا إلى معنى آخر وهو "التقرير" وجدنا القرطبي قد أشار إلى كثير من هذا المعنى عند كثير من الآيات .

والاستفهام التقريري : هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده (٤) . ويتداخل التقرير والإنكار ، لأن حقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكار - كما يقول الزركشي - والإنكار نفي وقد دخل على المنفي ونفي النفي إثبات (٥) . والقرطبي يلفت النظر إلى مثل ذلك في قوله تعالى : "ألمست بربكم" قال : "أي قال فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم ،

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ٣١٩٠/٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٠ .

(٣) لمزيد من الأمثلة انظر : ١٢٩/٤ ، ٩٨/١٠ ، ٢٩٨/١١ ، ص ٢٨٧ ، ١٤٠/١٢ ،

٢٦٤/١٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٣ ، ٧٠/١٦ ، وقد اكتفيت بما ذكرت على سبيل الانتقاء

والاصطفاء .

(٤) انظر : المطول ص ٤٢٢ ، والبرهان ٢٠٦/٢ .

(٥) انظر : البرهان ٢٠٧/٢ .

والإقرار منهم" (١) ، فوجود النفي والاستفهام هنا يزيد في تأكيد التقرير ولا تنافر بينهما ، إذ إن خروج الهمزة عن الاستفهام إلى التقرير كثير ، ألا ترى أن التقرير ضرب من الخير ، وذلك ضد الاستفهام ... فهمزة التقرير ما صارت تنقل النفي إلى الإثبات والإثبات إلى النفي كقوله : أستم خير من ركب المطايا ... أي أنتم كذاكم وكقول الله عز وجل "الله أذن لكم" ، "أنت قلت للناس" أي لم يأذن لكم ، ولم تقل للناس (٢) .

ومن هنا وجدنا مصطلح الإنكار يختلط بمصطلح التقرير في حديث القرطبي ولا غرو في ذلك إذ اتضح ذلك فيما سبق، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [سورة الشرح : ١] : "ألم نشرح : قد شرحنا، الدليل على ذلك قوله في النسق عليه "ووضعنا عنك وزرك" فهذا عطف على التأويل لا على التزويل ، لأنه لو كان على التزويل لقال : ونضع عنك وزرك فدل هذا على أن معنى ألم نشرح قد شرحنا ولم جحد ، وفي الاستفهام طرف من الجحد ، وإذا وقع جحد رجع إلى التحقيق كقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ ﴾ [سورة التين : ٨] . وكذا "أليس الله بكاف عبده" ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العاملين بطون راح  
المعنى : أنتم كذا " (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٣١٤/٧ .

(٢) الخصائص : لابن جني ، تحقيق د/ عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ بتصرف .

(٣) تفسير القرطبي ١٠٥/٢٠ .

فالقرطبي هنا يذكر أن معنى الاستفهام "مفيد للتحقيق والإثبات الذي هو قسم من أقسام التقرير" (١). واستفهام التقرير ضرب من الخبر، ولذا نجد القرطبي يفسره بجملة خبرية ويشير إلى أن فيه معنى الجحد "أي الإنكار" ولا تعارض بينهما كما سبق .

وعند قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٢]. يقول القرطبي : "وهذا استفهام لتقرير الحجة فإذا لم ينفعوك ولم يضرركم فما معنى عبادتكم لها" (٢) .

فهو يثبت أن هل تفيد التقرير . وقد نقل الزركشي أن هناك من ينكر وقوعها للتقرير ، وينقل عن الكندي ذهاب كثير من العلماء لوقوعها للتقرير والتوبيخ" (٣) . وهذا النوع من الاستفهام "لا يحتاج إلى جواب لأن المقصد منه التحقيق والتثبيت فقط، دون انتزاع جواب وهذا هو أصل التقرير" (٤) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَبُ بْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أُتَيْدُونِي وَأُنْحَى إِلَهُيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦]. يقول القرطبي : "واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال ، وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين :

أحدهما : أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتفريع .

(١) الاتجاه البياني ص ٩٢ .

(٢) تيسير القرطبي ١٣/١٠٩ .

(٣) انظر : البرهان ٢/٢٠٦ .

(٤) الاتجاه البياني ص ٩٣ .

الثاني : قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده ، وادعوا عليه ما لم يقله" (١) .

فالقراطي هنا يخرج السؤال مخرج التقرير أي : " ولم تقل للناس : اتخذوني وأمي إلهين ولو كان استفهاماً محضاً لأقرت الهمزة الإثبات على إثباته والنفي على نفيه" كما يقول ابن جني (٢) .

### ٣- النداء :

وهو : " طلب الإقبال بحرف نائب مناب " أدعو" لفظاً أو تقديرًا " (٣) .  
وإذا كانت أحرف النداء تنقسم إلى ما ينادى بها القريب ، أو ما ينادى بها البعيد، فإن ما يهم الدرس البلاغي هو الغرض من وراء ذلك النداء ، وكذلك ما يخرج إليه النداء من تنزيل البعيد مترلة القريب أو العكس ، لأغراض بلاغية ودلالية ، ومراعاة لحال المنادى من علو شأن وعظمة ، أو من غفلة وسهو وبعد ذهن (٤) .

وقد تحدث القراطي عن النداء وبين سره البلاغي في مثل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُرْ آيَاتِنَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة المزمل : ١ - ٢] : "فليس المزمل باسم من أسماء النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يعرف به ... وإنما المزمل اسم

(١) تفسير القراطي ٣٧٥/٦ .

(٢) الخصائص ٢٣٤/٤ .

(٣) المطول ص ٤٣٠ .

(٤) انظر : السابق ص ٤٣٠ .

مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثر وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان :

إحداهما : الملاطفة ، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي \_صلى الله عليه وسلم\_ لعلي حين غاضب فاطمة \_رضي الله عنها\_ ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : "قم يا أبا تراب" إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفة له . وكذلك قوله \_عليه السلام\_ لحذيفة : "قم يا نومان" وكان نائماً ملاطفاً له ، وإشعاراً لترك العتب والتأنيب . فقول الله تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- : "يا أيها المزمل قم" فيه تأنيس وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية : التنبيه لكل مزمل راقد ليله ، ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأن "الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة" (١) .

وما نجده هنا عند القرطبي من حسن الأدب مع هذا الخطاب نجد الزمخشري ينظر إلى هذا النداء نظرة لم تراع منزلة النبي \_صلى الله عليه وسلم\_ وتشريف الله عزَّ وجل له ، حيث يقول : "فنبه ونودي - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - لما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفته واستعداده للاستئقال في النوم ، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه

(١) تفسير القرطبي ٣٣/١٩ .

شأن" <sup>(١)</sup> . فهذا ليس مما يليق مع النبي -صلى الله عليه وسلم- . قال (ابن المنير) معلقاً على هذا الكلام : "أما قوله الأول : إن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة خطأ وسوء أدب ، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى لزمه الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري ، فقد قال العلماء : إنه لم يخاطب باسمه نداء وإن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً " <sup>(٢)</sup> .

كما أن حالة النبي في التزمل إنما كان عن خوف منه -صلى الله عليه وسلم- ورهبة عندما رأى الملك <sup>(٣)</sup> لا عن استئصال نوم وعدم اهتمام بالأمر . كما أنه "إذا نودي المنادي بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه وهيئته" <sup>(٤)</sup> .

#### ٤- النهي :

والأغراض التي يخرج إليها النهي شبيهة بأغراض الأمر. ومما ذكره القرطبي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن : ١٨] . يقول : "هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام" <sup>(٥)</sup> . ولعل التوبيخ هنا يعم جميع الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ؛ لأن ذلك كله عين الظلم وعين الفساد وانحراف الفطرة السوية" وفرع على اختصاص كون

(١) الكشاف ١٧٤/٤ .

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف ١٧٤/٤ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ٣٢/١٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٩ .

(٥) تفسير القرطبي ٢٢/١٩ .



المساجد لله النهي عن أن يدعوا مع الله أحدًا ، وهذا إلزام لهم بالتوحيد بطريق القول بالموجب، لأنهم كانوا يزعمون أنهم أهل بيت الله فعبادتهم غير الله منافية لزعمهم ذلك" (١) .

ويذكر القرطبي - رحمه الله - معاني أخرى للإنشاء الطلبي يشير إليها بصورة موجزة من ذلك ما كان يشير إليه بمعنى التهديد، والأمر (٢) والاستهزاء ، والتمني ، والدعاء ، والتعجب ، وغير ذلك .

\*\*\*\*\*

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٢٤ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٤/٤٥ ، ٩/٨٧ ، ٧/٢٠٨ ، ٧/٢٩٥ ، ٤/٢٤ .

## ج- جملة القصر في التركيب القرآني عند القرطبي :

إن بلاغة الجملة قد تستدعي طريقة معينة في تركيب ألفاظها لإفادة غرض ما . ومن ذلك ما يسمى بـ "القصر" أي : تخصيص شيء بشيء بطريقة معهودة، وهذا التخصيص إما عن طريق الحقيقة ، بحيث لا يتجاوز الشيء المخصوص المخصوص له ، أو يكون عن طريق الإضافة أي بالنسبة لشيء معين<sup>(١)</sup> . وهو ما يسمى بالقصر الحقيقي والإضافي .

والقصر من الأساليب التي اعتنى بها البلاغيون لما فيه من قوة التأثير وجمال التعبير .

ويحدد البلاغيون طرق القصر بأربع طرق هي: الاستثناء بعد النفي ، وتقديم ما حقه التأخير ، وإنما ، والعطف بـ ( لا ، وبل ، ولكن )<sup>(٢)</sup> . وقد يكون للقصر طرق غير هذه كما يقول سعد الدين فقد "يحصل القصر بتوسط ضمير الفصل ، وتعريف المسند من طرق القصر ، لكن ترك ذكرهما - ها هنا - لاختصاصهما بما بين المسند إليه والمسند مع التعرض لهما فيما سبق بخلاف العطف والتقديم ، فإنهما وإن سبقا لكنهما يعلمان غير المسند إليه والمسند"<sup>(٣)</sup> .

كما أن القصر يمكن أن يقسم باعتبارات أخرى كما يقول د/ الفيل حيث تخضع مباحثه إما إلى اعتبار حال المخاطب ، أو إلى الغرض من القصر

(١) انظر : المطول ص ٣٨١ .

(٢) انظر : الإيضاح ص ٧٦ وما بعدها ، والمطول ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٣) المطول ص ٣٨٨ .

، أو النظر إلى طرق القصر فينقسم حينئذ إلى حقيقي وإضافي ، وإلى قصر  
صفة على موصوف والعكس<sup>(١)</sup> .

ويمكن القول : إن القصر له دور كبير في إبراز المعنى ، كما أن تركيب  
جملة القصر لها دور كبير في إعطاء المعنى بعداً بلاغياً ودلالياً يفيد التركيب  
من وجود نفي واستثناء ، أو تقديم ، أو عطف ، أو غير ذلك من أحوال  
المسند والمسند إليه .

وبالنظر إلى ما قاله القرطبي عن القصر نجده لم يتحدث عن المصطلح ،  
بل نجده يحلل تركيب الآية بما هو تركيب معرضاً عن تقسيمات البلاغيين  
معتمداً على التركيب وفائدته فعند قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا  
سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦] . يقول : "بل عباد  
أى بل" هم عباد " ، ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل "اتخذ عبادة  
مكرمين"<sup>(٢)</sup> . فالمعنى على الاحتمالين القصر ، حيث إن (بل) نفت الحكم  
عما قبلها ، وأثبتته لما بعدها ، فقد نفت أن يكون الله قد اتخذ ولداً وأثبتت  
أنه اتخذ عبادةً مكرمين"<sup>(٣)</sup> .

وعند قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ  
الرُّسُلُ ﴾ [سورة المائدة : ٧٥] . يقول : أي ما المسيح وإن ظهرت الآيات  
على يديه ، فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل فإن كان إلهاً فليكن كل

(١) انظر : بلاغة التراكيب ٢٢١ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ٢٨١/١١ .

(٣) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٢٧ .

رسول إله، فهذا رد لقولهم" (١). فليس المسيح إلا رسول ، لا يتجاوز ذلك إلى غير الرسالة فهو" قصر موصوف على صفة وهو قصر إضافي ، أي المسيح مقصور على صفة الرسالة ، لا يتجاوزها إلى غيرها ، وهي الإلهية ، فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى أنه الله " (٢) .

ومما تفيده جملة القصر من دلالات بلاغية ما تستدعيه من عمق في الدلالة وبعد في الملاحظة ، ومن ذلك ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [سورة الأنعام : ٣٦]. "أي سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق وهم المؤمنون الذين يقبلون ويسمعون ويعملون - أما الكفار- فهم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة" (٣) .  
وإذا كانت (إنما) لا تجيء إلا لخبر لا يجمله المخاطب ، كما يقول الإمام عبد القاهر (٤) . فإن الأمر هنا يراد به التعريض بهم فلا غرو أنهم - الكفار - يسمعون بأذانهم ، لكن هذا القصر تعريض " بأولئك الذين توجه إليهم دعوة الحق فيها ما فيها من الوضوح والبراهين وهم لا يستجيبون لداعي الحق ، والآية تعريض بهم وتذهب إلى أنهم فقدوا السمع ومن ثم لا يتحقق منهم الإجابة" (٥) .

(١) تفسير القرطبي ٦/٢٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٥/١٧٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٦/٤١٨ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ص ٣٣٠ .

(٥) بلاغة التراكيب ص ٢٣١ .

لقد تحدث الإمام عبد القاهر عن القصر بـ "إنما" في قوله تعالى :  
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] . ولم قدم لفظ الجلالة  
فقال : "إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم ؟ ويخبر بأنهم  
العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أحر ذكر اسم الله وقدم العلماء فقليل : إنما  
يخشى العلماء الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآية ، ولصار الغرض بيان  
المخشي من هو والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون  
الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما  
هو الغرض في الآية ، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى  
أيضاً : لا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره ، والعلماء لا يخشون  
غير الله تعالى" (١) .

إذن الاهتمام في صيغة القصر هذه يكون منصباً على العلماء ، وهو ما  
نجده عند حديث القرطبي عن هذه الآية حيث يقول : "يعني بالعلماء الذين  
يخافون قدرته ، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية كما  
روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس إنما يخشى الله من عباده العلماء  
قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير ، وقال : الربيع بن أنس : من  
لم يخش الله فليس بعالم . وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله عز  
وجل" (٢) .

وعندما نتساءل إذا كانت "إنما" في أمر ظاهر كما يذكر الإمام  
عبدالقاهر فلماذا قال المنافقون : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِحُونَ ﴾ [سورة

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٤٣/١٤ .

البقرة : ١١]. يذكر الإمام القرطبي أنهم إنما قالوا ذلك "على ظنهم لأن إفسادهم عندهم إصلاح" (١). يعلق الإمام عبد القاهر على هذه الآية بقوله : "دخلت (إنما) لتدل على أنهم حين ادعوا لأنفسهم أنهم مصلحون أظهروا أنهم يدعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً ، ولذلك أكد الأمر في تكذيبهم والرد عليهم فجمع بين "ألا" الذي هو للتنبيه، وبين "إن" الذي هو للتأكيد، فقيل: "ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون" (٢).

ولذلك جاءت هذه الجملة كما يقول القرطبي ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم (٣) الذي زعموا شهرته وظهوره .

ومن طرق القصر التقديم ، وقد تحدث عنه القرطبي في مواضع كثيرة

منها عند قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة : ٥]: "إن قيل لم قدم المفعول على الفعل قيل له : قدّم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم ... وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود" (٤).

فالقرطبي هنا يضم إلى فائدة الاختصاص في التقديم فائدة أخرى دلالية وهي دلالة "ضرورة لكتاب يدعو إلى رسالة الوحدانية ويؤكد اختصاص الله تعالى بالعبودية دون سواه" (٥).

(١) تفسير القرطبي ٢٠٤/١ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٥٨ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ٢٠٤/١ .

(٤) تفسير القرطبي ١٤٥/١ .

(٥) النظم القرآني في تفسير القرطبي ص ١٥٩ .

ويذكر دلالة القصر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ [سورة الفرقان : ٢٠]. فيقول : قال أهل المعاني المعنى وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل لهم (إنهم لياكلون) "ثم يستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [سورة فصلت : ٤٣] <sup>(١)</sup>.

نلاحظ هنا أن القرطبي فسر القصر بأن الرسل قيل لهم مثل ما قيل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وكأنه في ذلك قد وصل بين حاضر النبي - صلى الله عليه وسلم - وماضي الرسل، الذين وصفوا بالصفة ذاتها، ثم هو يشير إلى ترابط الآي باستدلاله بالآية الأخيرة .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَخِيهِ إِلَىٰ رَيْبِنَا نَاطِرَةٌ ﴾ [سورة القيامة : ٢٢ - ٢٣]. يؤكد القرطبي أن "ناطرة" بمعنى النظر إلى الله تبارك وتعالى ويرد على مَنْ قال بأن ذلك معناه انتظار ما لهم من ثواب بقوله : "وهذا القول ضعيف جداً خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار" <sup>(٢)</sup>.

ولعله يريد بظاهر الآية القصر الذي أفاده تقديم الجار والمجرور ؛ لأن هذا التقديم ليس للحسن السجعي فقط ، وإنما للعناية بمعناه الأهم وهو النظر إلى ربها <sup>(٣)</sup>.

ومما يفيد القصر والاختصاص قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٤٧]. فتقدم الجار والمجرور لزيادة النفي.

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٣ .

(٢) السابق ١٠٨/١٩ .

(٣) انظر : خصائص التراكيب ص ٣٥٠ .

عن الضحاك قال : في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول  
فذكر الله خمر الجنة فترها عن هذه الخصال <sup>(١)</sup> . "فالمراد إذن قصر نفي  
الغول عنها بخلاف خمر الدنيا فإن فيها غولاً" <sup>(٢)</sup> .

هذه بعض من ملاحظات القرطبي حول جملة القصر ، والملاحظة  
الجديرة بالتسجيل - هنا - أن القرطبي لم يكن يهتم بالمصطلح البلاغي قدر  
اهتمامه بالدلالة البلاغية للآية ، ولم تشغله المصطلحات عن تحليل النصّ  
القرآني .

\*\*\*\*\*

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧٩/١٥ .

(٢) خصائص التراكيب ص ٣٥١ .



## د- الجملة المتعلقة بطرفي الإسناد (الحذف - التقديم والتأخير)

إن قضية الإسناد وما ينطوي تحتها من أبواب ذات أهمية في الدرس البلاغي ؛ ذلك لأن الإسناد "أصل الفائدة ومناطها" <sup>(١)</sup>. وهو الذي يبيّن علاقة الكلمة بصاحبها "فلا يوجد معنى منفصل للكلمة وإنما معناها في الجملة التي ترد فيها فإذا قلت إن كلمة أو عبارة تحمل معنى فهذا يعني أن هناك جملاً تقع الكلمة أو العبارة فيها، وهذه الجملة تحمل معنى" <sup>(٢)</sup>.

وهذا الإسناد تكمن أهميته عند بناء العلاقات بين الكلمات، التي تبدأ من بناء علاقات قائمة على الاستعمال الحقيقي للمفردة وانتهاء بالبناء المجازي الذي له دور كبير في "تضييق المعنى وتوسيعه" <sup>(٣)</sup>.

إن المجاز هو الذي يساعدنا على نقل المعنى الأول إلى ثانٍ لمناسبة شاملة <sup>(٤)</sup>. ويؤدي إلى بناء علاقات جديدة بين الألفاظ.

وإذا تحولنا إلى القرآن الكريم فلا غرو أن بناء التركيب فيه سواء كان في البعد الحقيقي أو المجازي أو في بُعد الحضور "حضور الكلمات" أو الغياب - الحذف - جاء في أكمل صورة وأروع بيان فالإسناد بما فيه الإسناد المجازي <sup>(٥)</sup> يعطي فائدة بلاغية وأبعاداً دلالية.

(١) خصائص التراكيب ص ١١٣ .

(٢) علم الدلالة ص ٣٤ .

(٣) السابق ص ١٢٦ .

(٤) أحاديث في تاريخ البلاغة العربية وبعض قضاياها : د/عبد الكريم محمد الأسعد ، دار العلوم ص ٢٠٩ .

(٥) لمزيد عن المجاز في القرآن . انظر : السابق ص ٢٢٢ ، وكتاب المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع ، د/عبدالعظيم المطعني ، مكتبة وهبة ، وكتاب فلسفة المجاز : د/لطفى عبد البديع ، وكتاب إنكار المجاز عند ابن تيمية : د/إبراهيم التركي .

والإمام القرطبي - رحمه الله - لم يغفل الحديث عن ذلك سواء في الإسناد، أو الحذف، أو التقديم والتأخير .

وقبل الدخول إلى حديث القرطبي عن ذلك يجدر بنا العلم بموقفه من المجاز والإسناد فيه ..

كان الإمام القرطبي في تناوله للقضايا والمصطلحات البلاغية على قدر كبير من الاتساع ، وعدم الالتزام بالتعديد البلاغي ، ولذا نستطيع أن نقول إن "الإمام القرطبي قد تأثر بالمدرسة الأدبية التي كانت سائدة في عصره في مصر والشام والتي كان على رأسها ابن الأثير ، ويظهر ذلك من خلال عدم عناية الإمام القرطبي بضبط المصطلحات البلاغية وتقسيماتها هذا من جهة ، ثم سلاسة الأسلوب ورقة العبارة التي يستخدمها في تفسيره" (١) .

وما يهمنا هنا هو الإسناد ، وخاصة (الإسناد المجازي) ، يبدو أن موقف القرطبي من المجاز كان واضحاً وهو كما يقول الأستاذ محمد الحسن : "يأخذ برأي الجمهور الذي يقوم على وجود المجاز في القرآن والمنهج العام الذي تعامل فيه مع المجاز يقوم على عدم توسيع دائرة القول بالمجاز فهو يميل إلى القول بالحقيقة أكثر من المجاز" (٢) .

وهذا الموقف واضح جداً في عرضه لآراء المانعين ، وغير المانعين لوجود المجاز في القرآن عند قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ . قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [سورة الكهف : ٧٧] . ثم يقول : "أي "قرب" أن يسقط وهذا مجاز وتوسع ... فكان فيه دليل على وجود المجاز في

(١) الاتجاه البياني ص ٢١ .

(٢) السابق ص ١٤٢ .

القرآن وهو مذهب الجمهور"<sup>(١)</sup> ، والقول بالمجاز يكاد يضطرد بين العلماء حتى الذين عرفوا بإنكار المجاز في القرآن وجد لهم رجوع عنه بتأويلات مجازية أو اعتراف بالمجاز ، بلفظه ومعناه<sup>(٢)</sup> . إلا أن وجود المجاز في القرآن لا يعني القول به في آيات الأسماء والصفات ، فهي ألفاظ معدودة ، يمكن استثناءها من ذلك ؛ لقدسية الأسماء والصفات ، ولأن مذهب السلف قد اتضح في ذلك ، وهو وسط بين التعطيل والتمثيل . إن هناك من توسع في المجاز في أسماء الله وصفاته، كما في كتاب "مجاز القرآن" للعز بن عبدالسلام- رحمه الله- فقد بالغ في تأويل بعض الصفات متخذاً من المجاز سبيلاً له، فالرحمة : إرادة إكرام المرحوم ، والود : إرادة ما يريده الواد بمودوده ، والاستواء : الاستيلاء على ملكه ، والرضى : معاملته بما يعامل الراضي من أرضاه<sup>(٣)</sup> . وهذا التوسع خلاف لقدسية هذه الصفات، وتعلقها بعالم الغيب " فالذين يهجمون على الآيات بالتأويل يطفئون جذوة التوتر الذي يقتضيه الوحي ، من حيث إنه يجعل من الوجود الإنساني وجوداً آخر له تعلق بالسماء ، يعي الكلمة النازلة منها على نحو ما تقتضيه صفتها الإلهية وقيسها بذلك لا بقياس المعقول والمحسوس لأن الإيمان بما يفضي به إلى ما وراءها"<sup>(٤)</sup> ، كما أن هذه

(١) تفسير القرطبي ٢٥١/١١ .

(٢) انظر : المجاز في اللغة والقرآن ٤٤٤/٢ .

(٣) انظر : مجاز القرآن : العز بن عبدالسلام ، تحقيق : د. محمد مصطفى بن الحاج ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي ، الجماهيرية العظمى ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م - ١٤٠١هـ ، ص ٤٣٠ وما بعدها .

(٤) فلسفة المجاز ص ٤٢ - ٤٣ .

التأويلات تترع من الألفاظ كيانها، وتعفي على آثارها المحسوسة<sup>(١)</sup>، بل إن أولئك المتأولين وقعوا فيما فروا منه، فأرادوا تزيه الله عز وجل فوقعوا في عكس ذلك.

وإذا كان حمل اللفظ على الحقيقة أولى من المجاز فإن الإمام القرطبي قد أغفل هذه القاعدة عندما تحدث عن بعض صفات الله عز وجل، التي أولها على غير الحقيقة كما في صفة الوجه<sup>(٢)</sup> واليدين "لعله بذلك أراد تنزيه الله عز وجل، ولكن ذلك مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة، يقول عند قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] : "أي بل نعمته مبسوطة فاليد بمعنى النعمة . قال بعضهم هذا غلط لقوله بل يده مبسوطتان ... وقيل نعمتا الدنيا والآخرة ... وقد يقول القائل مالي بهذا الأمر يد أي قوة"<sup>(٣)</sup> . ثم يذكر معاني أخرى لليد منها الصلة، وبمعنى الملك والقدرة، وبمعنى التأييد والنصرة "<sup>(٤)</sup> . ولكن عندما يفسرها بمعنى الجارحة كما في كلام العرب يقول : "وهذا محال على الله"<sup>(٥)</sup> . وهذا ليس مما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، حيث إنهم يثبتون "أن لله يدين حقيقتين، فيجب إثبات ذلك له فإذا قال قائل المراد بهما القوة قلنا له هذا صرف للكلام عن غير ظاهره فلا يجوز القول به لأنه قول على الله بغير علم"<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر : فلسفة المجاز ص ٥٩ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٨٣/٢ - ٨٤ حيث قال : "والعبارة عن الوجه من مجاز الكلام".

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٩/٦ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٨/٦ .

(٥) تفسير القرطبي ٢٣٨/٦ .

(٦) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد : لابن قدامة ، شرح الشيخ محمد بن صالح

العثيمين ، مكتبة الإمام البخاري ص ٢٠ .

كما أن السلف - رحمهم الله - أجمعوا على "إثبات اليدين لله، فيجب إثباتهما له بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهما يدان حقيقتان لله تعالى يليقان به" (١).

ومن هذا يتضح وجه التناقض في كلام القرطبي - رحمه الله - لا كما يقول الأستاذ محمد الحسن (٢)؛ لأن الإمام القرطبي لا يفسر اليد بالجراحة بل يفتح المجال لبقية المعاني. والخلاف ليس في تلك المعاني المجازية، بل الخلاف في كون الحقيقة والمجاز، كما أن بعض المعاني التي فسرت بها هي ضد ذلك الاحتجاج كالقول بأن الإضافة في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ [سورة ص: ٧٥] إضافة تخصيص وتشريف وتكريم (٣). فإن الله "لا يضيف إليه من المخلوقات شيئاً إضافة تخصيص إلا لاختصاصه بأمر يوجب الإضافة، وإلا مجرد كونه مخلوقاً ومملوكاً لا يوجب أن يخص بالإضافة.

وبهذا يتبين فساد قول النفاة الذين يقولون في قوله تعالى ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ﴾ [سورة ص: ٧٥] من الأقوال ما لا اختصاص لآدم به، كقولهم: بقدرته أو بنعمته أو أن المعنى: خلقته أنا أو أنه إضافة إلى نفسه، إضافة تخصيص، فإن هذه المعاني كلها موجودة في الملائكة وإبليس والبهائم، فلا بد من أن يثبت لآدم من اختصاصه بكونه سبحانه خلقه بيديه ما لا يثبت لهؤلاء (٤).

(١) لعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ص ٤٩ .

(٢) انظر: الاتجاه البياني ص ١٥٢ .

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٢٢٨/١٥ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: تحقيق د/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام

ولكننا نجد القرطبي - رحمه الله - يقول في الاستواء- الذي كثر فيه قول المتأولين<sup>(١)</sup> - بقول أهل السنة والجماعة حيث يقول عند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] : "وقد كان السلف الأول - رضي الله عنهم - لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه، وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على العرش حقيقة " <sup>(٢)</sup> .

وبعد هذه الوقفة ننتقل إلى حديث القرطبي عن الجملة المتعلقة بطرفي الإسناد :

## أ- الحذف :

الحذف عجيب الأمر شبيه بالسحر ذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ... والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب<sup>(٣)</sup> .

ويذكر الإمام الزركشي الخلاف في كون الحذف مجازاً أو لا ، ثم يعلق بقوله : "والتحقيق أنه إن أريد بالمجاز استعمال اللفظ في غير موضعه فالمحذوف

(١) أول الاستواء بالقهر والاستيلاء المعتزلة والجهمية ، والحرورية ، ومتأخري الأشعرية ، والخلاف منطلق من الخلاف في هذه الصفة سمعية ، أم فعلية . انظر : درء التعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ٢٠٨/٦ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ٢١٩/٧ .

(٣) انظر : دلائل الإعجاز ص ١٤٦ ، والمثل السائر ٣١٦/٢ .

ليس كذلك لعدم استعماله ، وإن أريد بالمجاز إسناد الفعل إلى غيره وهو المجاز العملي فالحذف كذلك" (١) .

وينداح الحذف ليكون ذا علاقة بالنفس والشعور ذلك "أنه يجعل مجال الإحساس والشعور متسعاً أمام السامع فيتوهم كثيراً من الأشياء التي يحمل معانيها اللفظ المحذوف والمفهوم من الكلام في آن واحد" (٢) .

ولا جرم أن الحذف يتسع في القرآن ليشمل حذف اللفظ أو الجملة أو حتى الحرف فعلى سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ۗ ﴾ [سورة الكهف: ٩٧] . نجد التاء في الفعل الثاني دون الأول ، والسبب - والله أعلم - أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً خفف الفعل للعمل الخفيف فحذفت التاء ، وطوّل الفعل بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل (٣) .

وقد ذكر القرطبي أن الاستطاعة في الأولى بعيدة ؛ لأنه أملس مستو على الجبل ، ولكن الاستطاعة الثانية أشق منها ؛ لبعد عرض السور ، وقوته (٤) .

والإمام القرطبي أولى الحذف عناية خاصة ولكن قبل عرض الأمثلة لابد من الإشارة إلى ملاحظتين :

(١) البرهان ٦٨/٢ .

(٢) النظم القرآني في تفسير القرطبي ص ١٦٥ .

(٣) انظر : التعبير القرآني ص ٧٧ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٦٢/١١ .

## أولاهما :

أن الإمام القرطبي لا يلجأ إلى الحذف إلا إذا كان لابد منه ، وكان

هناك دليل على المحذوف ففي قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهَى رَمِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٧٨] . يعلق عليها القرطبي بقوله : فإن قيل أراد بقوله : من يحيي العظام "أصحاب العظام" وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة موجود في الشريعة قلنا : إنما يكون إذا احتيج لضرورة ، وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار ، ولا يفتقر إلى هذا التقدير إذ البارئ سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه ، والحقيقة تشهد له فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه قاله ابن العربي " (١) .

بل إن عدم الحذف هو ما يلامس الحس البلاغي والدلالة ويوافق ويتسق مع التركيب كله لأن السؤال كما يقول ابن عاشور : " لم يكن قاصداً تطلب تعيين المحيي ، وإنما أراد الاستحالة فأجيب من هو متطلب علماً فقليل له : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، فكذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسنداً للمحيي " (٢) .

كما أن القضية كلها بما دلت عليه مناسبة نزول الآية (٣) . تجعل العظام هي محور الحوار والسؤال والجواب .

---

(١) تفسير القرطبي ٥٩/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٢ .

(٣) مناسبة نزول الآية . انظر : تفسير القرطبي ٥٨/١٥ .



## ثانيهما :

ويكشف القرطبي - رحمه الله - أثناء وقوفه على بيان مواطن الحذف عن السر البلاغي لهذا الحذف بحسب بلاغي دقيق ، ومن ذلك ما ذكره عند حذف جواب الشرط وحذف المفعول به وحذف المضاف وحذف الجملة :

### ١- حذف جواب الشرط :

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٠]. قال : "جواب" لو "محذوف لعظم شأن الموقوف" (١).

وعند الآية التي قبلها وهي قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْلَنَا نُزُدُّ وَلَا نُنْكَدِبُ يَا رَبَّنَا ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧]. يذكر القرطبي سر الحذف الذي يذهب فيه السامع كل مذهب، ويفتح المجال للخيال ليصور كل ما هو مهول وفضيع" : "وجواب لو محذوف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أبلغ في التخويف . والمعنى : لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال أو لرأيت منظرًا هائلًا أو لرأيت أمرًا عجبًا وما كان مثل هذا التقدير" (٢).

وعند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [سورة سبأ: ٣١] . يقول : " وجواب لو محذوف : أي : لرأيت أمرًا هائلًا فظيعًا " (٣).

(١) تفسير القرطبي ٤١١/٦ .

(٢) السابق ٤٠٨/٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٢/١٤ .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمَّ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٠] :  
وجواب لو محذوف تقديره : "لرأيت أمراً عظيماً" (١) .

في هذه الآيات نجد القرطبي يبين سر الحذف بما يُوحيه من هول الأمر وفضاعته في مثل هذه المواقف العظيمة ، وقد ذكر البلاغيون أن حذف الجواب يقع في مواقع التفخيم والتعظيم ، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به ، ولقصد المبالغة ؛ لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب ، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به ، فلا يكون له ذلك الوقوع ، ومن ثم لا يحسن تقدير الجواب مخصوصاً إلا بعد العلم بالسياق" (٢) .

فالقرطبي لم يحدد الجواب في الآيات السابقة ، وإنما عبر عنه بأمر عظيم فظيع ؛ لأن كل ذلك الحذف لتفطيع الأمر وتهويله . وجاء تقدير القرطبي للحذف في الآيات السابقة مناسباً لسياق الآيات .

## ٢- حذف المفعول به :

يقول الإمام عبد القاهر عن حذف المفعول به : إن "اللطفائف كأنها فيه أكثر ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر" (٣) .

وإذا كان النحاة قد عدوا المفعول به فضلة يستوي ذكره وحذفه فإن الدلالة المعنوية تجعل منه ذا أهمية كأهمية الفاعل ، وهذا ما عبر عبد القاهر بقوله : "وهنا أصل يجب ضبطه ، وهو أن حال الفعل مع المفعول به الذي

(١) تفسير القرطبي ٢٨/٥ .

(٢) البرهان ١١٨/٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٥٣ .

يتعدى إليه حاله مع الفاعل ، فكما أنك إذا قلت : "ضرب زيد" فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له لا أن تقيد وجوب الضرب في نفسه على الإطلاق كذلك إذا عدت الفعل إلى المفعول به فقلت : "ضرب زيد عمراً" كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الدافع من الأول بالثاني ووقوعه عليه <sup>(١)</sup> .

ففي التركيب لا يمكن إغفال أي كلمة منه ، فكل كلمة لها دورها في بناء الدلالة البلاغية "فمكمن أهمية الكلمة وخطورها في مكانها داخل التركيب، وفي أن يحول اللفظ عن مكانه إلى مكان ، وهذا يكون على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة ، يدق فيها النظر ويغمض المسلك" <sup>(٢)</sup> . كما أن الكلمة لها دورها وإيجازها في حضورها وفي غيابها ، بل وفي الإيجاء بما يضادها في التركيب فكأن الغياب ليس أقل دلالة من الحضور . وهنا فقط تغيب مصطلحات نحوية كالعمدة والفضلة .

إذن غياب المفعول به له دور وإيجاء في المعنى ، وقد تحدث القرطبي عن حذف المفعول به كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [سورة القصص : ٢٣] : "يسقون" أي : ماشيتهم ... "تذودان" ، تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس .. فحذف المفعول به إما إيهاماً على المخاطب ، وإما استغناءً بعلمه قال ابن عباس : تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء . قتادة تزودان الناس عن غنمهما قال النحاس : والأول أولى لأن بعده قالتا لا نسقي حتى

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٣ .

(٢) عالم اللغة : عبد القاهر ص ٢٣٢ .

يصدر الرعاء ، ولو كان تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء" (١) .

فالقرطبي هنا يذكر الغرض البلاغي من الحذف وهو إبهاماً على المخاطب أو استغناءً بعلمه كما نجد القرطبي يحرص على "ربط النظم بين الآية وما بعدها ، ويتضح ذلك في اختياره لتقدير ابن عباس عما سواه" (٢) . كما أن نظم الآية وتركيبها يتجه إلى الفعل لا إلى المفعول به (٣) . فالغرض لا يتعلق بمعرفة المسقي ولكن بما بعده من انزواء المرأتين عن السقي (٤) . فكأن غياب المفعول به حضور قوي لصورة المرأتين وعملية السقي التي سيظهر فيها موسى عليه السلام .

وربما يكون حذف المفعول به لتناسب آخر الآيات قال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [سورة الضحى : ٣] : "وترك الكاف لأنه رأس آية" (٥) تناسباً مع فواصل الآية الأخرى ، وهذا التناسب أشار إلي دلالة المعنوية الإمام الزركشي عند هذه الآية (٦) . فحذف المفعول فيه مراعاة لمزله-صلى الله عليه وسلم-لاسيما وأن السورة نزلت بعد أن تحدث المشركون عن هجر النبي-صلى الله عليه وسلم- ، فترلت ردا عليهم وتبشيرا له -عليه الصلاة

(١) تفسير القرطبي ٢٦٨/١٣ .

(٢) النظم القرآني ص ١٦٦ .

(٣) انظر : الكشاف ١٧٠/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٨/٢٠ .

(٥) تفسير القرطبي ٩٤/٢٠ .

(٦) انظر : البرهان ١٠٩/٣ .

والسلام-بالكرامة الحاصلة والمترقبة . كما يشعر به إيراد اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ مع إضافة إلى ضميره -عليه الصلاة والسلام- (١) .

ومن الآيات التي ذكر القرطبي سر حذف المفعول فيها قوله تعالى : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا عَشَّى ﴾ [سورة النجم : ٥٤] . قال : "أي غشاها من العذاب ، ما غشاها ، وأبهم لأن كلا منهم أهلك بضرب غير ما أهلك به الآخر ، وقيل هذا تعظيم الأمر" (٢) . ففي هذا الإيهام تهويل وتعظيم لما أصابهم (٣) .

### ٣- حذف المضاف والمضاف إليه :

قال الزركشي عند حذف المضاف : "وهو كثير قال ابن جني وفي القرآن منه زهاء ألف موضع" (٤) . ولكن هذا الحذف يشترط فيه وجود القرينة في ذلك من دليل لفظي أو عقلي (٥) . وقد وقف القرطبي عند ذلك ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [سورة مريم : ٤] . يقول القرطبي : "وهذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب .. وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، ولم يضيف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام (٦) .

(١) انظر : تفسير أبو السعود ٥/٥٤٢ ، ٥٤٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١٧/١٢١ .

(٣) أنوار التنزيل ٥/١٠٥ .

(٤) البرهان ٣/٩٥ .

(٥) انظر : البرهان ٣/٩٦ .

(٦) تفسير القرطبي ١١/٧٧ .

فالقُرطبي يتحدث عن جمال هذه الاستعارة ، ولعل من جمالها حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وهو ما أشار إليه عبد القاهر بقوله : "وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى ، "وإن كان هو للرأس في اللفظ ... وإن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كاف لأن سلك فيه هذا المسلك ، وتوحي به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسندة إلى الشيب صريحًا فتقول : "اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس ثم تنظر هل نجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة وهل ترى الروعة التي كنت تراها" (١) .

ولكن ما السر في هذا الإسناد إلى المضاف إليه مباشرة ؟ يجب عبد القاهر بقوله : "فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع وأخذ من نواحيه ، وأنه قد استغرقه وعم جملة" (٢) .

وإذا تحدث البلاغيون عن حذف المضاف في قوله تعالى : ﴿ وَنَسِئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [سورة يوسف : ٨٢] . وأنه إيجاز بالحذف فإن القرطبي يرفض هذا الحذف : "وقيل المعنى واسأل القرية وإن كانت جمادًا فأنت نبي الله وهو ينطق الجماد لك وعلى هذا فلا حاجة إلى الإضمار" (٣) . ففي هذا وجهان إما أن يراد أهل القرية ، وإما أن يراد الأبنية (٤) . والقرطبي

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠١ .

(٢) السابق ص ١٠١ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٤٦/٩ .

(٤) البرهان ٩٧/٣ .

يحملة على سؤال الأبنية ولعل فيه إما دلالة المعجزة وهي بدورها تدل على صدقهم في هذا الموقف أو دلالة على أن الخبر ظاهر منتشر حتى إن الجمادات لو نطقت لقاتل به لاسيما وأن يعقوب عليه السلام لم يكن يثق فيهم بعد حالتهم الأولى مع يوسف "لذا جاءت الجملة الأخيرة مثقلة بالتوكيدات : "وإنّا لصادقون" فكأنها تتسق مع ذلك. وينظر الإمام العز بن عبد السلام إلى أن المجاز في الآية السابقة هو عين المجاز ؛ لأنه استعمال للفظ في غير ما وضع له، فليس حذف المضاف كله من المجاز، بل المجاز في أن ينسب إلى المضاف إليه ما كان منسوبا إلى المضاف. (١).

ويقف القرطبي عند مثل هذا الحذف الذي تعلقو براعته في الدلالة البلاغية عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] . أي حب العجل والمعنى جعلت قلوبهم تشربه ، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن حب العجل في قلوبهم " (٢) . فالقرطبي هنا يلمس سر الحذف ذلك أن حب العجل تسرب قلوبهم بصورة عنيفة، فاليهود لفرط حبههم للعجل صار صورة العجل في قلوبهم (٣) . فقد "شُغفوا به استحساناً واعتقاداً أنه إلههم ، وأن فيه نفعهم لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبههم الذهب وقد قوى ذلك الإعجاب به بفرط اعتقادهم ألوهيته ، ولذلك

(١) انظر : مجاز القرآن للعز بن عبد السلام تحقيق د/محمد مصطفى بن الحاج ط/١ ص ١٠٨ او العز بن عبد السلام حياته ، وآثاره ، ومنهجه في التفسير : دكتور عبدالله بن إبراهيم الوهبي ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ١٢٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٣١/٢ .

(٣) انظر : البرهان ٩٧/٣ .

قال تعالى : " بكفرهم " فإن الاعتقاد يزيد المعتقد في حب معتقده" (١) . فاجتمع في ذلك ما يقوى محبتهم للعجل دوافع محبة المال وسوء النفوس وسوء المعتقد !! ، كما أن (أشربوا) هنا تشير إلى مدى تشرب نفوسهم وقلوبهم لذلك ، كما يتشرب الثوب الصبغ ، وكما يصل الشراب إلى أعماق البدن (٢) .

ويلاحظ القرطبي أهمية الحذف في الدلالة على المعنى المراد وذلك عند قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٤] . قال : "وما علمتم" أي صيد ما علمتم . ففي الكلام إضمار ولولاه لكان المعنى يقتضي أن يكون الحل المسؤول عنه متناولاً للمعلم من الجوارح المكليين وذلك ليس مذهباً لأحد" (٣) .

وعند قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] . يقول : "هذه الآية ولفظها بيان مثال بشرف النفقة في سبيل الله ، ولحسنها ضمنها التحريض على ذلك ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره : "مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة فأنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة" (٤) .

(١) التحرير والتنوير ٥٩٣/١ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود محمد العمادي الحنفي ، تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا ، مكتبة الرياض الحديثة ٢١٦/١ .

(٣) تفسير القرطبي ٦٥/٦ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٠٢/٣ .



ولعل السر في هذا الحذف هو اتجاه القرآن الكريم إلى الصدقة نفسها  
والجزاء عليها هذا الجزاء المضاعف .

لقد وجدنا القرطبي يقف عند الحذف الذي فيه ملامح بلاغية ، كما  
اتضح ذلك من خلال الأمثلة السابقة . كما أنه كان يحلل التركيب بحسب  
المحذوف ويدخل إلى تشكيل التركيب لذلك ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند  
قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾  
[سورة البقرة : ١٧١] . حيث يقول : " شبه تعالى واعظ الكفار وداعيتهم  
وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل ، فلا تسمع  
إلا دعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقول ، وهذا نهاية الإيجاز ، قال سيويه : لم  
يشبهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به والمعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين  
كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم محذوف لدلالة المعنى  
عليه" (١) . ثم يذكر وجهاً آخر هو كون الناعق هم والمنعوق به آهنتهم التي لا  
تسمع شيئاً ، فهي صم بكم وكمثل الذي ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من  
أجل بعده. (٢) ، فحذف المضاف من الموصول الثاني لدلالة كلمة (ما) عليه ،  
فإنها عبارة عنه مشعرة مع ما في حيز الصلة بما هو مدار التمثيل (٣) .

هكذا وجدنا كيف اهتم الإمام القرطبي بالحذف وخاصة حذف  
المضاف الذي ربما يكون تقديره لازماً أو ربما لا يكون كذلك كما أن المعنى  
والدلالة البلاغية للتركيب تختلف باختلاف لزوم ذلك التقدير وعدمه (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٢/٢١٤ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢/٢١٥ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ١/٣٠٢ .

(٤) لمزيد من الأمثلة انظر : ٣/٢٤٣، ٧/٢٦، ١١/١٥١، ١٣/١٧، ٢٤٣، ١٣٢ .

## ٤- حذف الجملة :

لعل من الأهمية بمكان الحديث عن حذف الجملة لاسيما وأنه يكثر في سرد القصص القرآني ، وهي إحدى الخصائص الفنية لعرض القصة (١) . لأن الغرض من القصة في القرآن غرض ديني كما يقول : سيد قطب - رحمه الله - (٢) . ولذا جعل هذا الغرض القصة "تعرض منها الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض" (٣) . وهذا جعل كل حلقة يحذف منها ما لا يكون مهماً للسياق ، والجو والغرض الذي من أجله جاءت القصة ، وهذا جعل تكرر القصة في القرآن ذا طعم خاص لا تجد فيه التكرار الممل ، ولا العرض المطابق للعرض الآخر .

ونجد أمثلة على حذف بعض الحلقات في كثير من القصص منها قصة يوسف عليه السلام مثلاً . والقرطبي - رحمه الله - يشير إلى ذلك الحذف وأنه مما يدل عليه الكلام ، فليس ذكره مما يفيد القصة فعند قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ [سورة يوسف : ٣١] . يقول : "في الكلام حذف أي أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه" (٤) . فكان القرطبي يدرس ما كان يدور في خلدتها وهي تعد هذه الوليمة التي وراءها ما وراءها . وهذا يتعلق بشخصية هذه المرأة لا علاقة له ببناء القصة العام .

(١) انظر : النظم القرآني ص ١٦٧ .

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن ص ١٧١ .

(٣) السابق ص ١٧٤ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧٧/٩ .

ويتحدث القرطبي عن دور الحذف في كشف الدلالة ،ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٧]: في الكلام حذف تقديره : "فلما رجعوا من مصر قالوا يا "أبانا" وهذا يدل على أن الذي قال له : تالله إنك لفي ضلالك القديم بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله ، فإنهم كانوا غُيبًا وكان يكون ذلك زيادة في العقوق – والله أعلم – " (١) .

ويشير القرطبي إلى وجود الحذف في قوله تعالى أيضًا : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ [سورة يوسف : ٤٦] : "أي فأرسلوه فجاء يوسف فقال أيها الصديق" (٢) . ولعلّ هذا النداء (يوسف) مؤذن بقول محذوف في الكلام ، وأنه من قول الذي نجا واذكر بعد أمة ، وحذف من الكلام ذكر إرساله ، ومشيه ووصوله إذ لا غرض فيه من القصة ، وهذا من بدیع الإيجاز (٣) .

ويتحدث القرطبي عن حذف الجملة عند قوله تعالى : ﴿ يَبْيَحِيْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [سورة مريم : ١٢] . فيقول : "في الكلام حذف المعنى فولد له ولد، وقال الله تعالى للمولود : ﴿ يَبْيَحِيْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [سورة مريم : ١٢] . وهذا اختصار يدل عليه الكلام " (٤) .

ولعل القرطبي يقصد بذلك أن القرآن يعتمد على تفكر وتأمل قارئه فيحذف من الجمل ما يمكن إدراكه من السياق.

(١) تفسير القرطبي ٢٦٢/٩ .

(٢) السابق ٢٠٢/٩ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٧٢/١٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٨٦/١١ .

ومن خصائص القصة القرآنية "تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد وقص المناظر ... وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب" (١). ولذلك يذكر القرطبي ذلك الحذف، وتلك التفصيلات الغائبة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ [سورة يوسف : ٨٨]. قال : "وفي الكلام حذف أي فخرجوا إلى مصر فلما دخلوا على يوسف قالوا ... " (٢).

وفي قصة موسى عليه السلام نجد مثل هذا الحذف أيضاً ففي قوله تعالى : ﴿ فَأَنبِأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة طه : ٤٧]. يقول القرطبي : "في الكلام حذف المعنى فأتياه فقالا له ذلك" (٣). فالسياق لا يذكر كيف وصلا إليه فقد أتياه بقدرة الله عز وجل فأية قوة وأي سلطان معهما؟ إنه سلطان ربهما عز وجل (٤).

وعند قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُؤِ إِني إِلَيْكَ كِنْتُ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٢٩]. يقول القرطبي : "في الكلام حذف ، والمعنى ذهب فألقاه إليهم فسمعها وهي تقول : يا أيها الملأ" (٥).

ففي هذه الآية قد حذف ما زاد من تفصيلات جزئية تدرك من السياق، وفي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة، ومما يؤكد ذلك

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٨٨ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٢/١ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٣/١١ .

(٤) انظر : في ظلال القرآن ٢٣٣٧/٤ .

(٥) تفسير القرطبي ١٩١/١٣ .

أن القرطبي اكتفى بما قال من غير تعليق ، أو مناقشة وهو ما نهجه القرطبي في كل ما سبق من حذف التفصيلات ، والقرآن الكريم "ينهج هذا النهج في كثير من قصصه ليعطى فرصة للمتلقي أن يعمل عقله وخياله في التفصيلات والجزئيات الأخرى" (١) .

وليس حذف الجملة خاصاً بالقصة فقط ، فهناك حذف له إيجاباته البلاغية الكثيرة من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ [سورة النساء : ١٦٦] . حيث يتحدث القرطبي عن دلالة الحذف هنا فيقول : "وفي الكلام حذف دل عليه الكلام ، كأن الكفار قالوا : ما نشهد لك يا محمد فيما تقول فمن يشهد لك" (٢) . والمراد بقول الكفار هنا هو ما يتوهم أنهم قالوا، ولو لم ينطقوا بألسنتهم لأن هذا "استدراك على معنى إثارة الكلام : لأن ما تقدم من قوله : "يسألك أهل الكتاب" مسوق مساق بيان تعنتهم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، ووصحة نسبة القرآن إلى الله تعالى ، فكان هذا المعنى يستلزم أنهم يأبون الشهادة بصدق الرسول ، وأن ذلك يحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فجاء الاستدراك بقوله : "لكن الله يشهد" فإن الاستدراك تعقيب الكلام برفض ما يتوهم ثبوته أو نفيه" (٣) .

هذا بعض مما تحدث عنه القرطبي - رحمه الله - عن الحذف بالأنواع التي سبقت دراستها .

(١) النظم القرآني ص ١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبي ١٩/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٥/٤ .

## ب- التقديم والتأخير :

مما يؤثر في التركيب للجملة التقديم والتأخير ، فمجيء الكلمات بترتيب معين له دور كبير في الدلالة للجملة ، وإن الكلمة لتأخذ أهميتها من تقديمها أو تأخيرها يقول الإمام عبد القاهر عن باب التقديم والتأخير : "باب كثير الفوائد، جم المحاسن ،واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعراً يروك ، ويلطف لديك موقعه ثم ننظر فنجد سبب أن راقك ، ولطف عندك أن قدم في شيء ، وحول اللفظ عن مكانه إلى آخر" (١) . إضافة إلى أنه "سبيل من سبل النظم إلى نقل المعاني كما هي مرتبة في ذهن المتكلم بحسب أهميتها عنده، فيكون صورة صادقة لإحساس المتكلم ، وصدق مشاعره . والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي فتصوره بألفاظها لتلقيه في النفس، حتى إذا ما استكملت الجملة أركانها برز المعنى ظاهراً فيه الأهم فالمهم ،فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ولكن المعنى هو الذي جعل تركيب الآية ضرورة لا معدى عنه" (٢) .

والإمام القرطبي اهتم بهذا التقديم والتأخير إلا أن موقفه من ذلك اندرج تحت اهتمامين اثنين الأول : التنبيه على وجود تقديم وتأخير وبيان أسرارها في الآية الكريمة . الثاني : الاكتفاء بالإشارة إلى وجود هذا الأسلوب في الآية الكريمة متخذاً ذلك وسيلة لفهم النص القرآني، وتوجيه السياق (٣) .

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٦ .

(٢) النظم القرآني ص ١٥٨ .

(٣) انظر : الاتجاه البياني ص ٦٥ .

ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ يَاكَ نَبُؤُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] . حيث يقول : "إن قيل : لم قدم المفعول به على الفعل؟ قيل له : قدّم اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم ... وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود" (١) .

وكذلك عند قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤] . قال : "من النساء بدأ بهن لكثرة تشوق النفوس إليهن لأنهن حبايل الشيطان وفتنة الرجال" (٢) . كما أن "الميل إلى النساء مركز في الطبع وضعه الله تعالى لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل إذ المرأة هي موضع التناسل" (٣) .

فالإمام القرطبي نظر إلى تقديم النساء لهذا المعنى العميق في الطبائع البشرية ، مما يجب الوقوف عند حدود الزينة من ذلك ؛ لأن المعنى من الزينة كما يذكر القرطبي يعني تزيين الله عز وجل أو ما يلقيه الشيطان من حديثه ومعصيته ، والآية تحتمل الاثنين ففيها الوعظ (٤) .

وقريب من هذا ما ذكره عن سر التقديم في قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ ﴾ [سورة النور : ٢] : "قدمت الزانية في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنا النساء فاشياً ، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات وكن مجاهرات بذلك ، وقيل : لأن الزنا في النساء أعز وهو

(١) تفسير القرطبي ١/١٤٥ ، وراجع الآية في : الحديث عن القصر .

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٣/٣٩ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٤/٢٨ .

لأجل الحبلى أضر ، وقيل : لأن فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله ،  
وأيضاً فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن الحجب والصيانة فقدم ذكرهن  
تغليظاً واهتماماً ... وقيل : لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب تصدرها  
تغليظاً لتردد شهواتها" (١) .

فالقرطبي هنا يلامس عدداً من الدلالات المعنوية والبلاغية بدءاً بالناحية  
الاجتماعية ، والخلقية ، والتربوية ، وانتهاء بالدوافع النفسية والفطرية ، حيث إن  
"المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها الرجل يحصل الزنى ولو منعت  
المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكيناً ، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد  
في تحذيرها" (٢) .

فقد اقتضت الحكمة الإلهية تقديم الأهم فالأهم فقدم النساء على البنين  
لما يظهر فيهن من قوة الشهوة ونزوع الطبع وإثارهن على كل محبوب ،  
وقدم البنين على الأموال لتمكنهم في النفوس واختلاط محبتهم بالأفئدة (٣) .

ويقارن القرطبي بين الآية السابقة وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ  
فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة  
: ٣٨] ، فيقول : "بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة ، وفي الزنى  
بالزانية قبل الزاني ما الحكمة في ذلك ؟ الجواب أن يقال : لما كان حب المال  
على الرجل أغلب وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدء بهما في  
الموضعين" (٤) .

(١) تفسير القرطبي ١٦٠/١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١١٨/١٨ .

(٣) انظر : كتاب الطراز: ليحيى بن حمزة العلوي ، مكتبة المعارف، الرياض ، ٦٣/٢ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧٥/٦ ، وانظر : الاتجاه البياني ص ٦٨ .



ويذكر القرطبي أهمية التقديم في الدلالة على المعنى ، ولفت النظر إلى ذلك المتقدم وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَيُظَلِّمَنَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٍ أُحْلَتْ لَهُمْ ﴾ [سورة النساء : ١٦٠] . حيث يقول : "وقدم الظلم على التحريم إذ هو الغرض الذي قصد إلى الإخبار عنه بأنه سبب التحريم" (١) .  
فالتحريم إنما جاء بسبب هذا الظلم الذي يمنع الإنسان من الخير ، فكأن هذا التقديم قد لفت الاهتمام إلى هذا الظلم ، لأنه ذنب عظيم فهو سبب كبير وأصيل في الحرمان "التحريم" .

ومن لطيف إشارات القرطبي لأهمية التقديم ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة النساء : ٢٥] : "وقيل في الكلام تقديم وتأخير المعنى : ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فليُنكِحَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُحْصَنَاتِ فليُنكِحَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ : هذا فتاة هذا ، وهذا فتاة هذا . فبعضكم على هذا التقدير مرفوع بفعله وهو فليُنكِحَ ، والمقصود بهذا الكلام توطئة نفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة وتعييره وتسميه المهجين فلما جاء الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنى له" (٢) .

فهي إشارة منه إلى التعديل النفسي الذي مارسه القرآن الكريم تجاه عادات العرب ، فقد قرب إليهم الإماماء من جانب الوحدة الدينية ، ثم قربهن إليهم من جانب الوحدة النوعية وهو أن الأحرار والعبيد كلهم من بني آدم !! (٣) .

(١) تفسير القرطبي ١٢/٦ .

(٢) تفسير القرطبي ١٤١/٥ .

(٣) انظر : التحوير والتنوير ٩٣/٤ .

ويذكر الإمام الزركشي دواعي التقديم ومنها : لعظمته والاهتمام به ، وذلك أن من عادات العرب الفصحاء إذا أخبرت عن شيء فإنهم يقدمون الذي شأنه أهم لهم <sup>(١)</sup> .

وقد يكون من دواعي التقديم بيان الحالة الملتبسة بالموصوف ، وذلك أدل على لزوم تلك الحالة ، وتلك الصفة فعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ [سورة المائدة : ٦١] . يقول القرطبي : "هذه صفة المنافقين ، والمعنى أنهم لم ينتفعوا بشيء مما سمعوه ، بل دخلوا كافرين وخرجوا كافرين" <sup>(٢)</sup> . إن القرطبي يذكر أن هذا التركيب بما فيه من التقديم هو يفيد تلك الحالة المتلبسين بها حقيقة وهي حالة الكفر التي يحملونها عند دخولهم ، وعند خروجهم فهم "يزعمون الإيمان وقلوبهم ونفوسهم تمتلئ بالكفر ، وهي تصور هؤلاء المنافقين حين يدخلون على المؤمنين أو حين يأتون إليهم فيقولون بأفواههم آمنة وهو قول ضعيف واه لا يتجاوز ألسنتهم ، وتبين الآية أنهم قد دخلوا بالكفر ، فالكفر مستقر في قلوبهم ، ولهذا سبق الفعل الماضي (بقد) التي للتحقيق وهم حين خرجوا من عند المسلمين ازدادوا كفرًا كما يكشف عن ذلك التوكيد الشديد (بقد) التي للتحقيق والبدء بالمسند إليه وهم قد خرجوا به" <sup>(٣)</sup> ، فكأنهم لا يزيدهم الدخول وسماع الحق إلا ضلالًا وانحرافًا !!

(١) انظر : البرهان ١٥٠/٣ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٧/٦ .

(٣) بلاغة التراكيب ص ١٢٣ .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٧] . يقول : "شاخصة أبصار الذين كفروا" على تقديم الخبر على الابتداء أي أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم أي من هوله لا تكاد تطرف" (١) . فالقرطبي يذكر فائدة تقديم الخبر وهو كون هذه الأبصار التزمت الشخوص لا تتعداه إلى غيره من الحيرة أو الازورار (٢) . وكما يقول سيد قطب رحمه الله : "يقدم في التعبير كلمة شاخصة لترسم المشهد وتبرزه" (٣) .

وينظر القرطبي إلى التقديم وفائدته في الأحكام فعند قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لِيُذْخِرَ اللَّهُ لَكُمْ فِي الْحَجِّ أَجْرًا قَلِيلًا ﴾ [سورة الحج : ٢٧] : "ولما قال تعالى : "رجالاً" وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الرجل أفضل من حج الراكب" (٤) . لأن المشقة في المشي أكبر والجزاء على قدر العمل ، وكان بعض الصحابة يود أنه حج راجلاً، لما في ذلك من جزيل الثواب (٥) . كما ذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه (٦) .

وعند تقديم الوصية على الدين في قوله تعالى : ﴿ مَنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي قُتُوبًا ﴾ [سورة النساء : ١٢] . يذكر الإمام القرطبي وجوهاً

(١) تفسير القرطبي ٣٤٢/١١ .

(٢) انظر : بلاغة التراكيب ص ١٣١ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٣٩٨/٤ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٩/١٢ .

(٥) انظر : بلاغة التراكيب ص ١٣٦ .

(٦) انظر : تفسير القرطبي ٣٩/١٢ .

لسبب التقديم حيث يقول : "الجواب من أوجه خمسة : الأول : إنما قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث ، ولم يقصد ترتيبهما في أنفسهما ، فكذلك تقدمت الوصية في اللفظ ، جواب ثانٍ : لما كانت الوصية أقل لزومًا من الدين قدمها اهتمامًا بها ... جواب ثالث : قدمها لكثرة وجودها ووقوعها فصارت كاللازم لكل ميت مع نص التشريع عليها ... جواب رابع : إنما قدمت الوصية إذ هي حظ مساكين وضعفاء ، وآخر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان ، وله فيه مقال . جواب خامس : لما كانت الوصية ينشأها من قبل نفسه قدمها ، والدين ثابت ذكره أو لم يذكره" (١) .

فالقرطبي هنا يذكر أوجهًا بلاغية لذلك التقديم ، لكنه في الجواب الأول ينظر من النظرة النحوية التي تجعل من معاني "أو" الجمع المطلق كالواو قاله الكوفيون والأخفش والجرمي (٢) . ولذلك ذكر محي الدين الدرويش في إعراب "أو" أنها حرف عطف لإباحة الشئين (٣) . ولم يكن مقصد القرطبي أن التقديم لا فائدة بلاغية من ورائه ، كما ذكر أحد الباحثين (٤) ، بدليل أنه يردف بذكر آراء أخرى كلها تعكس الظاهرة البلاغية ، كما أن القرطبي كثيراً ما يذكر عند التوجيهات النحوية قوله ولو قال كذا لصح ذلك (٥) . وإنما يعني الصحة في التركيب النحوي لا في الدلالة والمعنى ، لأن معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف حتى ما كان منها غير لغوي ،

(١) تفسير القرطبي ٧٤/٥ .

(٢) انظر : معنى اللبيب ٦٢/١ .

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه : محي الدين الدرويش ، الإمامة ١٧٢/٢ .

(٤) انظر : الاتجاه البياني ص ٦٧ .

(٥) انظر : تفسير القرطبي ١٢/٥٦ ، ١٢٦ .

ومعنى الكلمة على هذا يتعدد تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها أو بعبارة أخرى تبعاً لتوزعها اللغوي" (١).

ولذا نجد القرطبي يفرق بين الدلالة البلاغية والجواز النحوي عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [سورة الحج : ٢٥]. حيث يقول : وجاء "ويصدون" مستقبلاً إذ هو فعل يديمونه كما جاء قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الرعد : ٢٨]. فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصد . ولو قال : إن الذين كفروا وصدوا لجاز" (٢). فهو يريد جاز في الصياغة النحوية أي عطف الماضي على مثله لأنه لا أحد يقول بجواز تغيير الكلمة في القرآن بأخرى كما أن الجواز مصطلح نحوي لا دلالي بلاغي .

ويبدو أن لفظ (الوصية) إنما قدّم تنبيهاً على أهمية الوصية وتبعتها (٣) . لأنه يغفل عنها كثيرا ، بعكس الدين الذي وردت النصوص والأحكام الشرعية بوجوب أدائه قبل قسمة الميراث (٤) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢]. يقول القرطبي : "وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فليل التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

(١) علم الدلالة : أ. د/ أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ص ٦٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٣١/١٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٩/٤ .

(٤) انظر : كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ٣١٦/٣ وما بعدها .

الْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ [سورة الحشر : ٢٠]. " وقيل قُدِّم الظالم لكثرة الفاسقين منهم ذكره الزمخشري ، ولم يذكره غيره وقيل قدم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه ... وقيل : قُدِّم الظالم لفلا يئس من رحمة الله ، وأخّر السابق لثلا يعجب بعمله ، وقيل : أحر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب " (١) .

نرى القرطبي هنا يسهب في هذه الآراء التي تتلمس الدلالة البلاغية لهذا التقديم ، وقد ذكر ابن الأثير أن تقديم الظالم لنفسه للإيدان بكثرتة ، وأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصد به ؛ لأنه قليل بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل ، ثم يميز ابن الأثير عكس ذلك ؛ لأن هذه مختصة بصفة معينة (٢) .

ولكن التقديم له دوره في الدلالة ؛ لأن الجميع من المصطفين ، فهو تفصيل لمراتبهم وقدم " في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلا لمسرتة " (٣) .

هذا حديث القرطبي عن التقديم والتأخير وكما رأينا فقد كانت له ملاحظاته الدقيقة في تلمس مواطن البلاغة .

\*\*\*\*\*

(١) تفسير القرطبي ١٤/٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) انظر : المثل السائر ٢/٢٥٣ ، وبلاغة التراكيب ص ١٣٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/١٦٤ .

## هـ - خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (الالتفات) :

لعل من أهم ما درسته البلاغة العربية خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ولعل هذا الجزء من البلاغة هو الأهم ووثيق الصلة بالعمق الدلالي والأسلوبي لاستعمال اللغة الأدبية ، وذلك أن الظاهرة اللغوية في ذاتها مصب جدولين ونقطة تقاطع محورين : أولهما: الجدول "النفعي" وهو الجدول الخادم إذ مداره وضع اللغة الأولى وهو الأصل بالذات والزمن ، وثانيهما الجدول العارض وهو الجدول المخدوم إذ محوره وضع اللغة الطارىء ، هذان المظهران كلاهما واقع لغوي ... وما يميز الخطاب الأدبي هو كونه تأليفاً لجدولي القضايا والنقائض في الظاهرة اللغوية <sup>(١)</sup> . وهذا ما يجعل خلاف مقتضى الظاهر أو "الانزياح" ذا دور بارز في تجسيد البعد الدلالي للمادة اللغوية . فإذا كان الاستعمال اللغوي المباشر يتمثل من خلاله المعنى المركزي ، أو الأساس أو التصوري فإن هناك ما يسمى بالمعنى الإضافي أو العرضي ، وهو الذي يملكه اللفظ من معنى زائد على المعنى التصوري ، وهذا المعنى الزائد ليس له صفة الثبوت والشمول ، بل هو متغير بتغير الثقافة والزمن <sup>(٢)</sup> .

كما أن التركيب اللغوي يتجاوز أداءه النفعي إلى معنى آخر إيجائي ، وقد يكون على خلاف ما يراد منه في ظاهر الخطاب . ولذا يمكن القول إن

(١) الأسلوبية والأسلوب ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) انظر : علم الدلالة ص ٣٧ وما بعدها .

الانزياح ، أو خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يعد سر الإبداع والجذب والأسر ، وهو أيضاً يفصل بين الكلام الفني وغير الفني (١) .

وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر له صور كثيرة في الدراسات البلاغية منها وضع المضمرة موضع المظهر والعكس ، ومنها الالتفات ، والتغليب والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وعكسه إلى غير ذلك من الصور وكل ذلك لاقتضاء الحال (٢) .

ويعد الالتفات من أهم وجوه خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . والالتفات من لفت الشيء لفتاً : لواه على غير وجهه وصرفه ذات اليمين ، وذات الشمال ، وصرفه عن رأيه ومنه الالتفات والتلفت (٣) .

قال الزمخشري : التفت إليه وتلفت قال :

تلفت نحو الحي حتى وجدتهني ٠٠ وجعت من الإصغاء ليتها وأخذعا (٤)

ومن هذا المعنى اللغوي تأتي التسمية لمصطلح الالتفات لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من غائب إلى حاضر، أو من فعل الماضي إلى مستقبل ، أو من المستقبل إلى الماضي، وغير ذلك (٥) .

---

(١) انظر : الانزياح ص ٧ .

(٢) انظر : المطول ص ٢٨١ ، والإيضاح ص ٤٢ - ٤٨ ، وانظر : البلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين ٥٤٠/١ .

(٣) انظر : القاموس المحيط "لفت" ، والمعجم الوسيط "لفت" .

(٤) أساس البلاغة ص ٥٦٨ .

(٥) انظر : المثل السائر ١٨١/٢ ، والبلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين ٥٤٠/١ .



وقد سماه ابن الأثير "شجاعة العربية" وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام ... واللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات <sup>(١)</sup> ، وقد شكك د/ توفيق الفيل في هذا الاختصاص لأن الأمر يحتاج إلى دراسة كل اللغات لإدراك ذلك <sup>(٢)</sup> .

ولكن إذا سلمنا بأن الالتفات جزء من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وهو ما يسمى في الدراسات الحديثة بالانزياح كما يقول د /حامد الربيعي <sup>(٣)</sup> . فإن اللغات الأخرى قد عرفتته ، بل إن مفهومه قديم يرتد في أصوله إلى أرسطو ، وإلى ما تلا أرسطو من بلاغة ونقد <sup>(٤)</sup> .

ويبدو أن الزمخشري هو الأسبق إلى الحديث عن هذا الفن حيث تكمن أهمية هذا الفن في أنه أحد طرق الافتنان وهو أسلوب لجذب الانتباه وإيقاظ النفس وتحريكها لقبول ما يلقي إليها <sup>(٥)</sup> .

وقد كثر هذا الأسلوب في القرآن الكريم ، ومن ثم في الدراسات القرآنية "فالتأمل لسور القرآن يلاحظ شيوع هذا الأسلوب في الآيات ، وتلك الآيات غنية بالأسرار البلاغية والنكات، وقد كثر بجيئها -وأعنى المخالفة - على وجه الخصوص فيما يتصل بالوعد والوعيد واليوم الآخر ، وفي مواطن الترغيب والترهيب ، حيث تبرز قدرتها على اختزال العبارة وتكثير

---

(١) انظر : المثل السائر ١٨١/٢ .

(٢) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٧٩ .

(٣) انظر : مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ص ٥٨٠ .

(٤) انظر : الانزياح ص ٨١ وما بعدها .

(٥) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٨٠ ، الكشف ٦٢/١ وما بعدها .

المعاني" (١) . ورسم الصورة المتحركة الماثلة لمظاهر من اليوم الآخر ، أو رسم صورة من دقائق النفوس البشرية .

ومن هذه الأهمية نجد القرطبي - رحمه الله - قد تحدث عن هذا الفن وكثيراً ما يتسع عنده ليشمل العدول من الخطاب إلى الغيبة أو العكس ، والانتقال من المثني إلى الجمع والعكس ، والانتقال من فعل الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي أو غير ذلك (٢) .

ويشير إلى ما وراء ذلك من أغراض بلاغية إما جمالية لفظية أو دلالات معنوية فعند قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٢] . يقول : "وسيقول" بمعنى قال ، جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك ، وأنهم يستمرون على هذا القول" (٣) .

والقرطبي هنا ينظر إلى تأويل المضارع إلى الماضي على وجه ، أما الزمخشري فنجده ينظر إلى (سيقول) على أنه جاء قبل حدوث الفعل في قوله : "فإن قلت أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه ؟ قلت فائدته أن مفاجأة المكروه والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أفضح للخصم وأرد لشغبه" (٤) .

يلحق الطاهر بن عاشور على كل ذلك بقوله : "والأولى بقاء السين على معنى الاستقبال إذ لا داعي إلى صرفه إلى معنى المضي ... وإذا كان

(١) بلاغة القرآن الكريم دراسة في أسرار العدول في صيغ الأفعال ص ٥ .

(٢) النظم القرآني في تفسير القرطبي ص ١٦٨ .

(٣) تفسير القرطبي ١٤٧/٢ - ١٤٨ .

(٤) الكشاف ٣١٧/١ .

الذي دعاهم إلى ذلك ثبوت أنهم قالوا هذه المقالة قبل نزول هذه الآية وشيوع ذلك كان لتأويل المستقبل بالماضي وجه وجيه" (١) .

ولعل التحقيق في ذلك "أن يجعل الفعل المضارع شبيهاً بالماضي في التحقيق فيؤول المضارع بالماضي ، وهنا يتضح الفرق بين تحقيق الفعل المراد من استعمال المضارع مقترناً بالسين دالاً على المستقبل ، وتحقيق الذي تلبسه المضارع من اقترانه بالسين مشبيهاً بالماضي الذي يفيد التحقيق مقترناً بقدر" (٢) .

ولاشك أن في استعمال المضارع ما يوحي بأن ما قالوه كان مقدرًا أمره معروفة خطته ، ومعدة إجابته ، وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً وأكثر زجراً لهم (٣) ولمن يحدث نفسه بمثل هذه التساؤلات التي لا تنقطع في كل زمان ومكان حول تشريعات الإسلام .

ويهتم القرطبي بنقل الأقوال في الالتفات ، وإعطاء رأيه في ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَمْنُونٍ ﴾ [سورة فاطر : ٩] . قال : "فسقناه بعد أن قال : والله الذي أرسل الرياح فتثير .... وهو من باب تلوين الخطاب ، فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية" (٤) ، ونلاحظ تأثير الزمخشري على القرطبي في تأويل الآية ، ونص القرطبي على ذلك (٥) .

(١) التحرير والتنوير ٧/٢ .

(٢) بلاغة القرآن الكريم ص ١٥٥ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ١/١٣٠ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٥/١٤ .

(٥) انظر : السابق ٣٥/١٤ .

فالقرطبي هنا ينطلق في شرحه لقيمة الالتفات في الآية من منطلق سياقي ليرز أثر هذا الفن التعبيري دلاليًا ونفسيًا، ويدخل في بلاغته ما يتعلق بالانتقال بين الأزمنة .

وتحت اهتمام القرطبي البلاغي في هذا الجانب يسجل ملاحظات ذات أهمية في هذا الباب من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتَ فِي الْفُلِّ وَجَرَّتْ بِرِيحٍ طَبَّيْءٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٢] . يقول : "خروج من الخطاب إلى الغيبة وهو في القرآن وأشعار العرب كثير قال النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند . . أقوت وطال عليها سالف الأمد

قال ابن الأنباري : وجائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ

المواجهة بالخطاب ، قال الله تعالى : ﴿ وَسَقَمْتُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝١١ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝١٢ ﴾ [سورة الإنسان : ٢١ - ٢٢] <sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من أن القرطبي لم يصرح بفائدة هذا التحول البعيد ، أي من الخطاب إلى الغيبة ، فلا غرو أن هذا الأسلوب أعطى دلالة بلاغية هي أن "هذا التحول يذكر حالهم لغيرهم ليحمله يتعجب من صنيعهم ، وكأنه يخاطب كل عاقل ويخبره بهذا النكران الشنيع لينفره منه ، ويجعله يستنكره ويستقبحه" <sup>(٢)</sup> ، ويذكر الإمام أبو السعود أن هذا الالتفات مؤذن بالإعراض عنهم <sup>(٣)</sup> ، وإبعادهم ، والحذر من طريقتهم .

(١) تفسير القرطبي ٣٢٥/٨ .

(٢) بلاغة التراكيب ص ٢٨٧ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ٦٤٩/٢ .

كما نجد القرطبي يدلي برأيه في الغرض من أسلوب الالتفات ويفسر التركيب تفسيراً مغايراً لتفسير مَنْ قبله ،ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ ﴾ [سورة عبس : ١-٣] "عبس وتولى" بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيماً له ، ولم يقل: عبست وتوليت ، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال : "وما يدريك" (١) .

"هذا الذي ذكره الإمام القرطبي - رحمه الله - هو غير ما فهمه العلماء من غاية هذا الالتفات . فالزمخشري - رحمه الله - وتابعه الرازي يذكر أن الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه دليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانبا جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة .

إن كلا المعنيين يمكن أن يفهما من الالتفات وهو صنيع الإمام الألويسي في تفسيره (٢) ، إلا أن حمله على المعنى الذي ذكره القرطبي أليق بمقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا العتاب لا يعدو كونه رفعاً بمثلته النبوية (٣) . كما أن في هذا الالتفات "لم يشأ الله أن يفتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام فوجهه إليه على أسلوب الغيبة، ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنى من ضمير الغائب ، فلا يفاجئه العتاب وهذا تلتطف

(١) تفسير القرطبي ٢١٣/١٩ .

(٢) انظر: الاتجاه البياني ص ١١٠ .

(٣) انظر : أسماء السور وفضائلها ص ٤٨١ .

من الله برسوله - صلى الله عليه وسلم - ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً" (١) .

كما أنه لا يمكن قياس خطاب الله عز وجل على خطاب المخلوق كما فعل الزمخشري - رحمه الله - بحال من الأحوال .

وقريباً من هذا ما ذكره القرطبي عن قيمة الالتفات من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ [سورة الطلاق : ١] : "الخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم -خوِّط بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً" (٢) .

كما أن في ذلك إشارة إلى أنه للناس عامة ، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم -هو المؤدي عن الله إليهم (٣) .

ومثل ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ ﴾ [سورة هود : ١٤] . قال : " ولم يقل لك . فقيل : هو تحويل المخاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً .. وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب الجماعة " (٤) .

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٣٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٤٨/١٨ .

(٣) انظر : شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بين تصوير الوحي وتصورات الدارسين : د/سعيد المغناوي ، دار ابن حزم ٢٠٨/١ .

(٤) تفسير القرطبي ١٣/٩ .

وقد لا يقف القرطبي عند معنى الالتفات طويلاً مع أهميته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل : ٨٧] . يكتفي بقوله : "كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فرعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ، لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع" (١) .

وفزع هنا "لا يمكن أن يراد به المعنى لمنافاته" ينفخ "الذي هو مستقبل في الواقع في الإرادة ، ويحتمل أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعقهم ماض عن زمن النفخ على سبيل المبالغة" (٢) .

ويقرر القرطبي جواز الانتقال في الالتفات إذا اتضح المعنى ، وزال الإشكال (٣) . كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٩] . قال : "أي فكان والمستقبل يكون في موضع المعنى إذا عرف المعنى" (٤) .

فحمل الماضي على المضارع هنا لاستحضار الصورة في تكوينه ، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى (٥) .

ويتحدث القرطبي عن نوع آخر من الالتفات ، وهو الإظهار في موضع الإضمار ونجده يُعنى بذلك عنايةً كبيرة ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) السابق ٢٤١/١٣ .

(٢) بلاغة القرآن ص ٨٣ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ١٠٣/٤ .

(٤) السابق ١٠٣/٤ .

(٥) انظر : الكشاف ٤٣٣/١ .

رَجَزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ [سورة البقرة : ٥٩] . حيث يقول :  
"كرر لفظ "ظلموا" ولم يضمه تعظيمًا للأمر والتكرير يكون على ضربين :  
أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام كما في هذه الآية ، وقوله : "فويل للذين  
يكتبون الكتاب بأيديهم " ثم قال بعد ذلك "فويل لهم مما كتبت أيديهم " ،  
ولم يقل مما كتبوا ، وكرر الويل تغليظًا لفعالهم ومنه قول الخنساء :

تعرفني الدهر فهشًا وحزًا .. وأوجعني الدهر فزعًا وغمزًا  
أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتهما .

والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمرة قبل أن يتم  
الكلام ، كقوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة " كان القياس - لولا ما أريد به من  
التعظيم والتفخيم - ما هي ؟ .. " (١) .

القرطبي هنا يستغل الالتفات للحديث عن نوع التكرار إلا أن هذا  
الذكر لا ينحصر في كون ذلك للتعظيم والتفخيم ، ويبدو أن هناك معانٍ  
أخرى بلاغية وإشارات نفسية تكمن وراء ذلك ، ويلمح الزمخشري في الآية  
السابقة إلى سر الذكر في "ظلموا" حيث يقول : "زيادة إلى تقييح أمرهم  
وإيدان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم" (٢) .

وينسج القرطبي على منوال الزمخشري عند الآية الثانية حيث يقول :  
"وقيل فائدة "بأيديهم" بيان لجرمهم ، وإثبات لجاهرتهم ، فإن من تولى الفعل  
أشد موافقة ممن لم يقله ، وإن كان رأيًا له . وقال ابن السراج "بأيديهم"

(١) تفسير القرطبي ٤١٦/١ .

(٢) الكشف ٢٨٣/١ .



كناية عن أنه من تلقائهم دون أن يترل عليهم وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم" (١) .

كما أن من فائدة ذكر "بأيديهم" "تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها وأهم في ذلك عامدون قاصدون" (٢) .

وبهذا ندرك أن معاني الالتفات تترى وتتكاثر في أسلوب هو قمة البيان ودلالة الإعجاز (٣) .

\*\*\*\*\*

---

(١) تفسير القرطبي ٩/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٩/١ .

(٣) لمزيد من أمثلة الالتقاط . انظر : تفسير القرطبي ١٤٥/١ ، ٣٠/٢ ، ٣١/١٢ ، ٣٩/١٤ .

**الفصل الثاني**  
**بلاغة التراكيب في بناء الجمل**  
**في تفسير القرطبي**

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : الوصل والفصل .

المبحث الثاني : الإيجاز والإطناب .

## المبحث الأول الوصل والفصل

ويشتمل على :

- أ - الوصل والفصل عند البلاغيين .
- ب - الوصل والفصل عند القرطبي .

## أ- الوصل والفصل عند البلاغيين :

إن حديث البلاغة العربية عن بلاغة تركيب الجملة بما في ذلك الجملة الخبرية والإنشائية ، وجملة القصر إنما هو خطوة أولى للحديث عن العلاقة بين الجمل ، بما يجر بعد ذلك إلى بناء النص الأدبي عن طريق " وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة " (١) ، وهذه العلاقات تكون داخلية لغوية ، أو خارجية مؤثرة في بناء النص .

فالبناء اللغوي الداخلي يتمثل في الترابط بين أجزاء النص وهو يتمثل في " البنية الكبرى المتحققة بالفعل وهي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام والتماسك " (٢) .

وهذه البنية الكبرى يمكن تحليلها إلى بني جزئية لغوية، وغير لغوية ، لكن البناء اللغوي هو الأقدر في ذلك التماسك .

وبناء الجمل وتماسكها لغوياً يقود إلى بناء نصي مترابط ومتماسك داخلياً وخارجياً . ومن هنا جاء الاهتمام بالفصل والوصل بين الجمل ؛ لأنه كما يقول الإمام السبكي : " من أعظم أبواب هذا العلم - يعني البلاغة - لعظم خطره وصعوبة مسلكه ، ودقة مأخذه " (٣) .

ولقد نقل الجاحظ قول الفارسي عندما قيل له ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل (٤) .

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص ص ٢٩٣ .

(٢) السابق ص ٣٠٤ .

(٣) عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ٤٧٩/١ .

(٤) انظر : البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ٨٨/١ .

وهذا الكلام العام يدلنا على مدى أهمية هذا الباب في هذا العلم ؛ لأنه كما يقول د/ الفيل : يقتضي معارف أخرى في اللغة <sup>(١)</sup> ، وهذه المعارف هي التي تجعل النص الأدبي تحت نظرة العلوم الأخرى لغوية ، واجتماعية ، ونفسية وصولاً إلى تحليله بصورة أدق .

ويعرف البلاغيون الوصل والفصل بأن الوصل : عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل تركه <sup>(٢)</sup> ، ومفهوم الجمل هنا يشمل جنس الجمل فربما لم يكن في الكلام غير جملتين <sup>(٣)</sup> .

وقد تحدث البلاغيون كذلك عن أنواع الجمل سواء أكان لها محل من الإعراب أو ليس لها محل من الإعراب . وكذلك عن أحرف العطف <sup>(٤)</sup> ، وما يهم الدرس البلاغي كثيراً هو دلالة الجمل المعنوية ، لا سيما إذا كان العطف في جمل ليس لها محل من الإعراب . فهنا يقع الإشكال في وجود ذلك الاشتراك الذي لا يمكن أن يكون في العلاقات النحوية والإعراب ، فلا بد حينئذ أن يكون هناك مغزى معنوي من ذلك <sup>(٥)</sup> .

وهذا الارتباط المعنوي وعدمه هو ما يؤثر في الوصل والفصل ، فالجملة " مع الجملة ليستا شيئاً واحداً في جميع الأحوال ، فقد يكون بين الجملتين اشتراك في المعنى فتقع الثانية من الأولى كأنها هي أو جزء منها ، فليس بينهما تغاير ؛ لأن الثانية ليست أجنبية عن الأولى . وقد يكون الأمر

(١) انظر : بلاغة التراكيب ص ١٦٣ .

(٢) انظر : الإيضاح ص ٨٦ ، والمطول ص ٤٣٤ ، وعروس الأفراح ١/٤٧٩ .

(٣) انظر : عروس الأفراح ١/٤٧٩ .

(٤) انظر : السابق ١/٤٨٠ وما بعدها .

(٥) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٢٣ .

على العكس من ذلك فنجد بين الجملتين تغييراً تاماً لا تمت إحداهما إلى الأخرى بأي نسب أو رابطة من حيث المعنى أو من حيث الصورة اللفظية ... وهنا نوع ثالث من الجمل نجده وسطاً بين النوعين السابقين ، ففي هذا النوع - نجد - تغييراً ومع هذا التغير روابط وصلات ومعنى مشتركاً أو جامعاً " (١) .

فالبعد المعنوي هو الداعي في هذا الباب . كما أن إشكال الواو هو كونها لمجرد الاشتراك في الحكم دون فائدة أخرى كالترتيب من غير تراخ كما في "الفاء" ، والترتيب مع التراخي كما في "ثم" . أما الواو فهي ليس لها سوى الإشراف في الحكم (٢) .

ومن هنا أصبحت دلالة التركيب تلعب دوراً في الفصل والوصل ، كما أن ما يحيط بالتركيب من مؤثرات خارجية له كذلك دور في توجيه الفصل والوصل . ويؤكد د/ تمام حسان أن قضية الفصل والوصل من المفترض أن تتجاوز هذه الحدود التي وقف عندها البلاغيون ؛ لأن الجمل في اللغة العربية تترايط بغير الواو من الأدوات ، وبغير مطلق الجمع من العلاقات

فالجملة الثانية قد تكون إضراباً عن الأولى ، أو استدراكاً منها ، أو استثناء أو غير ذلك ، ولكل معنى من هذه المعاني أدوات الدالة عليه ، وكل هذه المعاني روابط بين الجملتين ، وإن كانت روابط عن طريق السلب ،

(١) البلاغة فنونها وأفانها ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ وما بعدها ، وانظر : النظم وبناء الأسلوب في البلاغة

العربية : دكتور شفيق السيد ، دار غريب ص ٢٣٨ .

والعطف ذاته ليس مقصوداً على مطلق الجمع إذ يكون أحياناً للترتيب والتعقيب أو للترتيب والتراخي ، فالإقتصار على الواو ومطلق الجمع لا مبرر له ما دامت الاحتمالات الأخرى تمثل علاقات بين الجمل " (١) .

إذن العلاقات المعنوية هي التي ينبغي أن ينظر إليها ، فليس العطف بالواو أو عدمه إلا سبيلاً من السبل الشكلية بعد الترابط الداخلي .

ومن هذا كله ندرك أن علاقة الجمل بعضها ببعض تخضع لأبعاد أخرى غير البعد النحوي ، تعود إلى الفهم للسياق والقرائن الأخرى التي تتنوع فمنها اللفظي ، والمعنوي ، والحسي ، والمعرفي ، والمادي ، والخارجي (٢) ، وكل هذه القرائن تتضافر لتفسير النص ، ولا سيما النص القرآني الكريم الذي لا يمكن أن يغفل في تناوله عن أي شيء من تلك المؤثرات التي تساعد على إدراكه بصورة أفضل لا سيما ما كان من نزوله مفرقاً حسب الحوادث ثم تكامله ليكون لحمة واحدة ونسيج وحده .

وإذا كان الفصل والوصل ذا أهمية في الدرس البلاغي فإنه في دراسة القرآن الكريم ذو أهمية كبرى ؛ لأنه يعد من مظاهر إعجازه ، حيث " تتجلى في الجملة القرآنية قوة الترابط ، والإحكام في علاقتها مع أخواتها ، وتلاؤمها مع ما قبلها وما بعدها ، فتأتي في موضعها المناسب ، وتنبئ عن حسن نظم الجمل ودقة ترتيبها وترابطها " (٣) ، حتى يظهر ارتباط كبير بين هذه الجملة وتلك ، وإن بدا في ظاهر الأمر بالآ ترابط بينها .

(١) البيان في روائع القرآن ، د/ تمام حسان ، عالم الكتب ١/٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢) انظر : البيان في روائع القرآن ١/٣٩٩ .

(٣) البلاغة القرآنية دراسة في جماليات النص القرآني ، أ.د/ أحمد درويش ، أ.د/ عزه جدوع

مكتبة الرشد ، ط ١٤٣٠ ، ص ٩١ .

فَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴿١٨٩﴾ [سورة البقرة : ١٨٩] " ففي النظرة العاجلة يبدو كأنه لا ارتباط بين أحكام الأهله وبين إتيان البيوت من ظهورها ، ولكن الربط نشأ من أن ناساً من العرب كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم بيتاً ولا خيمة ولا خباء من باب ، بل إن كان من أهل المدر نقب نقباً من ظاهر البيت ليدخل منه ، وخرج من خلف الخيمة أو الخباء إن كان من أهل الوبر . فلما تحدث القرآن عن الأهله وأنها مواقيت للحج ناسب ذلك أن يتحدث عن عاداتهم هذه في الحج ذاكراً أنها ليست من البر في شيء " (١) . ويرد الإمام القرطبي الربط بين الأهله ودخول البيوت من ظهورها إلى اتفاق وقوع القضيتين في وقت السؤال عن الأهله ، وعن دخول البيوت من ظهورها ، فترلت الآية فيهما جميعاً ، والأعجب من ذلك أنهم يلتزمون إتيان البيوت من ظهورها ، ويعدون من النسك (٢) ، وما هو من النسك والبر في شيء .

فهذا الربط بين الجمل استدعى معارف أخرى مما أدى إلى فهم النص القرآني ، وإدراك دقائقه . كما أن فهم الظروف المحيطة بالنص هو الذي وضع السر في بناء النص على هذا التركيب الذي عطفت فيه جملة على أخرى ، حيث أدى ذلك إلى تماسك الجمل المتتاليات فكانت نصاً متماسكاً (٣) .

(١) من بلاغة القرآن ، د/ أحمد بدوي ، فحضة مصر ص ١٣٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢/٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٣) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ص ٣٠٥ .



وفي قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الانفطار : ١ - ٤] ، يلمح القرطبي إلى أن الرابط بين هذه الجمل هو معناها الكلي ، وهو الحديث عن حوادث الساعة <sup>(١)</sup> ، ربطت هذه الجمل " لما كانت تلك المظاهر من أمارات القيامة ، وما أقوى الصلة بين السماء تنشق والكواكب تنتثر لا نظام يجمعها ولا جاذبية تحفظها في مكانها ، وما أقوى الصلة أيضاً بين تفجر البحار فتطغى مياهها ، وبعثرة القبور فتخرج ما دفن فيها من الموتى ، فكأنها تتفجر كذلك " <sup>(٢)</sup> .

كما أن قضية الفصل والوصل تخضع لمؤثرات أخرى أوسع لتكون مؤدية لبناء نصي ؛ لأن علم النص " يهتم بمبدأ الترابط بين مكونات النص سواء في ذلك من ناحية الترابط الوصفي للألفاظ أو الترابط المفهومي للأفكار " <sup>(٣)</sup> .

ولذا يقرر البلاغيون أن الوصل يكون بين الجمل لجامع بينها . وهذا الجامع " إما عقلي ، أو وهمي ، أو خيالي " <sup>(٤)</sup> ، ومع أنهم ركزوا على قضية نحوية " هي كون الجمل لها محل من الإعراب أو ليس لها محل من الإعراب ، إلا أن النظرة إلى النص ينبغي أن تتجاوز ذلك إلى البعد الدلالي والبلاغي ، وهو ما يسميه د/ تمام حسان بالعلاقات بين الجمل وهي علاقات قد تكون واضحة أو عرضة للاحتتمالات " <sup>(٥)</sup> .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٥/٩ .

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٣٦ .

(٣) البيان في روائع القرآن ٤٠٣/١ .

(٤) علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، ص ١٦٥ .

(٥) انظر : البيان في روائع القرآن ٤٠٤/١ .

وهذه العلاقات هي التي تثري بناء الجمل ، كما في أسلوب الشرط ،  
 في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا  
 مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء : ١١٢] .

يقول الإمام عبدالقاهر معلقاً على هذه الآية : " والشرط كما لا يخفى  
 في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد ... ثم إنا نعلم من  
 طريق المعنى أن الجزاء الذي هو احتمال البهتان والإثم المبين أمرٌ يتعلق إيجابه  
 لمجموع ما حصل من الجملتين ، فليس هو لاكتساب الخطيئة على الانفراد ،  
 ولا لرمي البريء بالخطيئة أو الإثم على الإطلاق " (١) .

" وإنما قاس الجرجاني هذا النوع من العطف على الشرط ، والجزاء ؛  
 ليظهر الطبيعة المركبة لعطف المجموع على المجموع ، واحتياج هذا إلى ذلك  
 لكي يتم الكلام ، ويستقيم المعنى ، ويتضح تماسك الخطاب بمراعاة طبيعة  
 التركيب هذه ، وتوقف المعنى عليها " (٢) .

ومن هنا فإن أهمية العلاقة تلك هي التي تجعل من الجمل لحمة واحدة ،  
 ولو اختلفت خبراً ، وإنشاءً .

فالعطف يُنظر فيه إلى المعنى ، حيث إن الجملة قد تكون إنشائية معنى  
 خبرية لفظاً ، ولذا يعلق سعد الدين التفتازاني على تقدير الزمخشري في قوله  
 تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهََ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي  
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
 ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٣] ، بأن

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٦ .

(٢) لسانيات النص ص ١٠٦ .

"لا تعبدون" إخبارٌ في معنى النهي ، كما تقول : "تذهب إلى فلان" تقول له هذا تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر ، والنهي ؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال ، والانتهاء ، فهو يجبر عنه " (١) ، يُعلّق السعد بقوله : " هذا دقيق حسن " (٢) .

مع هذا نجد الإمام السبكي يمنع ذلك مطلقاً ، حيث يقول : " واعلم أن الخبر والإنشاء المتمخضين لا يعطف أحدهما على الآخر ، فيجب الفصل بلاغة وأما لغة فاختلفوا فيه ، ثم يؤكد بعد ذلك " أن أهل هذا الفن متفقون على منعه وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين ؛ لأنه عند من جوزه يجوز لغة، ولا يجوز بلاغة " (٣) .

ويبدو أن المعيارية في اللغة أشد منها في البلاغة التي تأخذ بلطائف الكلام ودقائق التعبير وأسراره ، كما رأينا ذلك في تحليل الزمخشري ، وغيره ممن يدرك الأسرار البلاغية .

فعند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢١] يقول الطاهر بن عاشور : " وجملة " وإنه لفسق " معطوفة على جملة " ولا تأكلوا " عطفت الخبر على الإنشاء على رأي المحققين في جوازه وهو الحق لا سيما إذا كان العطف بالواو .

وقد أجاز عطف الخبر على الإنشاء "بالواو" من منعه بغير " الواو " ، وهو قول أبي علي الفارسي ، واحتج بهذه الآية كما في معنى اللبيب " (٤) وهو ما يعد رداً على كلام الإمام السبكي - رحمه الله - .

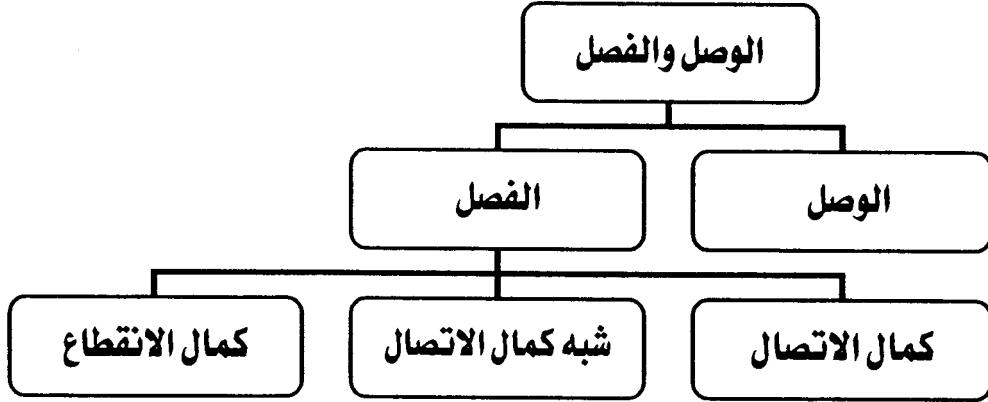
(١) الكشف ٢٩٢/١ ، ٢٩٣ .

(٢) المطول ص ٤٥٥ .

(٣) عروس الأفراح ٤٩٦/١ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٢/٧ .

أما الفصل فقد حدد البلاغيون أسباب الفصل بثلاثة أسباب كما يوضحه الشكل التالي <sup>(١)</sup> :



والمراد بكمال الاتصال : أن يكون بين الجملتين اتحاد تام عن طريق كون الثابتة توكيداً ، أو بدلاً ، أو عطف بيان . أما كمال الانقطاع فهو على العكس من ذلك أن يكون هناك تباين تام بأن تختلفا خيراً وإنشاءً ، أو لا يكون بينهما تناسب في المعنى . وشبه كمال الاتصال أن تكون الجملة السابقة كالمورد للسؤال أو المنشأ له <sup>(٢)</sup> .

ومن خلال هذا التقسيم نرى طغيان النظرة النحوية كما يقول د/ تمام حسان <sup>(٣)</sup> : والذي ينبغي التنبه له أن هذا النهج الذي يربط فن البلاغة بالصياغة النحوية بهذه الحتمية نهج " يتنافى مع طبيعة الاستعمال اللغوي " ، فلو أن الفهم ارتبط بقواعد الصياغة النحوية فحسب لفهمنا من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٢] ، أن الله تعالى ينهانا عن الموت إلا على حالة خاصة ، والمعروف أن قرار الموت والحياة ليس

(١) انظر : البيان في روائع القرآن ١/٣٩٨ .

(٢) انظر : علوم البلاغة ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) انظر : البيان في روائع القرآن ١/٣٩٨ .

بأيدينا نحن ، ولنا في هذه الحالة أن نتجاوز النظم اللفظي للآية إلى معنى آخر هو " تمسكوا بالإسلام حتى الموت " (١) .

وتجاوز التركيب النحوي هو الذي يجعل النظرة إلى الفصل نظرة أوسع فربما وجدنا جملة كان من حقها أن توصل بالأخرى لتحقيق الغرض النحوي ومع ذلك يترك هذا الوصل ، ويكون الفصل لغرض بلاغي (٢) .

ولعلّ الإمام عبدالقاهر قد تحدث عن ذلك وأفاض في الكلام عن الملامح البلاغية للفصل ، فعند قوله تعالى : ﴿ آتَىٰ ذَٰلِكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١-٢] . يقول : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بيان ، وتوكيد ، وتحقيق لقوله : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابَ ﴾ ، وزيادة تثبيت لهم ، وبمترلته أن تقول : " هو ذلك الكتاب ، هو ذلك الكتاب ، فتعيده مرة ثانية ؛ لتثبته " (٣) .

ومن ذلك -أيضا- ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٢] ، فقد فصلت ؛ " لأنها حكاية عنهم ، فلو عطف للزم عليه مثل الذي قدمت ذكره (٤) من الدخول في الحكاية ، ولصار خبراً من اليهود ، ووصفاً منهم لأنفسهم ؛ لأنهم مفسدون ، ولصار

(١) البيان في روائع القرآن ١/٣٩٩ .

(٢) لأمثلة ذلك انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٣١ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز ص ٢٣٢ عند قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهزِئُ بِرِمِّ وَيَسُدُّهُم فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥] .

كأنه قيل : قالوا : "إنما نحن مصلحون ، وقالوا : إنهم المفسدون " ، وذلك مما لا يشك في فساده " (١) . هذه نظرة الإمام عبدالقاهر الدقيقة .

وقد أفاض البلاغيون في ذكر أمثلة للفصل ، وفي أكثرها ترد إلى أسباب نحوية ، بعيدة عن الملمح البلاغي ، وراء ذلك الفصل ، وكان حديثهم عن ذلك تحت مُسمى : حالات الفصل ، ولو أنهم تحدثوا عن أغراض الفصل والوصل لكان أقرب إلى طبيعة الباب البلاغية ، وهو ما فعله الإمام عبدالقاهر حينما تحدث عن دواعي الفصل والوصل ، وأنها تخضع للمعنى ، والدلالة البلاغية .

\*\*\*\*\*

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢ .

## ب- الوصل والفصل عند القرطبي :

إن الإمام القرطبي - رحمه الله - في حديثه عن الفصل والوصل لم يهتم إلا بالعلاقات المعنوية بين الجمل والدلالات البلاغية.

ومما لا ريب فيه أن الوصل والفصل لم يأتيا إلا للربط بين هذه الجمل أو تلك ، وهو ما نجد القرطبي يشير إليه في معالجته للوصل والفصل.

فعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الانفطار : ١٣ - ١٤] يؤكد البلاغيون أن العطف هنا لاتفاق الجملتين في الخبرية ووجود مناسبة <sup>(١)</sup> . أما القرطبي فيرى هذه المناسبة أيها من باب استيفاء حق هؤلاء وهؤلاء ففي الآية كما يقول : " (تقسيم) <sup>(٢)</sup> ، كما في قوله تعالى : " فريق في الجنة وفريق في السعير " <sup>(٣)</sup> .

ويلفت النظر في هذه الآية تكرار حرف التوكيد (إن) ، وهذا للاهتمام بتحقيق كونهم في جحيم ، لا يطمعون في مفارقتها <sup>(٤)</sup> .

وعطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية له ملمح بلاغي كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥] فهنا نجد القرطبي لا يذكر ولا يتحدث عن الأمر إنما هو عنده بمرتلة الخبر المقرر سلفاً ، حيث يقول : " لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء

(١) انظر : علوم البلاغة ص ١٦٤ .

(٢) التقسيم : هو ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين .

انظر : المطول ص ٦٥٧ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩/٢٤٩ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير ٣/١٦١ .

المؤمنين أيضاً " (١) . وهذا ما ذكره الزمخشري بقوله : " فإن قلت : علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له كل من أمر أو نهي بعطف ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين " (٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۗ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۗ ﴾ [سورة الغاشية : ١٧-٢٠] . يبرز السؤال : ما وجه الصلة يا ترى بين الإبل والسماء والجبال والأرض ؟ وهل هذا العطف يوحي بصلة ما ؟ .

يذكر القرطبي هذه الصلة بعد أن يتحدث عن سر تقديم الإبل ، وأن ذلك أولى في شأن العرب (٣) ، ثم يذكر ما تجرّه العلاقة بالإبل بقوله : " وهي معظم أموال العرب ، وكانوا يسرون على الإبل متفردين مستوحشين عن الناس ، ومن هذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر إلى مركوبه ، ثم يمد بصره إلى السماء ، ثم إلى الأرض . فأمرؤا بالنظر في هذه الأشياء ، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر " (٤) .

إن الإمام القرطبي ينظر إلى هذا الوصل بين الآيات ، حيث كونت بترابطها من أشياء تبدو بعيدة صورة حية نابضة لذلك العربي في صحرائه .

(١) تفسير القرطبي ١/٢٣٨ .

(٢) الكشاف ١/٢٥٣ ، وانظر الإيضاح ص ٩٣ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ٢٠/٣٦ .

(٤) السابق ٢٠/٣٦ - ٣٧ .



وقد يحتمل الكلام الاستئناف أو الوصل ولكل بلاغته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [سورة النساء : ١١٣] .

يقول القرطبي : " - وأنزل الله .. - " هذا ابتداء كلام ، وقيل : الواو للحال كقولك جئتكَ ، والشمس طالعة ، ومنه قول امرئ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها

فالكلام متصل أي : ما يضررونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن " (١) .

والربط بينها وبين ما سبق من آيات واضح في التركيب هنا ، فهذه الجملة عطف على - وما يضررونك من شيء - ، وموقعها لزيادة تقرير معنى قوله : - ولولا فضل الله عليك ورحمته - ، ولذلك ختمها بقوله : - وكان فضل الله عليك عظيماً - ، فهو مثل رد العجز على الصدر " (٢) .

ومن دقائق الوصل ما نجده في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [سورة القصص : ٤٤ - ٤٦] ، فالجملة الأخيرة وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ " معطوفة على الجملة الأولى أي : " كما لم تحضر - الخطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين " (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٣٨٢/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥١/٤ .

(٣) السابق ٢٩٢/١٣ .

فمجموع الجمل الأخيرة من هذه الآيات معطوف على الجملة الأولى، ولا يجوز كما يقول عبدالقاهر : أن تكون جملة ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ [سورة القصص : ] ، " معطوفاً على قوله : " فتطاول عليهم العمر ، وذلك يقتضي دخوله في معنى لكن ويصير كأنه قيل : " ولكنك ما كنت ثاوياً" وذلك ما لا يخفى فساده " (١) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [سورة البقرة : ٨٣] ينقل القرطبي آراء النحاة في عطف الإنشاء على الخبر فيقول : " وقرأ أبي وابن مسعود " لا تعبدوا " على النهي ، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : وقولوا ، وأقيموا ، وآتوا " .

وقيل في موضع الحال أي أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين قاله قطرب والمبرد أيضاً ، وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحزمة والكسائي ، "يعبدون" بالياء من أسفل .

وقال الفراء والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بالألّا يعبدوا إلا الله ، وبأن يحسنوا للوالدين ، وبالألّا يسفكوا الدماء ، ثم حذف أن والياء فارتفع الفعل لزوالهما كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِي ﴾ [سورة الزمر : ٦٤] .

قال المبرد : وهذا خطأ ؛ لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً ...

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٧ .

قلت : " ليس هذا بخطأ بل هما وجهان صحيحان " (١) .  
 فالقرطبي هنا يوسع دائرة الربط بين الجمل ، فإذا جاز تقدير الحذف  
 فمن باب أولى أن يجوز عطف الإنشاء على الخبر في تأويل أحدهما بالآخر .  
 ومما وضحه القرطبي - رحمه الله - في هذا الباب بيان سر عطف جملة  
 المضارع على جملة الماضي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن  
 سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحج : ٢٥] ، وجاء " ويصدون " مستقبلاً ، إذ  
 هو فعل يديمونه كما جاء قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ  
 أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ ﴾ [سورة الرعد : ٢٨] فكأنه قال : إن الذين كفروا من  
 شأنهم الصد " (٢) .

فمجيء المضارع هنا دليل على دأبهم سواء أهل مكة أو غيرهم ، أمّا  
 هم في حقيقة لقبهم فهم كفار ، ولذلك جاء الماضي في الأولى " إن الذين  
 كفروا " (٣) .

من هذا يتضح اهتمام القرطبي بالناحية البلاغية والدلالية في الربط بين  
 الجمل وتلمس الخيوط الرابطة بينها بعيداً عن البناء الشكلي للعطف .  
 ومن هذه الدلالات البلاغية ، نجد القرطبي - رحمه الله - ينطلق من  
 الدلالة البلاغية والمعنوية للنظر إلى مواطن الفصل ، ومن ذلك عند قوله تعالى  
 : " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه " يقول : " لا ريب " نفي عام ... والمعنى :  
 أنه في ذاته حق ، وأنه مترل من عند الله ، وصفة من صفاته غير مخلوق ، ولا

(١) تفسير القرطبي ١٣/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣١/١٢ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ١٧١/١٧ .

محدث ، وإن وقع ريب للكفار ، وقيل هو خير ومعناه النهي أي : لا ترتابوا وتم الكلام كأنه قال : " ذلك الكتاب حقاً " (١) .

فالقرطبي أراد أن يوجه هذا الفصل من ناحيتين :

أولاهما : أن هذه الجملة تأكيد لماهية الكتاب (القرآن) (٢) .

وثانيهما : أنه على اعتبار اختلافهما في الخبر والإنشاء .

وكذلك يتحدث القرطبي عن مثل هذا التأكيد في قوله تعالى : ﴿ **إِنْ**

**هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴿٣١﴾ [سورة يوسف : ٣١] ، حيث يقول : " مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه " (٣) ، فإذا كان ملكاً لم يكن بشراً ولكن كونه بشراً جاء إثبات كونه ملكاً توكيداً (٤) .

ومن هذا أيضاً ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **قَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمَلَهُمْ رُؤِيَاءُ** ﴿١٧﴾ ﴿

[سورة الطارق : ١٧] فجملة " أمهلهم " تأكيد ومهّل وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل " (٥) .

فجملة " أمهلهم - إذن - توكيد للجملة السابقة ولذا فهما تمتزجان معنىً وجمع بينهما للتأكيد لقصد زيادة التسلية ، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف ومرة أخرى بالهمز لتحسين التكرير (٦) فجمعت هذه الجملة بين زيادة المعنى وزيادة الحسن في الأداء في تغيير اللفظ .

(١) تفسير القرطبي ١/١٥٩ .

(٢) هذا المعنى أشار إليه عبدالقاهر ، كما اتضح فيما سبق .

انظر : ص ١٧٥ من هذا البحث .

(٣) تفسير القرطبي ٩/١٨٣ .

(٤) انظر : علوم البلاغة ص ١٦٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٢٠/١٢ .

(٦) انظر : التحرير والتنوير ٣٠/٢٣٩ .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء : ١٣٢-١٣٣] يلفت القرطبي النظر إلى فائدة الفصل هنا متجاوزاً البدلية في الجملة الثانية .

فيقول : " واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون " أي من الخيرات ثم فسرها بقوله : " أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون " أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر " (١) . كما أن في إعادة الفعل ، والتفصيل بعد الإبهام زيادة تقرير ، وتوكيد (٢) .

ويقارن بين الفصل بين جملتين ، والوصل بينهما في موضع آخر ، ويوضح السر في ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة البقرة : ٤٩] : " يذبحون " بغير واو على البدل من قوله يسومونكم كما قال أنشده سيويه :

متى تأتتا تلمم بنا في دارنا      تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

قال الفراء وغيره : " يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : " يسومونكم سوء العذاب كما تقول : "أتاني القوم زيد وعمرو" فلا تحتاج إلى الواو في زيد ونظيره : " ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب " ، وفي سورة إبراهيم " ويذبحون " بالواو ؛ لأن المعنى يعذبونكم بالذبح وبغير الذبح، فقوله : " يذبحون أبناءكم " جنس آخر من العذاب لا تفسير بما قبله (٣) .

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٢٥ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٤/٢٢٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٤/١٣٨ .

وإذا كان الإمام عبدالقاهر قد أشار من قبل إلى أن السر في فصل جملة ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ؛ لأنها إخبار من الله ، فلا يعطف على ما هو حكاية عنهم فإن الإمام القرطبي يشير إلى أن معنى الآية أن الله ينتقم منهم ويعاملهم ، ويسخر بهم ، ويجازيهم على استهزائهم<sup>(١)</sup> ، فكان الأمر إخبار من الله لا يمكن عطفه على ما حكى عنهم كما نص على ذلك الإمام عبدالقاهر .

وقريب من هذا ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ (١٢) [سورة البقرة : ١١-١٢] .

حيث يحلل الارتباط المعنوي والتركيبي معتمداً على البنية النحوية في ذلك : " ألا إنهم هم المفسدون " ، ردّاً عليهم وتكديماً لقولهم . قال أرباب المعاني : من أظهر الدعوى كذب ألا ترى أن الله - عز وجل - يقول : " ألا إنهم هم المفسدون " ، وهذا صحيح ، وكسرت همزة إن ؛ لأنها مبتدأة قاله النحاس . وقال علي بن سليمان يجوز فتحها ... و"هم" يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره ، والمبتدأ وخبره خبر إن ، ويجوز أن تكون "هم" توكيداً للهاء .. والمفسدون خبر إن والتقدير ألا إنهم المفسدون<sup>(٢)</sup> .

ومن دواعي الفصل كذلك الامتزاج المعنوي بين الجمل كما في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢١) [سورة يس : ٢٠-٢١] : " فلما كان المراد حث المخاطبين على اتباع الرسل جاء الاتباع الثاني موضحاً لذلك

(١) انظر : تفسير القرطبي ١/٢٠٧ .

(٢) تفسير القرطبي ١/٢٠٤ .

، إذ معناه اتبعوا من لا تخسرون شيئاً من دنياكم في اتباعهم " (١) ، فلو كانوا - كما يقول القرطبي - متهمين لطلبوا منكم المال " (٢) .

وإذا كان المفسرون وقد تكلفوا التأويل في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [سورة الشرح : ٥-٦] فإن القرطبي يعطي رأيه في ذلك بقوله : " ثم ابتداءً فضلاً آخرًا " (٣) من الآخرة ، وفيه تأسية وتعزية له - صلى الله عليه وسلم - فقال مبتدئاً : " إن مع العسر يسراً " فهو شيء آخر ، والدليل على ابتدائه تعريه من فاء ، أو واو ، أو غيرهما من حروف النسق التي تدل على العطف ، فهذا وعد عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه ... أو يقال : " إن مع العسر " وهو إخراج أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة " يسراً " وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل مع عز وشرف " (٤) .

وهذا العموم الذي يريده القرطبي هو ما يحصل في الدنيا والآخرة . لا كما قال بعض المفسرين أن اليسر الثاني يسر الآخرة ، وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه (٥) ؛ لأن هذا تقسيم لا يحتمله النص القرآني الكريم فهو أوسع دلالة من تلك القسمة ، فالقول الفصل : " أن الآية الثانية تأكيد للأولى

(١) من بلاغة القرآن ص ١٣٨ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨/١٥ .

(٣) انظر إلى ذلك : تفسير القرطبي ١٠٧/٢٠ وما بعدها ، وكتاب التفسير البياني للقرآن

الكريم ، د/ عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ٦٨/١ وما بعدها .

(٤) هكذا في التفسير .

(٥) تفسير القرطبي ١٠٨/٢٠ .

(٦) انظر : التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٦ .

لتقوية اليقين النفسي وترسيخ ما منّ الله به على عبده من شرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره " (١) .

وينظر القرطبي إلى الجملتين المفصولتين نظرة واحدة يجمعهما رباط

معنوي كما في قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١) قَالُوا أَيَّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيَّذَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢) [سورة المؤمنون : ٨١-٨٢] ، حيث يقول : " ثم غيرهم بقولهم ، وأخبر عنهم أنهم قالوا .... الآية " (٢) . فالآية الثانية تفصيل لإبهام الأولى ففيه زيادة تقريع لهم (٣) ، وأنهم لا يعدون كونهم مقلدين ، قد عطلوا تفكيرهم ، وعقولهم .

وقد ذكر البلاغيون أن من دواعي الفصل الامتزاج بين الجملتين لكون الثانية جواباً لسؤال في الأولى صريح أو مقدر ، ولكنهم لم يتحدثوا عن بلاغة التركيب في السؤال والجواب . أما القرطبي فيحلل الارتباط بين جمل السؤال والجواب عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٣-٣٣] .

حيث يحلل هذا الارتباط وما فيه من تناسب في استعمال الألفاظ ، وما أجاب به موسى - عليه السلام - عن أسئلة فرعون ، وما فيها من محاولة الفوز في هذا الحوار : " فلما غلب موسى فرعون بالحجة ، ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : رسول رب العالمين . فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء .

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ٧١/١ .

(٢) تفسير القرطبي ١٤٤/١٢ .

(٣) انظر : تفسير أبو السعود ٨١/٤ .



قال مكّي وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فكذلك استفهم بـ " ما ... فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق " (١) ، وكان فرعون بسؤاله ذلك قد تعجب وأنكر أن يكون هناك إله له ميزة التفرد ، فإن من عقائدهم إتيان آلهة متفرقة ، فأتى موسى بذكر السموات والأرض وما بينهما ، وهو تعريف لحقيقة الرب ؛ لأن ذلك غاية ما تصل إليه العقول في معرفة الله أن يعرف بآثار خلقه فهو تعريف رسمي في الاصطلاح المنطقي (٢) .

ثم يتابع القرطبي تحليل العلاقة المعنوية في تركيب هذا الحوار بقوله : " فقال فرعون : " ألا تستمعون " على معنى الإغراء ، والمتعجب من سفه المقالة ، إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ، ومعبودهم والفراغة قبله كذلك . فزاد موسى في البيان بقوله : " ربكم ورب آبائكم الأولين " ، فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا ... فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : " إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون " (٣) .

وما يلفت النظر هنا - ولم يشر إليه القرطبي - هو خطاب موسى للجماعة بعد أن كان الخطاب لفرعون ، وذلك راجع إلى أن فرعون لما أعرض " عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله ، وجه موسى خطابه إلى جميعهم " (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٩٨/١٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٩/١٣٠ - ١٣١ .

(٣) تفسير القرطبي ٩٨/١٣ .

(٤) التحرير والتنوير ١٩/١٣٢ .

كما أن موسى - عليه السلام - كان ينتقي من سؤال فرعون ما يحج به ويقرره ، (قال فرعون ما رب العالمين) ، قال موسى - عليه السلام - : "رب السموات والأرض وما بينهما" "بتعيين ما أراد بالعالمين ، وتفصيله في زيادة التحقيق ، والتقرير ، وحسم مادة تزوير اللعين ، وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته" (١) .

ومن الترابط بين جملة السؤال والجواب ، ما تحمله الجملة الأولى في ثاياتها فتتشوق النفس إليه فيأتي الجواب في الجملة الثانية ، وهو ما يسمى بالاستئناف البياني .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۗ ﴾ [سورة النور : ٣٦-٣٧] "رجال" متعلق بما قبله إما تعلق إعرابي ، أو تعلق معنوي . فالتعلق المعنوي هو : أن يرتفع رجال بفعل مضمَر دل عليه الظاهر بمعنى يسبحه رجال فيوقف على هذا على الآصال ، وقد ذكر سيبويه مثل هذا وأنشد :

ليبك يزيد ضارعٌ لخصومه ومخبطٌ مما تطيح الطوائح

المعنى يبكيه ضارع ، وعلى هذا تقول : ضرب زيد عمرو على معنى ضربه عمرو "والتعلق الثاني أن يكون "رجال" مرفوع بالابتداء (٢) ، فكأن هناك سؤال من الجملة الأولى : " فكأنه قيل من المسبح ؟ فقيل : رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع . فحذف صدر هذا الكلام لقيام القرينة عليه " (٣) .

(١) تفسير أبي السعود ٢٠٨/٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٧٥/١٢ .

(٣) المطول ص ٤٥١ ، وانظر : البلاغة فنونها وأنها ص ٤٣٢ .

ويذكر الإمام عبدالقاهر أن ما جاء فيه قال مفصلاً غير معطوف  
فالتقدير أن يكون هناك سؤال مضمّر ويضرب لذلك مثلاً كقوله تعالى :  
﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [سورة الذاريات : ٢٤] جاء على  
ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال .

فلما كان في العرف والعادة بين المخلوقين إذا قيل لهم : دخل قوم على  
فلان ، فقالوا كذا .. أن يقولوا ... فما قال هو ؟ ويقول الجيب .. قال كذا  
... وكذلك : "قالوا لا تخف" لأن قوله : فأوجس منهم خيفة ، يقتضي أن  
يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره فكأنه قيل : فما قالوا  
حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة ؟ فقيل : ... "قالوا لا تخف" (١) .

ويشير القرطبي إلى شيء من هذه المعاني عند الآيات السابقة : ﴿ فَأَوْجَسَ  
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة الذاريات : ٢٨] " أي  
أحس منهم في نفسه خوفاً ، وقيل أضمر لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق  
الناس أن من تحرّم بطعام إنسان أمنه ... ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف :  
قالوا لا تخف ، وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله " (٢) .

مما سبق ندرك مدى أهمية الفصل والوصل في بناء الجمل ، ومدى  
الارتباط بينها ، كما أن القرطبي قد اعتنى بهذا البناء المعنوي بعيداً عن  
الصياغة النحوية والتقسيم المتكلف .

\*\*\*\*\*

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٤٦/١٧ .

## المبحث الثاني الإيجاز والإطناب

ويشتمل على :

- أ - الإيجاز والإطناب عند البلاغيين .
- ب - الإيجاز والإطناب عند القرطبي .

## أ- الإيجاز والإطناب عند البلاغيين :

لقد راعت البلاغة العربية كافة الجوانب المتعلقة بالكلام فاهتمت بالمفردة وموقعها ، كما اهتمت بالتركيب ودلالته المعنوية ، ولذا يعد الإيجاز والإطناب من الأبواب ذات الأهمية ، وخاصة في بلاغة التراكيب <sup>(١)</sup> .

وقد أرجع ابن الأثير أهمية هذا الباب إلى دوره الكبير في التركيب ودلالته المعنوية ، لذا نجده يقول : " والنظر فيه - يعني الإيجاز والإطناب - إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة ، بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني ، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل " <sup>(٢)</sup> .

ولعل ابن الأثير هنا يلمح إلى كافة الأحوال المؤثرة في بناء التركيب ، لذا يصعب أن يوضع له معيارية تامة ، فالإيجاز والإطناب كما يقول د/ الفيل : " من الأمور النسبية التي لا تخضع لمعيار دقيق ، ولا نجد لهما حدًا ثابتًا يمكن القياس عليه ، واعتماده في كل وقت ، وإفهما كما سبق يخضعان لطبيعة المواقف ، وضرورتها ومتطلباتها ، ومن يوجه إليه الحديث فيها " <sup>(٣)</sup> .

فالإيجاز والإطناب يعدان " خيارات تعبيرية يستخدمها الناظم حسبما يقتضي السياق " <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٤١ .

(٢) المثل السائر ٣٠٣/٢ .

(٣) بلاغة التراكيب ص ٢٤٢ .

(٤) النظم القرآني ص ١٦١ .

ومن هنا ندرك مرونة هذا الباب ، وتعلقه بظاهرة الكلام التي هي الجانب الحاضر في اللغة ، وهو الذي ينبغي أن تنظر إليه الدراسة الأدبية ؛ لأن الكلام له مقامات " متفاوتة تفاوتاً يفوق الحصر ، والأغراض تتعدد بتعدد ما يعثور النفس من أفكار وأحوال " (١) ، فلربما موقف وحال ومقام يستدعي إيجازاً ، ولو أطنب فيه الكلام لقبح ، وكذلك العكس ربما يقتضي الحال أو المقام أو الموقف إطناباً يقبح معه الإيجاز . وهذا جعل أهل البلاغة والبيان يعدون هذا الباب من الأبواب العظيمة ، حتى نقل صاحب سر الفصاحة أن منهم من قال البلاغة هي الإيجاز والإطناب (٢) .

نستطيع -إذن- أن نقول : إن الإيجاز والإطناب بما يحيط بهما من ملاسبات الموقف ، ومراعاة المقامات لا يمكن أن تفضل أحدهما على الآخر ، وما ورد في كتب البلاغة من مدح للإيجاز ينبغي ألا يكون على الإطلاق ، فإن من المواضيع ما لا يليق به أو يناسبه غير الإسهاب في القول ، والإطالة فيه ، كما تتطلب مواقف الإيجاز ويفضل فيها اللمحة الدالة ، ويحذف فيها فضول القول ، وتتطلب مواقف أخرى غير ذلك ؛ لأن الإطالة قد تكون تلبية لحاجات نفسية أو عقلية " (٣) .

وليس من بديع القول التأكيد أن الإيجاز والإطناب لهما دور كبير في البنية الأسلوبية كما في الدراسات الحديثة ، وهو بعلاقاته المتعددة داخلية وخارجية يعد ظاهرة أسلوبية ودلالية في آن واحد ، فإذا " كان الحذف -

(١) خصائص التراكيب ص ٣٠٨ .

(٢) انظر : عروس الأفراح ١/٥٧٥ ، وسر الفصاحة ص ٥٤ .

(٣) بلاغة التراكيب ص ٢٤٢ .

وهو قسم من الإيجاز - يستند إلى ترك ما هو متوقع ذكره لدى القارئ ، أو السامع ، والإطناب يرتكن إلى إيراد غير المنتظر من الألفاظ كثير بهدف تفصيل المعنى فإنهما في النهاية يمثلان ظاهرتين أسلوبيتين ، تقومان على تفجير شحنات فكرية لدى المتقبل ، بهدف إحداث صدمة لغوية عند الطرف المستقبل ، وجعل ذهنه في حالة استنفار دائم " (١) .

ولذا نجد السكاكي يشير إلى أن الإيجاز والإطناب إنما هو من كلام البلغاء ، أما أوساط الناس فإنما كلامهم لا يحمد ولا يذم (٢) ؛ لعدم رعايتهم في ذلك لمقتضيات الأحوال ، وغرضهم هو تأدية أصل المعاني بدلالات وصفية وألفاظ كيف كانت (٣) ، ولعل ذلك هو الاستعمال النفعي للغة الذي لا تتعلق به صورة من صور الأداء الفني .

أما كلام البلغاء الذين يقصرون في كلامهم الإيجاز أو الإطناب فهو ما يستحق الوقوف عنده ، ولذا تحدث علماء البلاغة عن الإيجاز والإطناب كثيراً وكان كلامهم عن المساواة نزر قليل ، وهو يعد وعي منهم بأن الإيجاز والإطناب يعدان صورة من صور العدول أو الانحراف الأدبي (٤) .

وإذا صرفنا النظر إلى القرآن الكريم فلا جرم أنه لن يخلو من هذا الباب لتلك الأهمية السالفة الذكر . ونجد ابن الأثير يتحدث في بداية حديثه عن الإيجاز والإطناب عن معاني القرآن ويقسمها تقسيماً يفهم منه أن اختلاف

(١) الأسلوبية مدخل نظري ... ص ٢٩ .

(٢) الإيضاح ص ١٠٢ .

(٣) انظر : المطول ص ٤٧٩ .

(٤) انظر : الأسلوبية مدخل نظري ... ص ٢٩ .

هذه الأقسام ، واختلاف أحوالها يتحتم معه اختلاف الأسلوب ، من الإيجاز والإطناب ، ويعيب على الذين يقصرون الإيجاز على نوع من الأدب معين ، أو الإطناب على نوع آخر ، بل إن الأمر الصحيح المسلك هو تركيب الألفاظ على المعاني مع الإيضاح والإبانة <sup>(١)</sup> ، فالمراد - إذن - هو الإبانة وإصابة الغرض سواء بأسلوب الإيجاز أو الإطناب .

ويعرف علماء البلاغة الإيجاز بأنه : أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف <sup>(٢)</sup> ، أو هو : " قصد اللفظ مع وفاء المعنى أو استثمار أقل قدر من الألفاظ في أكبر قدر من المعنى " <sup>(٣)</sup> .

وينقسم إلى إيجاز بالقصر وإيجاز بالحذف ، فالإيجاز بالحذف : ما كان بحذف مفرد ، أو جملة ، أو جمل ، وإيجاز القصر : ما لم يكن عن طريق الحذف <sup>(٤)</sup>

والإيجاز في القرآن كثير ، وهو من أوجه إعجازه وخاصة إيجاز القصر ، وقد تحدث الرماني عن هذا الوجه ، وقارن بين قوله تعالى : " ولكم في القصص حياة " وقول العرب : " القتل أنفى للقتل " مقارنة أبرزت حسن الآية وعذوبة ألفاظها ، وصحة معناها مما يلامس النفس حتى تجزم بأن بلاغة القرآن في أعلى طبقة من البيان <sup>(٥)</sup> .

(١) انظر : المثل السائر ٣٠٣/٢ وما بعدها .

(٢) انظر : الإيضاح ص ١٠٢ ، والمطول ص ٤٧٩ .

(٣) البلاغة فنونها وألفاظها ص ٤٧٢ .

(٤) انظر : علوم البلاغة ص ١٨٢ وما بعدها .

(٥) انظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٢ رسالة الرماني .



ولعل الناظر في القرآن الكريم يلحظ آيات التشريع ولا سيما في السور المدنية يغلب عليها الإطناب ، وبالجانب الآخر نلاحظ أن السور المكية لا سيما في أوائل ما نزل منها تعد أمثلة وافية للإيجاز، بنوعيه قصر وحذف ، وهذا يعود إلى الغرض منها ، " فالقرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني " (١) . إضافة إلى هذا الجانب ، وهو جانب الإيجاز ، فقد لاحظ الباحثون في الدراسات اللغوية المعاصرة تنوع تراكيب الجملة من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصره إلى الجملة المركبة الطويلة المؤلفة من عناصر متعددة بينها ترابط نظمي إلى الجملة الطويلة المسلسلة " (٢) .

وهذه الجملة الطويلة هي ما يسمى بالإطناب عند علماء البلاغة وهو : أداء المقصود بأكثر من عبارة التعارف (٣) ، أو هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة (٤) .

وقد أفاض علماء البلاغة في ذكر أغراض الإطناب وهي تربو على عشرة أغراض فهو إما للإيضاح بعد الإبهام ، أو لذكر الخاص بعد العام ، أو العكس أو لتكرير الفائدة ، وغير ذلك من الأغراض (٥) .

---

(١) النظم القرآني ص ١٦٢ .

(٢) النظم القرآني ص ١٦٣ .

(٣) انظر : المطول ص ٤٧٩ .

(٤) انظر : المثل السائر ٢/٣٩٣ .

(٥) انظر : الإيضاح ص ١١٢ وما بعدها ، والبلاغة فنونها وأفانها ص ٤٩٩ .

ويبدو أن هذه التقسيمات لا تتناسب وطبيعة العمل الفني الذي يخضع لمؤثرات خارجية ، وبنى داخلية ، ولذا وجدنا علماء البلاغة يفتحون الباب بعد هذه الأغراض بقولهم وإما بغير ذلك <sup>(١)</sup> .

كما أنهم يختلفون في بعض الأغراض كاختلافهم في قوله تعالى :  
" تلك عشرة كاملة " <sup>(٢)</sup> . وهذا يدعو إلى القول بأن هذه الأغراض خاضعة لسياقات داخلية ، ولما قامت الأحوال ، وينبغي الخطر مداه في هذا الباب عندما ينظر إلى الإطناب بأنه ربما يكون زيادة بلا فائدة مرجوة وراءه ، ودفاعاً عن ذلك نجد الشيخ دراز يرد ماورد في القرآن من الإطناب إلى الإيجاز فيقول :  
" قلنا إن القرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توكيد أكثر ما يمكن من المعاني . أصل ذلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله " <sup>(٣)</sup> .

والحقيقة أن الإطناب لا يمكن أن يراد به الزيادة المملة ، التي تجعل الكلام خارجاً عن دائرة البلاغة ، فلا يمكن حينئذ أن يدرك ما فيه سواء أكان إيجازاً مخلاً أو إطناباً مملاً .

ومن هنا نجد ابن الأثير يضع حداً لهذا اللبس فيسمي الإطناب بغير فائدة تطويلاً . ويقول : " فمثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق ، أما الإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة والإطناب

(١) انظر : المطول ص ٥٠٣ .

(٢) انظر : ص ٩٨ من هذا البحث .

(٣) النبأ العظيم ص ١٥٨ - ١٥٩ .

والتطويل هما الطريقتان المتساويتان في البعد إليه ، إلا أن طريق الإطناب يشتمل على متره من المناظر لا يوجد في طريق التطويل " (١) .

وإذا بحثنا في القرآن عن الإطناب فلا يمكن أن نضع أيدينا على تطويل بالمعنى السابق فليس في القرآن كلمة مقحمة ولا حرف زائد لغير فائدة معنوية (٢) ، فالإطناب فيه الزيادة التي يدعو إليها المقام من جهة ، ولها فوائد معنوية وبلاغية كثيرة من جهة أخرى ، ولو لم يكن له إلا توضيح المعنى وزيادة تقريره لكفى (٣) .

\*\*\*\*

---

(١) المثل السائر ٢/٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٢) انظر : النبا العظيم ص ١٦٢ .

(٣) انظر : البلاغة فنونها وأفعالها ص ٥٢٤ .

## ب- الإيجاز والإطناب عند القرطبي :

لا غرو أن من تعرض للقرآن الكريم لا بد أن يلحظ هذا النوع من البلاغة ،ويجد له طعماً خاصاً ،ورونقاً مختلفاً ، وقد تحدث القرطبي عن ذلك سواء إيجاز القصر أو إيجاز الحذف مبيناً دلالة التركيب في هذا الباب ، ومن ذلك : عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٤] يتحدث القرطبي عما حوته من معانٍ على قلة ألفاظها حتى إنها لتعد سلاحاً في وجه من أراد أن يطعن في الكتاب العزيز حيث يقول : " بما ينفع الناس " أي بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم ، وبركوب البحر تكتسب الأرباح، وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضاً ، وقد قال من طعن في الدين : إن الله تعالى يقول في كتابكم : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " . فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل، وغير ذلك ؟ فقليل له في قوله : " بما ينفع الناس " (١) .

ويلفت النظر إلى شيء من سر الإيجاز " إيجاز القصر " في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٩] ، هذا من الكلام البليغ الوجيز ... والمعنى : أن القصاص إذا أقيم ، وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه ، فحياً بذلك معاً " (٢) .

(١) تفسير القرطبي ١٩٦/٢ .

(٢) السابق ٢٥٦/٢ وقد ذكر الإمام السيوطي عشرين وجهاً لفضل هذه الآية على قول العرب " القتل أنفى للقتل " . انظر : الإتيان في علوم القرآن ص ٥٩٠ وما بعدها .

وهذه الآية لا تكاد تنقضي عجائبها فهي تلامس النفس البشرية في أعقد نزعاتها لتتحول إلى قناعة ورضى، ففيها طمأنة لنفوس " الفريقين أولياء الدم ، والقاتلين في قبول أحكام القصاص فبين أن في القصاص حياة . والتذكير في " حياة " للتعظيم بقرينة المقام، أي في القصاص حياة لكم أي لنفوسكم " (١) .

ويتوقف القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٩٩] ليحلل جمال الإيجاز فيها فيقول : "هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، فقوله : " خذ العفو " فيه صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين ، ودخل في قوله : " وأمر بالعرف " صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله : " وأعرض عن الجاهلين " الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتتره عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأفعال الرشيدة " (٢) .

ثم يذكر أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية (٣) .

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٤٤/٧ .

(٣) انظر السابق ٣٤٥/٧ .

كما ينظر القرطبي إلى ما يوحيه الإيجاز من دلالات بلاغية ، حيث يستدعى التركيب ما يضاد له . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ۝ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ۝ ﴾ [سورة الواقعة : ٣٢-٣٣] فهذه الآية دلت على نعيم الجنة الدائم ، حيث الفاكهة " لا مقطوعة " : " أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء " لا ممنوعة " أي لا يحظر عليها كثمار الدنيا ، وقيل : ولا ممنوعة أي لا يمنع من أرادها بشوك ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها " (١) .

انظر كيف أوجد الإيجاز هذه المعاني ، وهذه المفارقات التي أوجتها جملتان " لا مقطوعة ولا ممنوعة " .

وعند قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۝ ﴾ [سورة المائدة : ١] ، يقول القرطبي : " وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام ، فإنها تضمنت خمسة أحكام : الأول : الأمر بالوفاء بالعقود . الثاني : تحليل بهيمة الأنعام . الثالث : استثناء ما يلي بعد ذلك . الرابع : استثناء حال الإحرام فيما يصاد . الخامس : ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم " (٢) . بل إن هذه البداية المجملة إيذاناً بذكر أحكام ، وفرائض كثيرة ، حتى وصلت إلى ثماني عشرة فريضة ، وينقل الإمام أبو حيان أن الفيلسوف الكندي قال له أصحابه : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فاحتجب عنهم أياماً ، ثم خرج فقال : والله ما أقدر ، ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ،

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢١٠ .

(٢) السابق ٦/٣١٠ . والآيات هي : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ ﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا سَعْتِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَاتِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رِزْقِهِمْ وَمِنْهُمَا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾ المائدة : ١ - ٢

فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلاً عاماً ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته ، وحكمته في سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في إجلاد (١) .

وللسياق دور في تحديد دقة الإيجاز ، وما تحمله بعض ألفاظه ، من معانٍ ، ودلالات ، وتراكيب ، ارتبطت بالسياق فحملت الألفاظ كما هائلاً من المعاني والإيحاءات ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٣٢ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، فالنهي عن كلمة " أف " يعني : " لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تيرم ... وقال بعضهم معنى " أف " : الاحتقار والاستقلال ... و" أف " كلمة مقولة لكل شيء مرفوض (٢) .

فدلالة هذا اللفظ الموجز في هذا التركيب تجاوزت الدلالة اللغوية إلى ما يوحيه اللفظ من دلالات أخرى " فإن صوراً كثيرة من الأفعال والوقائع كالشتم ، والحبس ، والتجويع ، من حيث مدلولاتها أو معانيها التي وضعت لها لغة ولكنها متحدة من حيث الأثر وهو الإيذاء يتناولها قوله تعالى : " ولا تقل لهما أف " بل من باب أولى ، لا بمنطوقه بل بمعنى معناه ، أو روحه وعلته التي فهمت منه بالطريق اللغوي المحض ، لا عن طريق القياس ، أو الاجتهاد بالرأي ، لوضوحها وتبادرها من منطوق النص " (٣) .

(١) انظر : البحر المحيط ٤١١/٣ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٣/١٠ .

(٣) الدلالات وأثرها في تفسير القرآن ، د/ محمد سالم أبو عاصي ، دار الكتب المصرية

ومن الآيات التي يبرز فيها الإيجاز قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ  
 وَنَسَمَاءَ أَقْلَمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۗ ﴾ [سورة هود : ٤٤] .  
 يقول القرطبي عندها : " لو فتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه  
 مثل هذه الآية على حسن نظمها ، وبلاغة وصفها ، واشتمال المعاني  
 فيها " (١) .

فهذه الآية اشتملت على جهات كثيرة من البلاغة سواء في علم البيان  
 أو علم المعاني ، أو من جهة الفصاحة اللفظية والمعنوية ، ففيها بروز ظاهرة  
 الإيجاز حيث اكتفي بالأمر في ابلعي وأقلمي ، دون ذكر الاستجابة وغير ذلك  
 من مظاهر الإيجاز الأخرى (٢) ، ولعلّ السبب في ترك الاستجابة هو لأمرين :  
 أولهما أن الله - عزّ وجل - يحكم لا معقب لحكمه فالأمر منه نافذ لا محالة .  
 ثانيهما : سرعة الاستجابة من هذه المأمورات العظام . مما يدل على ضرورة  
 الاستجابة من بني آدم .

ويقف الإمام أبو السعود أمام هذه الآية مكتفياً بقوله : " ولقد بلغت  
 الآية الكريمة من مراتب الإعجاز أقاصيها ، وملكت من غرر المزايا ناصيتها ،  
 وقد تصدّى لتفصيلها المتفننون ، ولعمري إن ذلك فوق ما يطيقه  
 الواصفون " (٣)

والإمام القرطبي ينطلق في فهمه للإيجاز من فهم إعجاز القرآن الكريم  
 فهو " أي الإيجاز " من وجوه إعجاز القرآن الكريم " ففي آية واحدة يذكر

(١) تفسير القرطبي ٤٠/٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢٦٦/١١ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي السعود ٤٩/٣ .



أمريين ونهيين وخبرين ، وبشارتين وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَفِتَ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي آلِيهِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ [سورة القصص : ٧] ، وأنبأنا سبحانه عن الموت وحسرة الفوت والدار الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردي المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلّة ، بالإضافة إلى دار البقاء

بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٥] .

وأنبأنا - أيضاً - عن قصص الأولين والآخريين ، ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين في شطر آية وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٠] .

وأنبأنا - جل وعز - عن أمر السفينة وإجرائها ، وإهلاك الكفرة ، واستقرار السفينة واستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَلُهَا ﴿٤٤﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بَعْدَ لِقَايَةِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة هود : ٤١-٤٤] إلى غير ذلك " (١) .

فما هذا كله إلا وجه من وجوه الإعجاز الذي جعل القرطبي ينظر إلى بلاغته في أعلى مراتبها ، وأرفع درجاتها من البيان والإيجاز ، بل تجاوز ذلك إلى حد الإجادة والإحسان (٢) .

(١) تفسير القرطبي ٧٦/١ - ٧٧ .

(٢) انظر : النظم القرآني ص ١٦٣ .

يعلق الإمام الألوسي على الآية السابقة بقوله : " هذا واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت مراتب الإعجاز أقصاها ، واستدلت مصانع العرب فسقت بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان " (١) ، ثم يقرر الإمام الألوسي بعد ذلك ما استخرجه العلماء من وجوه إعجازها ، وكلها تصب في ظاهرة الإيجاز المعجز (٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٧١) [سورة الزخرف : ٧١] لم يوضح القرطبي روعة الإيجاز فيها ، حيث قال فيها الإمام السيوطي : " قال بعضهم : جمع بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه " (٣) .

ولعلّ عدم تعليق القرطبي على تلك الآية راجع إلى أنه يوجز أحياناً في التعليق ، ويطيل أحياناً آخر .

ويتحدث القرطبي عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [سورة النحل : ٩٠] وما كان لها من وقع الدهشة عند سماعها لما فيها من البلاغة المتناهية " روي عن عثمان بن مظعون أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

(١) روح المعاني ٦٣/١٢ .

(٢) انظر : السابق ٦٣/١٢ وما بعدها .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ص ٥٩٠ .

فتعجب فقال : يا آل غالب اتبعوا تفلحوا . فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق ...

وقال عكرمة : قرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - على الوليد بن المغيرة : " إن الله يأمركم بالعدل والإحسان " إلى آخرها فقال يا ابن أخي أعد ، فأعاد عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمورق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ... وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن لخير يمثل ولشر يجتنب " (١) .

ويضع الإمام أبو السعود لهذه الآية عنواناً خاصاً بها ، أسماه (من دستور المؤمنين) (٢) ، وكأنه يشير إلى تلك المعاني الثرة ، التي احتوتها هذه الآية ، وكأنها دستور كامل في التعاملات ، والمعاملات .

وعند قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴾ [سورة النازعات : ٣١] نجد هذه الآية بكلماتها القليلة المحملة دلاليًا قد دلت " على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ، ومتاعاً ، للأنام من العشب ، والشجر ، والحب ، والتمر ، والعصف ، والخطب ، واللباس ، والنار ، والملح " (٣) . والاقتصار على ذكر المرعى بيان للطف الله بالعجاوات فيعرف أن اللطف بالإنسان أحرى ، بدلالة فحوى الخطاب والقرينة على الاكتفاء بقوله تعالى : " متاعاً لكم ولأنعامكم " (٤) .

- 
- (١) تفسير القرطبي ١٠/١٦٥ .  
(٢) انظر : تفسير أبو السعود ٣/٣٩٤ .  
(٣) تفسير القرطبي ١٩/٢٠٥ .  
(٤) انظر : التحرير والتنوير ٣٠/٧٨ .

وأمام براعة الإيجاز في القرآن الكريم تتصاغر كل فصاحة .

ينقل القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرًا مَوْسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴾

[سورة القصص : ٧] ما حكاه الأصمعي قال : " سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذني كله      قبلت إنساناً بغير حله  
مثل الغزال ناعماً في دله      فانتصف الليل ولم أصله

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو بعد هذا فصاحة مع

قوله تعالى : " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... الآية " ، فجمع الله في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين " (١) .

ولم يكن في أبيات الجارية من جمال سوى الحشد الهائل من المعاني بألفاظ قليلة ، أما الآية الكريمة فهي كما قال ابن العربي : " أعظم آية في القرآن فصاحة ، إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان " (٢) .

" يا الله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه فإذا خفت عليه وهو في حضنك ، وهو في رعايتك ، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك ، إذا خفت عليه فألقيه في اليم " (٣) .

يا للمفارقة العجيبة ! إذا جاء الخوف فألقيه في اليم ، وكأن اليم الذي هو موطن الخوف والهلع أصبح موطن الأمن . إن ذلك يعطينا بعد الموقف حينئذ ، حيث أصبح حجر الأم لا أمن فيه فلا أمن حيث يوجد الأمن إلا

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٣ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ص ٥٩٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٦٧٩/٥ .

أمن الله - عزَّ وجلَّ - ورعايته ، وزيادة على ذلك تجاوز في الزمان والمكان عجيب " ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين " هنا فقد يتسع الأفق ، ويزداد الأمن تحت رعاية الله - عزَّ وجلَّ - الذي يعلم والناس لا يعلمون .

أما إيجاز الحذف فهو كثير ، ويدخل كثير منه في باب الحذف ، ومن ذلك ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [سورة الزمر : ٧٣] ، حيث أشار إلى وجود حذف الجواب . وذكر أنه أسلوب بليغ كثير عند العرب ، ولم يوضح السر في هذا الحذف <sup>(١)</sup> ، ولعلَّ السر في ذلك ما أشار إليه الإمام السيوطي بقوله : " فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجذونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وتركت النفوس تقدر ما شاءته ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك " <sup>(٢)</sup> ، وهو تحليل دقيق يعكس صورة التوقع الذهني لذلك الشيء المحذوف .

ومن إيجاز الحذف حذف جواب القسم كما في قوله تعالى :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرَابًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢ ﴾ [سورة النازعات : ١-٥] .

قال القرطبي : " وجواب القسم مضمرة كأنه قال : والنازعات كذا وكذا لتبعثن ولتحاسبن ، أضمرة لمعرفة السامعين بالمعنى قاله الفراء ، ويدل عليه قوله تعالى : " أنذا كنا عظاماً نخره " <sup>(٣)</sup> .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٨٥/١٥ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ص ٥٩٣ .

(٣) تفسير القرطبي ٩٥/١٩ .

ومن الحذف أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي

فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٥٦] .

قال القرطبي : " هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، في قول مقاتل والكلبي ، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب ، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحى عباده . أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة ، فإنها واسعة لإظهار التوحيد بها " (١) .

فهذه الآية بالحذف فيها ، وهي كونها أمر بالهجرة إلا أن هذا الأمر يصاغ بصيغة الخبر ، ففيها هذا النداء الحبيب : " يا عبادي الذين آمنوا - يناديهم هكذا - إلى الهجرة - بدينهم ليحسوا - منذ اللحظة الأولى بحقيقتهم ، وكذلك بنسبتهم إلى ربهم ، هذه لمسة أولى ، حيث هذا النداء أما اللمسة الثانية فهي قوله : " إن أرضي واسعة " أي أنتم عبادي وهذه أرضي تسعكم ، كل ذلك لأن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة . ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين الللمستين " (٢) .

ومن لطيف إيجاز الحذف ما أسماه الإمام السيوطي بالاحتباك وهو " أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره للأول " (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٣/٣٥٧ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٥/٢٧٤٨ - ٢٧٤٩ .

(٣) الإتيقان في علوم القرآن ص ٦٠١ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُونَ ﴾ [سورة هود : ٣٥] وقد أشار القرطبي عند تفسير هذه الآية إلى المحذوف دون الإشارة إلى التسمية - ويبدو أن التسمية ليست بذات بال - بل الأهم هو إدراك الحذف الذي استدعاه التركيب ، ودخل بذلك في باب الإيجاز ، حيث يقول : " فعلي إجرامي " أي عقاب إجرامي ، وإن كنت محققاً فيما أقول فعليكم عقاب تكذيبي " (١) .

ولم يتوقف اهتمام القرطبي ببناء الجمل عند الإيجاز فقط ، بل تجاوزه إلى تلمس معاني الإطناب البلاغية ، والدلالية ، بعيداً عن التقسيمات البلاغية ، ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْكُفْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] قال : " قيل معناه التأكيد كما قال تعالى : " يكتبون الكتاب بأيديهم " وقوله : " .. و" لا طائر يطير بجناحيه " ، وقوله : " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة " ومثله كثير . وقيل المعنى : إنه لما كان قولٌ ساذج ليس فيه بيان ولا برهان ، وإنما هو قول بالضم مجرد دعوى ، لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولداً؟ فهو كذب ، وقول لساني فقط ، بخلاف الأقوال الصحيحة التي تعضدها الأدلة ، ويقوم عليها البرهان .

قال أهل المعاني : إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً " (٢) .

(١) تفسير القرطبي ٢٩/٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١١٨/٨ ، وانظر الكشاف ١٨٥/٢ .

فهذه الزيادة " بأفواههم " قامت مقام الحجة عليهم وإلزامهم بهذا القول ، وسد باب تنصلهم منه ، إذ هو إقرار بأفواههم وصريح كلامهم <sup>(١)</sup> .  
وقد يجتمع الإطناب والإيجاز ويتجاوران كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٤] .

فهذه الآية كما يقول الإمام السيوطي : " أطنب - الله - فيها أبلغ الإطناب لكون الخطاب مع الثقيلين ، وفي كل عصر وحين للعالم منهم والجاهل ، والموافق منهم والمنافق " <sup>(٢)</sup> .

ويلمس القرطبي وجهاً آخر للإطناب هنا بقوله : " قوله تعالى : لآيات أي : دلالات تدل على وحدانيته وقدرته ، ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله : " وإلهكم إله واحد " ليدل على صدق الخبر عما ذكر قبلها من وحدانيته سبحانه وذكر رحمته ورأفته بخلقه " <sup>(٣)</sup> .

وهذه الآية يداخلها الإيجاز في فقراتها الجزئية <sup>(٤)</sup> ، فلعمرك إنها لمن الكلام اليبين الإعجاز .

ويتحدث القرطبي عن سر الإطناب في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [سورة النحل : ٢٦] " قال ابن العربي : وكّد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته ، والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا

(١) انظر : التحرير والتنوير ٧٠/١٠ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ص ٦٠٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٠١/٢

(٤) انظر : ص ١٩٨ من هذا البحث .



حائط إذا كان يملكه ، وإن لم يكن وقع عليه ، فجاء بقوله : " من فوقهم " ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال : " من فوقهم " أي : عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا ، وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء . أي أن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم قاله ابن عباس ، وقيل إن قوله : " فأتى الله بنيانهم من القواعد " تمثيل والمعنى : أهلكتهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه ، وقيل المعنى أبطل مكرهم وتديبرهم فهلكوا ، كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه " (١) .

فهذه المعاني والدلالات إنما أملاها الإطناب في قوله تعالى : " من فوقهم " التي ربما تُرى كأنها معروفة من سياق الآية . ولذا فإن هذه الزيادة كما يقول ابن الأثير ترسم الصورة المتكاملة لهذا السقوط المروّع " فإنك إذا تلوت الآية يخيل إليك أن سقفاً خر على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة " (٢) .

واستطراداً مع ابن الأثير فإنه يتحدث عن مثل هذا التصوير الذي يجسده الإطناب في موضع آخر عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] ، ففائدة ذكر " الصدور " هاهنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب تشبيه ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة

(١) تفسير القرطبي ٩٧/١٠ - ٩٨ .

(٢) المثل السائر ٣٩٧/٢ - ٣٩٨ .

ونفيه عن الإبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير ، وتعريف ليقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار " (١) .

ويتحدث القرطبي عن بلاغة نوع آخر من الإطناب وهو ذكر الخاص بعد العام كما في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٨] فإنما " أفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبل في عموم الصلوات تشريفاً لها ، كقوله تعالى : " وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ... " ، وقوله : " فيها فاكهة ونخل ورمان " (٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٧] ، فخص " الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنها عمل الصالحات تشريفاً وتنبهاً على قدرهما ، إذ هما رأس الأعمال ، الصلاة في أعمال البدن ، والزكاة في أعمال المال " (٣) .

وعند ذكر جبريل وميكايل بعد ذكر الملائكة في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٩٨] يقول : " فإن قيل لم خص الله جبريل وميكايل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما ؟ قيل له خصهما بالذكر تشريفاً لهما ... وقيل : خصا لأن اليهود ذكروهما ، ونزلت الآية بسببهم فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما

(١) السابق ٢/٤٠٠ ، وانظر : بلاغة التراكيب ص ٢٧٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣/٢٠٩ .

(٣) السابق ٣/٣٦٢ .

يتأولونه من التخصيص " (١) . كما أن فيه إبطالا لزعم اليهود أنهما متعاديان ،  
وفيه إشارة أن معادة الواحد معادة للجميع " (٢) .

ويلمس الإمام القرطبي سر التخصيص عند قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا  
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْكِرُونَ ﴿٤٩﴾ [سورة النحل :  
٤٩] حيث يقول : " والملائكة يعني الملائكة الذين في الأرض ، وإنما أفردهم  
بالذكر لاختصاصهم بشرف المتزلة ، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن  
دخلوا فيه ... وقيل لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة  
، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا " (٣) .

وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلها تعريض بدم من نزل من البشر عن  
مرتبة الدواب في كفران الخالق ، ويمدح من شابه من البشر حال الملائكة (٤) .  
ويتحدث الإمام القرطبي عن بلاغة الإطناب بالتكرار ، ومن ذلك قوله  
تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [سورة التكاثر : ٣-  
٤] ، يقول : " ثم كلا سوف تعلمون " وعيد بعد وعيد قاله مجاهد . ويحتمل  
أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ وهو قول الفراء " (٥) . وزيادة  
على هذه الدلالة المعنوية فإن في هذا التكرار قيمة صوتية (٦) لها تأثير في السمع  
قبل تأثير التوكيد .

(١) تفسير القرطبي ٣٦/٢ - ٣٧ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢٢١/١ .

(٣) تفسير أبي السعود ١١٢/١٠ - ١١٣ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير ١٣٧/١٣ .

(٥) تفسير القرطبي ١٧٢/٢٠ .

(٦) انظر : بلاغة التراكيب ص ٢٥٨ .

ومن التكرار الذي استوقف الإمام القرطبي تكرر قوله تعالى : " فبأي آلاء ربكما تكذبان " في سورة الرحمن . حيث يقول : " فالتكرار في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق ، وقال القتيبي : " إن الله تعالى عدد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وصفها ونعمة وصفها بهذه وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، لينبههم على النعم ويقررهم بها " (١) .

وينضم مع هذا التقرير توبيخ المخاطبين على إشراكهم بالله أصناماً لا نعمة تملكها . الله وحده هو المتفرد بالنعم سبحانه (٢) ، حتى ما ورد قبل هذا التكرار مما يلوح بأنه لا نعمة فيه كفناء العالم فأي نعمة في هذا الفناء ؟ .

يعلق د/ بدوي على هذا بقوله : " ولكن تأملاً في هذه الآيات وما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأحواله يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم . فكأن القرآن يقرر أن سيلقى مثل هذا السؤال يوم تنشق السماء ، ويوم يعرف المجرمون بسيماهم أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلاً كما أوحى القرآن بذلك في تلك الآلاء ، والنعم فيقوم بواجب الإيمان بالنعم وشكرها ، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب الله الثقلين ؟ " (٣) .

وفي مثل هذا التكرار يذكر القرطبي السر في ذلك عند قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ

(١) تفسير القرطبي ١٥٩/١٨ - ١٦٠ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢٣٠/٢٧ .

(٣) من بلاغة القرآن ص ١١٩ .

أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾

[سورة النساء : ١٣١] : " إن قال قائل : ما فائدة هذا التكرار ؟ فعنه جوابان : أحدهما : أنه كرر تأكيداً لينبه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غني عن العالمين . الجواب الثاني : أنه كرر لفوائد ، فأخبر في الأول أن الله تعالى يغني كلاً من سعته ؛ لأن له ما في السماوات وما في الأرض فلا تنفذ خزائنه ، ثم قال : أوصيناكم وأهل الكتاب بالتقوى ، "وإن تكفروا" أي وإن تكفروا فإنه غني عنكم ؛ لأن له ما في السماوات وما في الأرض ، ثم أعلم في الثالث بحفظ خلقه وتدبيره إياهم بقوله : " وكفى بالله وكيلاً " ؛ لأن له ما في السماوات وما في الأرض . وقال : " ما في السماوات " ، ولم يقل من في السماوات لأنه ذهب مذهب الجنس وفي السماوات والأرض من يعقل ومن لا يعقل " (١) .

هذا التحليل الرائع من الإمام القرطبي الذي أظهر السر في هذا التكرار الذي جاء في موضعه مرتبطاً بالتركيب ، ينبهنا إلى دقة التركيب وتناسق الكلمات ، حيث إن " ما " أعطت معنى شمولياً متناسباً مع ملك السماوات والأرض . وهذا التحليل جاء مطولاً على غير عادة القرطبي عند تعرضه للقضايا البلاغية في التراكيب القرآنية ، التي يكتفي فيها باللمحة الخاطفة ، فهو هنا قد جمع بين فقه عميق في الشريعة الإسلامية ، ومعرفة دقيقة بكلام العرب ، وأساليبه ، وهذا التحليل يدلنا بجلاء على أنه يرى الناحية البلاغية من أهم نواحي إعجاز القرآن (٢) .

(١) تفسير القرطبي ٤٠٩/٥ .

(٢) انظر : المدخل الوجيز ص ١٠٣ .

والإمام القرطبي يلاحظ هذا التكرار وعدمه في بعض القصص القرآني ولكنه يربط ذلك كله بقضية الإعجاز التي حدد معالمها في المقدمة (١) ، فهو يقول في بداية سورة يوسف : " قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها . فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن يتأمل " (٢) .

ويبرز التكرار كلام سيد قطب في القصة القرآنية ، حيث إن التكرار فيها " لا يتناول القصة كلها - غالباً - إنما هو تكرر لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً . ولمناسبات خاصة في السياق ... وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً" (٣) .

ومما ذكره القرطبي من دقائق الإطناب ما لمسه في قوله تعالى :

﴿ وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حَمَلَتُهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ ﴾ [سورة لقمان : ١٤]

فجملة " حملته أمه وهناً على وهن " خصت الأم بدرجة عند ذكر الحمل وبدرجة عند ذكر الرضاع فحصل لها ثلاث مراتب (٤) ، فلولا هذا الإطناب لساوت الأب في الحقوق .

ويشير القرطبي بصورة مختصرة إلى سر الإطناب في قوله تعالى :

﴿ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [سورة النور : ١٥] ، حيث

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧٣/١ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ١١٨/٩ .

(٣) التصوير الفني في القرآن ص ١٥٥ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٦٤/١٤ .

يقولون : " وتقولون بأفواهكم " مبالغة وإلزام وتأکید " (١) ، ومراد المبالغة هو ما أشار إليه ابن المنير بقوله : " قال أحمد : ويحتمل أن يكون المراد المبالغة ، أو تعريضاً بأنه ربما يتمشدد ويقضي تمشده جازم عالم وهذا أشد وأقطع ، وهو السر الذي أنبأ عنه قوله تعالى : { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } (٢) . أما الزمخشري فيرى أن ذلك دليل على أن هذا القول باللسان والفم بدون اعتقاد وعلم (٣) .

ومما ذكره القرطبي أيضاً من دلالات الإطناب في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارَةٍ تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الصف : ١٠-١١] . قال : " تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون " عطف بيان على قوله : " هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم " . كأن التجارة لم يدر ما هي فبينت بالإيمان والجهاد " (٤) .

وفي هذه الجملة " بيان للتشويق الذي أثاره الإجمال في الجملة قبلها ؛ لأن ذلك يثير في أنفس السامعين التساؤل عن هذا الذي تدلنا عليه ، وعن هذه التجارة (٥) .

(١) السابق ٢٠٤/١٢ .

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف ٥٤/٣ .

(٣) انظر : الكشاف ٥٤/٣ .

(٤) تفسير القرطبي ٨٧/١٨ .

(٥) انظر : التحرير والتنوير ١٧٣/٢٨ .

وبهذا كله ندرك اهتمام القرطبي ببلاغة الجمل سواء في باب الفصل  
والوصل أو الإيجاز والإطناب ، وكيف كان باحثاً عن السر البلاغي والدلالي  
غير معتمد على تقسيمات البلاغة وتسمياتها .

\*\*\*\*\*



## الفصل الثالث

### بلاغة التراكيب في بنية النص القرآني في تفسير القرطبي

ويشتمل على مبحثين :

الأول : التناسب بين الآيات والسور .

الثاني : التناسب بين النص القرآني في ضوء النصية  
المعاصرة .

# المبحث الأول

## التناسب بين الآيات والسور

ويشتمل على :

- أ - التناسب بين الآيات .
- ب - التناسب بين السور .

## استهلال لا بد منه :

لعل من أحدث المناهج التي اهتمت بدراسة النص الإبداعي "منهج علم النص" ، أو النصية المعاصرة "وهو كما يقول د. سعد أبو الرضا : "يتعامل مع النص ككل باعتباره وحدة كاملة ، ويحاول أن يقدم صوراً للانتظام ، وأشكال الاضطراب التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي" <sup>(١)</sup> . وهذه الدراسة الموجهة إلى النص باعتباره وحدة كاملة هي ثمرة من ثمرات تآزر العلوم لغوية ، واجتماعية ، ونفسية لدراسة النص ، والتعرف عليه من خلال النظر إلى العلاقات التي تتحكم في بنائه .

وهذا الأمر جعل دور علم النص يتميز بكثير من النظرة الموضوعية ؛ لأنه ينظر إلى النص نظرة كلية بعيداً عن الجزئية التي تفقده الكثير من مقوماته ، إلا أن هذه النظرة تبدو ذات أبعاد متعددة ينبغي الحرص في الأخذ بها عند دراسة النصوص الشرعية ، ولكن لا يخفى أهمية الاستفادة من ذلك في إدراك أسرار تلك النصوص ، ولا سيما القرآن الكريم الذي هو معجز لغوي ، وبياني .

ويبدو أن الباحثين قد أدركوا "صعوبة البحث النصي إذ إن السمة الجوهرية الفارقة له عن البحوث الأخرى تكمن فيما أطلق عليه التداخل المعرفي، بمعنى أن ذلك النص يتطلب دراية واسعة في فروع مختلفة ، فقد تشعبت المنابع التي استقى منها مناهجه ، وتصوراته ، واتسم هو نفسه بقدره فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين ، بل وتشكيل بُنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التواصل من جهة ، وإبراز جوانب التفارق بينه

(١) مناهج النقد الحديث : د. سعد أبو الرضا ، ص ١٥٦ .

وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية" (١) . إضافةً إلى ذلك علاقته بالبحوث التجريبية ، والمنجزات النظرية في كافة وسائل المعرفة (٢) .

وهذا الشعب الذي يضمه علم النص يتدرج تحت شعب أكبر لأرضية هذا المنهج ، يبدأ من الأسس الفلسفية ، والأبستمولوجية بدءاً من عقلانية (كانت) ومروراً بالاحتمية العلمية ، والتطلع إلى علم نص يكون ملكاً إنسانياً لا تختص به أمة دون أخرى (٣) . ومن هنا وجدت لدراسة النصوص البشرية بعيداً عن النصوص الشرعية أسس ، منها :

١- السبك : ويتجلى في ظهور العناصر السطحية على صورة وقائع مترابطة يؤدي السابق إلى اللاحق محققة الترابط الرصفي .

٢- الالتحام : ويختص بالإجراءات ، والوسائل التي توجه الترابط المفهومي بين العناصر المعرفية ، إلى غير ذلك من الوسائل (٤) .

وعلم النص بهذا المفهوم ، لم يكن موجوداً بجذوره الفلسفية ، وأبعاده النظرية في تراثنا البلاغي . أما آليات التعامل ، والتحليل فإننا نجد صوراً كثيرة منه لا سيما ما يتعلق بتحليل النصوص ، وعلاقة ذلك النص بالمتلقي ، ولا سيما ما نجده عند "المفسرين وعلماء أصول الفقه والبلاغيين وبعض اللغويين

---

(١) نحو النص بين الأصالة والحداثة : د. أحمد محمد عبدالراضي ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص ٤ .

(٢) انظر : بلاغة الخطاب ، وعلم النص : ص ٢٩٤ .

(٣) للمزيد حول هذا انظر : "دينامية النص تنظير وإنجاز .. د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ص ٣٣ وما بعدها .

(٤) انظر : مناهج النقد الأدبي ص ١٦٥ وما بعدها .

والنحويين" <sup>(١)</sup> ومعالجتهم تلك راعت بعض الصور التي تؤدي إلى انسجام النص الذي "يتحقق على المستوى اللغوي ، والعملية ، والزمني ، والهدفية" <sup>(٢)</sup> .

ومع أن جهود البلاغيين كانت تنصب كما يقول د. صلاح فضل على البنية النحوية <sup>(٣)</sup> ، إلا أننا لا نعدم صوراً من التفاعل مع النصوص تفاعلاً شبه متكامل كما يبدو واضحاً عند حازم القرطاجني <sup>(٤)</sup> ، ولا ريب أن الاهتمام بالبنية النحوية هو خطوة أولى في إطار الاهتمام بعلاقات النص ، فهم لم يتوقفوا عند حدود الإعراب بل "ربطوا بين الإعراب والدلالة فلا يتوصلون إلى تحديد وظيفة الكلمة في التركيب نحويًا إلا بعد الكشف عن دلالتها" <sup>(٥)</sup> .

هذا من ناحية البناء الإعرابي ، ودور المعنى المتحكم فيه ، إضافة إلى ذلك فقد اهتم العلماء بقضية الترابط المعنوي ، والدلالي بين أجزاء النص ولا سيما النص القرآني . فالإمام الزركشي يذكر من فوائد التناسب بين الآيات في القرآن "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء" <sup>(٦)</sup> .

---

(١) نحو النص ص ٢٧ .

(٢) دينامية النص ص ٣١ .

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النفس ، ص ٣١٤ .

(٤) انظر : السابق ص ٣١٤ .

(٥) نحو النص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ٤١/١ .

ومن هنا نستطيع القول إن القدماء قد تحروا "الدقة كل الدقة في تحليل النص ، حيث بنو تحليلهم على الربط بين بنية النص اللغوية والدلالية ، وقد تجلّت هذه الدقة عند وقوفهم أمام النص القرآني ، إذ تضافرت على الكشف عن أسرار إعجازه عدة أسس منهجية توصلوا بها إلى فهمه فهماً صحيحاً ، وإلى الوقوف على مفرداته وتراكيبه وأساليبه ، والربط بينها وبين دلالتها وقوفاً يمكنهم من احتواء النص من جميع جوانبه " (١) .

والاهتمام بالقرآن هو اهتمام بقمة البيان ، حيث دأب العلماء ينظرون إليه لإدراك مظاهر إعجازه الدائم ، فلا ريب أن القرآن الكريم من الناحية اللغوية والبلاغية قد جاء في أعلى مستوى وأرقى درجة ، إضافة إلى ذلك أنه يعتبر نصاً مرجعياً للثقافة العربية والإسلامية (٢) .

ومن هنا جاء الاهتمام بهذا الكتاب العزيز قديماً وحديثاً فدارت حوله الدراسات اللغوية ، والنحوية ، والبلاغية ؛ لأنه المعين الذي لا ينضب إلا أن تناوله ينبغي أن ينظر فيه إلى قدسية هذا الكتاب فلا يمكن بحال من الأحوال أن يدخل تحت عملية النقد الأدبي ، ولا يمكن أن يخضع للدراسات الأدبية الحديثة للتمايز بين طبيعة القرآن والإنتاج البشري .

وينبه د. أبو موسى إلى خطورة التفكير في ذلك ، وأن العصر الحديث أخضع كل شيء للتجربة ، والبحث ، والدراسة ، والنقد الحديث قد نادى

---

(١) نحو النص ص ١٦٧ .

(٢) انظر : الخطاب القرآني مرجعية للخطاب النهضوي : د. سعد كموني ، المركز الثقافي

العربي ، ص ١١ .

بألا يكون المقدس بمعنى عن ذلك ، وفي هذا خطر عظيم<sup>(١)</sup> ، بل يجب البعد بالنص القرآني عن بعض المصطلحات الملبسة . وعندما يدرس القرآن في ضوء علم النص إنما هو لاستكشاف التكامل النصي الذي هو من دلائل إعجازه . وهذا بعيداً عن بعض فقرات الدراسة النصية كالمقصدية ، وما تطرحه النصية الحديثة من تفاعل النص مع نفسه وتفاعل المرسل والمتلقي<sup>(٢)</sup> .

فدراسة النص القرآني في هذا المبحث سيكون مركزاً حول وجوه الترابط في هذا الكتاب المعجز إبرازاً لمظهر من مظاهر إعجازه البلاغي . ولا شك أن ذلك ينطلق من إدراكنا أن كل ما يستحدث من وجوه لبيان جمال النص الإبداعي ، فإن القرآن لا ريب يعلوها ، فضلاً عن أن سلفنا الصالح من العلماء قد نبهوا إلى ذلك العلم ، بما يعرف (بعلم المناسبة)<sup>(٣)</sup> .

ويحين الآن تناول هذا المبحث عند القرطبي في النقطتين التاليتين :

أ- التناسب بين الآيات .

ب- التناسب بين السور .

\*\*\*\*\*

---

(١) انظر : آل حم "غافر وفصلت" دراسة في أسرار البيان : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ص ٩ .

(٢) انظر : دينامية النص ، ص ٣٨ وما بعدها .

(٣) انظر : كتاب نظم الدرر : للإمام البقاعي ، كتاب أسرار ترتيب سور القرآن ، للإمام السيوطي .

## أ- التناسب بين الآيات :

لقد أدرك العلماء أهمية النظر إلى بناء النص القرآني ، فراحوا يبحثون عن التناسب بين آياته وسوره لا سيما ، وأن هذا الترتيب توقيفي . قال الإمام السيوطي : "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك" <sup>(١)</sup> . ثم ينقل - رحمه الله - نصوصاً تدل على ذلك ، وما نقل عن العلماء من الإجماع في ذلك <sup>(٢)</sup> .

والتناسب بين الآيات يأتي على أشكال كما في شكل التنظير "إلحاق النظير بالنظير" ، أو في المضادة ، أو في الاستطراد ، أو في حسن التلخيص وغير ذلك مما تحدث عنه العلماء <sup>(٣)</sup> . وهناك أوجه ربط معنوية دقيقة داخلية وحالية وسياقية .

أمّا ترتيب السور فيذكر السيوطي الخلاف في ذلك ، ثم يعقب على ذلك بقوله : "والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي ، وهو أن جميع السور ترتبها توقيفي إلا براءة والأنفال" <sup>(٤)</sup> .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون وراء هذا الترتيب لحمة تربطه ودلالة لغوية ، أو بلاغية ، أو حالية ، بل إن التناسب يتجاوز ذلك إلى دلالة اسم السورة عليها ، ومناسبة ذلك لها .

(١) الإتيان في علوم القرآن ، ص ١٥٩ .

(٢) انظر : السابق ، ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) انظر : السابق ، ص ٦٩٥ وما بعدها .

(٤) السابق ، ص ١٦٧ ، وانظر له أيضاً : أسرار ترتيب سور القرآن ، ص ٩ وما بعدها .



يقول الإمام البقاعي : "إن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ؛ لأن اسم كل شيء تظهر مناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه" (١) .

فتسمية كل سورة باسم يخصها جاء "تمشياً مع عرف العرب في أخذ الأسماء من نادر ، أو مستغرب يكون في الشيء من خلق ، أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم ، أو أبين ، أو أسبق لإدراك الناس للمسمى" (٢) ، وقد يكون الاسم إشارة أو رمزاً لقضية ذات أهمية، وهذا ما اهتم به علم النص ، حيث إن العنوان "اسم السورة" . والنظر إليه يعطي وظيفة جمالية (٣) ودلالية بالغة الأهمية .

ومن هذه الأهمية للتناسب انطلق الإمام القرطبي في تفسيره ، يوضح جزءاً من ذلك الترابط بين الآيات والصور ، وهو ينطلق أيضاً من قاعدة فهمه للإعجاز القرآني الذي حدّد معالنه في مقدمة تفسيره ، ومنها : "التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف" (٤) .

ومن هذه القاعدة انطلق الإمام القرطبي بين المناسبات بين الآيات والربط فيها داخلياً وخارجياً ، وكذلك ربطه بين السور بعضها ببعض ؛ لأن عبارة (وجميع ما يتضمنه) يشمل اسم السورة ، ومقصود السورة ، والعلاقة بين السورة ، وما قبلها ، وما بعدها ، وعلاقة مقدمة السورة بخاتمها ، والعلاقة بين التراكيب والصور ، وكل ما ذكره البقاعي في كتابه .

(١) نظم الدرر ١/١٢ .

(٢) أسماء سور القرآن وفضلها ، ص ٦٨ .

(٣) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص ٢٧٧ .

(٤) تفسير القرطبي ١/٧٥ .

عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَلِإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٩] ، يقول : "لما أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحال قنوت وهو الوقار والسكينة وهدوء الجوارح ، وهذا على الحال الغالبة من الأمن والطمأنينة ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً وبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد في حال" (١) .

وهذه الارتباط بين الآيتين يوضح قاعدة مهمة ، وهي كما يذكر الإمام البقاعي : "قال الحراني : ما من حكم شرعه الله في السعة إلا وأثبتته في الضيق والضرورة ، بحيث لا يفوت في ضيقه بركة من حال سعته ليعلم أن فضل الله لا ينقصه وقت ولا يفقده حال ، وفيه إشعار بأن المحافظة على الصلاة في التحقيق ليس إلا في إقبال القلب بالكلية على الرب ، فما اتسع له الحال ما وراء ذلك فعل وإلا اكتفى بحقيقتها" (٢) .

وينظر الزمخشري إلى آخر الآية على أنها جامعة لما سبق ، حيث أمرنا بذكر الله ؛ لما علمنا من الشرائع ، وكيفية الصلاة في حالتنا الخوف ، والأمن (٣) .

وفي سورة النساء نجد أن القرطبي يوضح وجه الارتباط المعنوي بين الآيات ، حيث أتت وفقاً لنظام متسلسل لا نرى فيه تكراراً ، ولا فجوة ، فعند قوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [سورة النساء : ٣٢] .

(١) تفسير القرطبي ٢٢٣/٣ .

(٢) نظم الدرر ٤٥٥/١ .

(٣) انظر : الكشاف ٣٧٦/١ .

يقول القرطبي : " لما ذكر الله تعالى أمر اليتامى وصله بذكر الموارث" (١) ، ولا ريب أن في هذا صلة معنوية ، ولعل وراء ذلك مظنة الظلم لليتيم ، فجاء توضيح الموارث التي تولّى الله عزّ وجلّ قسمتها ، كما أن هذه الآية المحملة ترتبط بآيات الموارث بعدها ارتباطاً وثيقاً . فآيات الموارث بين تعالى فيها ما أجمله في هذه الآية (٢) .

وبسبب الإجمال في الآية المذكورة تشوّفت النفوس إلى بيان مقادير الاستحقاق بالإرث لكل واحد ، وكان قد تقدّم ذكر استحقاق الرجال والنساء من غير تقييد ببيتيم ، فاقتضت البلاغة بيان أصول جميع الموارث (٣) ، حيثُ تتمكن هذه التفصيلات في النفس بعد أن أعدت لها .

ويوضح القرطبي الارتباط بين الآيات الأولى من سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَى بَنُو إِسْرَائِيلَ لِرَبِّهِمْ مِنْ بَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ② ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلِمُوا نَفِيرًا

(١) تفسير القرطبي ٤٦/٥ .

(٢) انظر : السابق ٥٥/٣ .

(٣) انظر : نظم الدرر ٢١٩/٢ .

﴿ ٧ ﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۖ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ [سورة الإسراء ١-٩] .

ففي بداية السورة حديث عن الإسراء، ثم الانتقال إلى الحديث عن موسى - عليه السلام - وما أُوتي من هدي لبني إسرائيل ، ثم الحديث عن نوح - عليه السلام - وذريته ، وفي النهاية "وصف القرآن بأنه هداية للحق. فما وجه الربط بين هذه الآيات ؟ .

يبين القرطبي الربط بين هذه الآيات بقوله : "أي كرمنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالمعراج ، وكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة ... ولما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ثم بين أن الكتاب الذي أنزل عليه سبب اهتداء"<sup>(١)</sup>. وإن كان القرطبي قد وقف عند وصل أول الآيات بأن ذلك من باب تكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - بالمعراج ، كما كرم موسى بالكتاب ، فإن الإمام الزركشي ينظر إلى الربط من جهة أخرى أقرب إلى عمق الدلالة ، يقول : "ووجه اتصالها - أي قوله تعالى : "وآتينا موسى الكتاب ...". بما قبلها ، أن التقدير : أطلعناه على الغيب عياناً ، وأخبرناه بوقائع من سلف بيئنا لتقوم أخباره على معجزته برهاناً ، أي : سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين"<sup>(٢)</sup> أو لوجه المشابهة بين الإسراء والمعراج وخروج موسى - عليه السلام - من

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢١٢ - ٢٢٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٤٥ .

مصر<sup>(١)</sup> ، وذكر نوح وذريته هو من باب الامتنان على بني إسرائيل بالنجاة من الغرق ، ثم في هذا الذكر بيان لدور القصة في القرآن ، فهي للعتبة والشكر لا للتسلية والمتعة ، ويبرز البعد الزمني ، والمكاني هنا ، فالإسراء " آية من آيات الله ، وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر ، والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة ، والمسجد هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ، ثم أخرجهم منها ، فسيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة " (٢) .

وَمَا يُؤَكِّدُ ظَاهِرَةَ التَّلَاحِمِ بَيْنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ مَا يُرَى مِنْ آيَاتٍ تَنْزَلُ فِي مَنَاسِبَاتٍ مُّخْتَلِفَةٍ ، وَمَعَ هَذَا تَوْضِعُ إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الْأُخْرَى فِي بِنَاءٍ مُّتَكَامِلٍ لَا يَجِدُ فِيهِ فَجْوَةَ وَلَا نَشَازًا .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء : ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [سورة النساء : ٥٨] ، فإن الآية الأولى نزلت في كعب بن الأشرف عقب بدر ، وكان قد حرض قريشاً على الأخذ بالثأر ، والثانية نزلت في فتح مكة ، وبينهما ست سنين<sup>(٣)</sup> ، ومع ذلك جاءتا في نظم واحد لا نرى بينهما بُعداً ، وذلك راجع إلى أنه "تعالى أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وقوله : "إن المشركين أهدى

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن ٤٥/١ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢١٢/٤ .

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن ٣٥/١ - ٣٦ .

سبيلًا : فكان ذلك خيانة منهم فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات . فالآية  
شاملة بنظمها لكل أمانة" (١) .

وقد تكون العلاقة بين الآيات علاقة شمول داخل تحت قدرة الله - عزَّ  
وجل - ، وهذا ما يذكره القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْعِدَ  
اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۗ ﴾ [سورة البقرة : ١١٤] ، وقوله  
تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهُ اللَّهُ ۗ ﴾ [سورة البقرة :  
١١٥] ، حيث يقول : "فوجه النظم ... أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بين  
الله - تعالى - أن له أن يتعبد عباده بما شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى  
بيت المقدس ، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة لا حجة عليه ، ولا يسأل  
عما يفعل وهم يسألون" (٢) .

وفي هذا - أيضاً - توجيه للمؤمنين بأن الله المشرق والمغرب ، فإذا  
كان قد ذكر تخريب بيت المقدس فلا يجرمن المؤمنين أن يستقبلوها (٣) .  
ولعلَّ فيه - أيضاً - توبيخ لأولئك الذين لا يفتأون يخربون أماكن  
العبادة ، ويتحدون الله وهم يحسبون أنهم على شيء !! .

وقد يكون السر في بناء الآيات ليس في وجه المناسبة ، فهي ظاهرة  
وإنما السر في ترتيب نظم التركيب فيها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا  
السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ۗ ﴾ [سورة النساء : ٥] ، فمناسبة هذه الآية  
لما قبلها كما يقول القرطبي أنه : "لما أمر الله - تعالى - بدفع أموال اليتامى

(١) تفسير القرطبي ٢٥٧/٥ ، وانظر : البرهان ٣٦/١ .

(٢) السابق ٨٢/٢ .

(٣) انظر : البرهان ٤٧/١ .

إليهم في قوله : "... وآتوا اليتامى أموالهم" وإيصال الصدقات إلى الزوجات  
بين أن السفية وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه <sup>(١)</sup> . ولكن لماذا تأخرت آية  
المنع عن آيات إعطاء المال لليتامى والنساء ؟ .

يوضح الشيخ الطاهر بن عاشور السبب في ذلك بقوله : "والمقصود  
بيان الحال التي يمنع فيها السفية من ماله ، والحال التي يُؤتي فيها ماله ، وقد  
يُقال : كان مقتضى الظاهر على هذا الوجه أن يقدم هنالك حكم منع تسليم  
مال اليتامى ؛ لأنه أسبق في الحصول ، فيتجه لمخالفة هذا المقتضى أن تقول :  
قدّم حكم التسليم ؛ لأن الناس أحرص على ضده ، فلو ابتدأ بالنهي عن  
تسليم الأموال للسفهاء لآخذة الظالمون حجة لهم ، وتظاهروا بأنهم يمنعون  
أموالهم خشية من استمرار السفه فيهم ، كما يفعله الآن كثير من الأوصياء  
والمقدمين غير الأتقياء" <sup>(٢)</sup> .

وعند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ <sup>(٣)</sup>  
[سورة النساء : ٨٦] ، يوضح القرطبي وجه الارتباط بينها وبين آية الجهاد  
قبلها ، فيقول : "ووجه النظم بما قبل أنه قال : إذا خرجتم للجهاد كما سبق  
به الأمر فحييتهم في سفركم بتحية الإسلام فلا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام  
لست مؤمناً ، بل ردوا جواب السلام ، فإن أحكام الإسلام تجري عليهم" <sup>(٣)</sup> .  
ويبدو أن الأمر أعظم من ذلك ، فما أحسن جعل هذه الآية تالية لآية  
الجهاد ، إشارة إلى أن من بذل السلام وجب الكف عنه ، ولو كان في

(١) تفسير القرطبي ٢٧/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٩٨/٥ .

الحرب زيادة على بذل المال في الشفاعة الحسنة وهما أمران ترغب إليهما النفوس في جو آية الجهاد المحتمة بالبأس ، والتنكيل <sup>(١)</sup> .

وإذا كان الجهاد في سبيل الله من أعظم القربات ، فإنه لا ينحصر في الجهاد بالنفس ، بل هناك علاقة بينه وبين الجهاد بالمال ، وتلك علاقة مناسبة تربط بين آيات الجهاد والإنفاق كما في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٥] ، حيث ناسب ذكرها بعد قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٤] ؛ لأنه سبحانه لما أمر "بالجهاد والقتال على الحق ، إذ ليس شيء من الشريعة إلا ويجوز القتال عليه وعنه وأعظمها دين الإسلام ، كما قال مالك حرّض على الإنفاق في ذلك فدخل في هذا الخبر المقاتل في سبيل الله ، فإنه يقرض به رجاء الثواب" <sup>(٢)</sup> .

وفي دائرة الإنفاق يُعلّق القرطبي على قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٢] ، بقوله : لما تقدم في الآية التي قبل ذكر الإنفاق في سبيل الله على العموم بين في هذه الآية أن ذلك الحكم ، والصواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى" <sup>(٣)</sup> ، فهذا المن والأذى يضعف أو ينقص من الإنفاق ، كما أن الزرع الذي ضرب به المثل قد يضعف بالآفات <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر : نظم الدرر ٢/٢٩٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣/٢٣٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٣/٣٠٧ .

(٤) انظر : نظم الدرر ١/٥١٦ .



ويبدو الترابط بين الآيات فيما كتبه الله من تكاليف ، وإن كان بعضها يبدو بعيداً عن بعض . ذلك ما نجده في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] .

ما الرابط بين هذه الآية ، بل بين آيات الصيام ، وذكر القصاص ، والوصية قبلها؟ . يقول القرطبي : "لما ذكر الله ما كتب على المكلفين من القصاص ، والوصية ذكر أيضاً أنه كتب عليهم الصيام ، وألزمهم إياه ، وأوجبه عليهم" <sup>(١)</sup> . ولكن ما الصلة بين القصاص ، والوصية ، والصيام ؟ . ويؤكد أبو حيان ما ذهب إليه القرطبي من خلال النظر إلى العلاقة بين هذه الثلاث بقوله : "مناسبة الآية لما قبلها أنه أخبر - تعالى - أولاً بكتب القصاص وهو إتلاف النفوس ، وهو من أشق التكاليف ، فيجب على القاتل إسلام نفسه للقتل ، ثمَّ أخبر ثانياً بكتب الوصية وهو إخراج المال الذي هو عدل الروح ، ثمَّ انتقل ثالثاً إلى كتب الصيام وهو منهك للبدن مضعف له" <sup>(٢)</sup> .

وكما يبدو من الآيات تكرر كلمة "كتب" ، وهي تفيد المحور الذي تدور حوله الآيات ، أو القضية التي تربط بينها وهي قضية "الإيجاب" و"الكتابة" ، مما يجعل هناك انسجام معجمي لغوي معنوي <sup>(٣)</sup> .

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٧٢ .

(٢) البحر المحيط ٢/٢٨ .

(٣) انظر : دينامية النص ، ص ٢١٠ .

ولنا أيضاً أن نلاحظ ارتباطاً آخر يربط بين آيات الصوم السابقة الذكر وهو "أما خرجت مخرج التلطف والرأفة لا مخرج الغلظة والفظاظة ، وهذه سمة نجدها في أسلوب القرآن ، حيث تصاغ الأوامر بصيغ الاستفهام ، أو بالجمل الخبرية ... ففي الآية السابقة نجد :

كتب عليكم - بدل - صوموا .

لعلكم تتقون - بدل - اتقوا .

فعدة من أيام أخر - بدل - عليكم أياماً أخر

وأن تصوموا خير لكم - بدل - صوموا

لعلكم ترشدون - بدل - أرشدوا<sup>(١)</sup> .

ويذكر القرطبي وجوهاً للربط بين قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**

**لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٤﴾ [سورة الأنفال : ٤] ، وقوله

تعالى : ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ** ﴿٥﴾ ﴿

[سورة الأنفال : ٥] . فيقول : "قال الزجاج" الكاف" في موضع نصب . أي

: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أي مثل إخراجك

ربك من بيتك بالحق ، والمعنى : امض لأمرك في الغنائم ، ونفل من شئت

وإن كرهوا"<sup>(٢)</sup> .

فالرابط الأول هو تشابه الحداث ، وتماثل رد فعل المسلمين ، وهو كره

الخروج ، ومحاجة الرسول فيه<sup>(٣)</sup> . ثم يتابع القرطبي ذكر وجوه الربط ،

(١) ديامية النص ، ص ٢١٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٦٧/٧ .

(٣) انظر : لسانيات النص . مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص ١٩٣ .

فيقول : "وقال سعيد بن مسعدة : المعنى ﴿ أَوْلَيْكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤] ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ... وقال عكرمة : "المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ... وقيل : "كما أخرجك "متعلق بقوله : "لهم درجات" المعنى لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ، أي هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له . فأنجزك وعدك ، وأظفرك بعدوك ، وأوفى لك ؛ لأنه قال - عز وجل - : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٧] ، فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا كذا ينجزكم ما وعدكم به في الآخرة ، وهذا قول حسن ذكره النحاس ، واختاره" (١) .

هنا نجد القرطبي يستحسن القول الأخير هذا ؛ لما فيه من الترابط اللفظي ، والمعنوي الشديد ، ولما يوحيه من قياس ما لم يتحقق على المتحقق عياناً أمام المؤمنين .

وإذا كان "المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي : "وضعها في سياقات مختلفة" (٢) ، فإن هذا ما لاحظته القرطبي في دلالة معنى الآية ، فقد تكون صريحة في معنى ، ولكن سياقها المتصل بالنص يجعل المعنى ذا دلالة خاصة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٤] .

(١) تفسير القرطبي ٣٦٨/٧ .

(٢) علم الدلالة ، ص ٦٨ .

يقول القرطبي : "قال الحسن : هي الزكاة المفروضة ، وقال ابن جريج : وسعيد بن جبير : هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع . قال ابن عطية : وهو صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال ، وأن الله يدفع المؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا النذب إنما هو في سبيل الله ، ويقوي ذلك في آخر الآية قوله : "والكافرون هم الظالمون" ، أي : فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال . قلت : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق الأموال مرة واجباً ، ومرة ندباً بحسب تعيين الجهاد ، وعدم تعيينه" (١) .

وهذا الذي ينقله القرطبي عن ابن عطية ، ويتخذه رأياً في هذه الآية يُعدّ فهمًا دقيقاً لبناء النص ، بل إن الاستدلال بآخر الآية "والكافرون هم الظالمون" يُعدّ ربطاً بين الآيات من الناحية اللغوية ، فقد ذكر قريب من هذه الألفاظ قبل ذلك في قوله تعالى : "وانصرونا على القوم الكافرين" فكانت الألفاظ اللغوية لا زالت تدور حول محور القتال + الكفر + الإنفاق . وهي في دائرة ليست في دائرة الزكاة المفروضة التي يتكرر فيها ألفاظ الأجر ، والثواب ، والصدقة (٢) .

(١) تفسير القرطبي ٢٦٦/٣ .

(٢) ومن أمثلة ذلك : قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعَلِّمِينَ عَلَيْهَا ﴾ [سورة التوبة : ٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغُ مِنْ ذِكْرِكَ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [سورة الزمل : ٢٠] .

وعند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٨] .

يقول القرطبي : "أكد الله - تعالى - الزجر عن الركون إلى الكفار ، وهو متصل بما سبق من قوله تعالى : "إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب" (١) .

ومما يقوي ما ذهب إليه القرطبي قول البقاعي : "ولما كان الجمال بالمال لا سيما مع الإنفاق من أعظم المرغبات في الموالاة ، وكانت هذه الآية قد صيرت جميله قبيحاً وبدوله شحيحاً ، قال سبحانه وتعالى : مكرراً التنبيه على مكر ذوي الأموال والجمال الذين يريدون إيقاع الفتنة بينهم من اليهود والمنافقين ؛ ليضمحل أمرهم ، وتزول شوكتهم : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا" (٢) .

وقريب من هذا مناسبة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٩] لما سبق من آيات ذكر فيها الرسل وأتباعهم ؛ لأن الله تعالى لما أمر "بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر طاعة الكافرين ، يعني مشركي العرب : أبا سفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى ، وقال علي رضي الله عنه يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة "ارجعوا إلى دين آبائكم" (٣) . والظاهر عموم أولئك ؛ لأن صفة الكفر تشملهم جميعاً ،

(١) تفسير القرطبي ١٧٨/٤ .

(٢) نظم الدرر ١٤١/٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٢/٤ .

ومن التناسب ما تأتي الآية فيه زيادةً للبيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ  
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [سورة الشورى : ٢٤] ، فإن الله  
 تعالى : "لما قال : "وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب" ، وقال : "الله الذي  
 أنزل الكتاب بالحق والميزان" ، قال إتماماً للبيان أم يقولون افترى على الله  
 كذباً" (١) . وفي هذا الإتمام أيضاً قطع بمضمون الخبر بأن القرآن من عند  
 الله (٢) .

وزبدة القول أن الآيات الكريمة تأتي مترابطة ، متناسقة ، على وجه  
 معجز ذلك أننا "نلاحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تترل في أسباب مختلفة ،  
 وحوادث متفرقة ، ثم توضع في سورة واحدة ، وقد تكون بين الآيات التي  
 وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية  
 قصيرة لا تتعدى الأيام ، وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات ...  
 ولكننا عندما نقرأها نجد أن وحدة الموضوع تجمعها ، ومرمى الهدف والغاية  
 من سياقها جميعها شيء واحد" (٣) .

وفهم القرطبي لهذا الهدف جعله ينظر إلى وجه الربط بين الآيات التي  
 تكون في السورة الواحدة ، فهذه السورة أو تلك تستقل بترابطها ووحدها ،  
 وبما فيها من المعاني ، وأكد ذلك بقوله في سورة الفاتحة : ... وفي الفاتحة من  
 الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها ... ومن شرفها أن  
 الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ، ولا تصح القربة إلا بها ، ولا يلحق عمل  
 بثوابها . وبهذا صارت أم القرآن العظيم (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٢٥/١٦ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٦٢٥/٦ .

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي : أ.د. مصطفى مسلم ، دار العلم ، ص ٥٧ .

(٤) تفسير القرطبي ١١٠/١ - ١١١ .

ومعنى ذلك : أن القرطبي سبق علماء النص بقرون ، وهو لا يربط فقط بين السورة وما قبلها وما بعدها ، بل وبين السورة والكتاب كلها .  
ولعلّ من طريف التناسب بين الآيات التناسب الصوتي ، بحيث تراعى الفاصلة ، وتراعى تركيبية الضمائر وغيرها ، ومراعاة الفواصل في القرآن الكريم ، يدخل في صلب دراسة النص دراسة صوتية ، بل تُعد ظاهرة أسلوبية ، فالفاصلة ، ومراعاتها " تضي على السياق قيمة دلالية ، وجمالية بالغة الأهمية ، ولا يقتصر دورها على الناحية الصوتية الجمالية فحسب ، وإنما تأتي الفاصلة لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع بها ، وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني على نسق تتقاصر من دونه بلاغة البلغاء ، وتلك ميزة فنية في الأسلوب القرآني " (١) .

ومن الجدير بالذكر أن من البلاغيين ، والنقاد القدامى من تنبه إلى الأهمية الصوتية ، والدلالية المعنوية ، والربط بينهما ، فابن الأثير - رحمه الله - يدافع عن السجع ، ويؤكد أنه حليلة ينبغي أن ينظر إليها في دلالتها الصوتية ، والمعنوية (٢) .

وهو يهتم بالفاصلة ، والسجع بصفة عامة ، ويقسمه تقسيماً أقرب إلى روح الفن ، وليس كما عند المتأخرين الذين أولعوا بالتقسيمات المختلفة (٣) .

---

(١) البلاغة القرآنية ، دراسة في جماليات النص القرآني ص ١٠٣ .

(٢) انظر : المثل السائر ١/ ٣٧٠ .

(٣) انظر : فنون بلاغية البيان البديع : د. أحمد مطلوب ، دار البحوث ، الكويت ، ص ١٧٥ .

وزيادة على هذا الترابط بين الأداء الصوتي ، والمعاني ، هناك أيضاً تلازم بين الأداء ، وما يؤدي إليه من تأثير في المشاعر ، مما يؤدي إلى استجابة القارئ ، أو المستمع <sup>(١)</sup> .

ويؤكد سيد قطب - رحمه الله - على التأثير الصوتي في المشاعر ، فإن السور المحتوية على السجع نجدتها هي التي أثرت في العرب تأثيراً بيناً ، وهي لا تشريع فيها ، ولا غيب ، بل فيها ذلك التناسق الفني الصوتي <sup>(٢)</sup> ، ومع عدم التقليل من التأثير الصوتي في الفاصلة القرآنية ، فإنها لم تأت لغرض لفظي فحسب ، إنما جاءت لغرض معنوي يحتمله السياق ، ويقتضيه الحال والمقام .  
ومما يحسب للإمام القرطبي أنه لم يغفل الحديث عن دور الفاصلة القرآنية ، ويأتي حديثه عنها من جانبين :

### الأول :

تأكيده على أن الفاصلة القرآنية لها صلة كبيرة بسياقها ، ولم تأت من أجل المحافظة على رؤوس الآي فقط <sup>(٣)</sup> ، ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ إِن تَعِدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة المائدة : ١١٨] ، حيث يقول: قال أبو بكر ابن الأنباري : (من طعن على القرآن من قال : إن قوله إنك أنت العزيز الحكيم) ، ليس بمشاكل لقوله : ((وإن تغفر لهم)) ؛ لأن الذي يشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم .  
والجواب : أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله ، ومتى نقل إلى الذي نقله إليه ضعف

(١) انظر : النظم القرآني ص ١٧٥ .

(٢) انظر : التصوير الفني ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) انظر : الاتجاه البياني ص ٢١٩ .



معناه ، فإنه ينفرد الغفور الرحيم في الشرط الثاني ، فلا يكون في الشرط الأول تعلق ، وهو ما أنزله الله - عزَّ وجل - واجتمع على قراءته المسلمون مقرون بالشرطين كليهما ، أولهما وآخرهما ، إذ تلخيص إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، الأمرين كليهما من التعذيب ، والغفران ، فإن العزيز أليق بهذا المكان لعمومه ، فإنه يجمع الشرطين ، ولم يصلح الغفور الرحيم ، إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم ، وما شهر في بتعظيم الله تعالى وعدله ، والثناء عليه في الآية كلها ، والشرطين المذكورين أولى ، وأثبت معنى في الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض (١) .

نلاحظ الإمام القرطبي فيما نقله عن ابن الأنباري يربط الفاصلة وسياق الآية ، مما يؤدي إلى ارتباط معنوي لتركيب الآية الداخلي ، حيث يتجاوز الربط للجزء الأخير من الآية ، وهو قوله تعالى : " وإن تغفر لهم " ؛ لأن هذا المقام الشمولي هو الذي أدى إلى التذييل بقوله : " فإنك أنت العزيز الحكيم " .

وتأكيداً لهذا الارتباط الدلالي للفاصلة بما قبلها ، وأن مجيئها ليؤدي معنى لا تؤديه لفظة غيرها ، ولو كانت تلك اللفظة تؤدي إيقاعها ذاته ما ترويه لنا الأخبار عن الأعرابي بفطنته ، وحسه اللغوي العالي بأساليب العربية وذلك حين سمع أحد الصحابة يقرأ خطأ بما لا يتناسب مع المعنى "غفور رحيم" بدلاً من "عزيز حكيم" في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٩] .

(١) تفسير القرطبي ٣٧٨/٦ .

فقال الأعرابي : إن كان هذا كلام الله ، فلا ... إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه ، فعاد الصحابي إلى الآية ، فوجد نفسه على خطأ ، وصدق الأعرابي ، إذ لا معنى للغفران ، والرحمة بعد وضوح الحق ، وقيام الحججة على الجاحد ، مما يؤكد أن الاتساق بين الفواصل ثمرة للناتج الدلالي المستهدف ، ولم يكن برعاية الفاصلة على حساب المعنى<sup>(١)</sup> .

ونستطيع أن نقول : إن الفاصلة في القرآن تأتي مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ، ولا قلقة ويتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، بحيث لو طرحت لاحتل المعنى ، واضطرب الفهم ، ولا يجوز أن يقوم مقامها لفظ آخر<sup>(٢)</sup> .

وفي جانب آخر ، نجد الاهتمام بالدلالة والسياق يحملان القرطبي على أن ينكر أن يكون هناك لفظ في القرآن جاء لدلالة لفظية فقط ، فعند قوله تعالى : ﴿ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ [سورة الرحمن : ٤٦] .

ينكر على الفراء قوله : إن العدول هنا من جنّة إلى جنتان ، إنما هو لموافقة الفاصلة ، فإن هذا كما يقول : (من أعظم الغلط في كتاب الله - عز وجل -) <sup>(٣)</sup> . يُعلّق د. حسونة على موقف القرطبي هذا بقوله : " وهذه لفظة مضيئة ، ووقفه صامدة ، تحسب للقرطبي " ، ولم يكن القرطبي وحده في هذه الحلبة ، فقد سبقه جهابذة في هذا الإنكار ، منهم ابن قتيبة ، والزرکشي ،

(١) البلاغة القرآنية ص ١١٠ .

(٢) انظر : من بلاغة القرآن ص ٦٥ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧٧/١٧ .

والرازي الذي عدّ هذا الرأي ... من التعسف ، وأضاف أنه لا مانع من أن يعطي الله جنتين ، وجنان عديدة ، وكيف وقد قال : (ذواتا أفنان) <sup>(١)</sup> .

ولم يتوقف القرطبي عند هذا البيان ، بل هناك اتجاه آخر لاهتمامه بالفاصلة القرآنية ، وهو تجاوز ربطها بالمعنى ، والسياق إلى كونها سر من أسرار النسق الصوتي القرآني ، ولذا نجدّه يُشير إلى بعض أوجه الحذف لهذا

التناسق ، ففي قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۗ ﴾ [سورة الضحى : ٣] .

يقول : "وما قلى أي : ما أبغضك ربك منذ أحبك ، وترك الكاف ؛ لأنه رأس آية ، والقلى البغض ... وتأويل الآية ما ودعك ربك وما قلاك ، فترك الكاف ؛ لأنه رأس آية كما قال - عز وجل - : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) ، أي : الذاكرات الله <sup>(٢)</sup> ، كما أن أبا حيان يرى أنه ترك المفعول به اختصاراً <sup>(٣)</sup> .

إن هذا الترك هو لتساق الفواصل ، وهي لا شك تابعة للمعنى ، فالحذف هنا كما تقول د. عائشة عبدالرحمن : " تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة يفني اللطف ، والإيناس هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس : ما قلاك ؛ لما في القلى من الطرد ، والإبعاد ، وشدة البغض أما التوديع ، فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعلّ الحس اللغوي فيه يؤذن للفراق على كرهه ، مع رجاء العودة واللقاء " <sup>(٤)</sup> .

(١) النظم القرآني ص ١٧٨ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٢٠ - ٩٤ .

(٣) انظر : البحر المحيط ٤٨٥/٨ .

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم ٣٥/١ .

فهذه الفاصلة مع دلالتها المعنوية ، العميقة ، جاءت على نسق صوتي بديع يؤثر في الشعور ، ويعطي دلالة نفسية مؤثرة تثبت في الفؤاد الطمأنينة والارتياح ، لا سيما للمخاطب في هذه الآية ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وتبدو أهمية أداء الفاصلة الصوتي في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥-٨٠] .

حيث يعلق القرطبي على غياب الياء في قوله : (يهدين ويشفين) بقوله (وكله بغير ياء يهدين يشفين ؛ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن ، لتتفق كلها) <sup>(١)</sup> .

إن القرطبي هنا يشير إلى مدى الاتفاق في هذه الفواصل ، التي أعطت بعداً صوتياً ، مؤثراً ، فعبارته هذه كما يقول د. حسونة : " في موضعها المناسب " <sup>(٢)</sup> .

ولمراعاة الفاصلة جاءت كلمة تبتلياً في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ أَنَّمَّ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المزمل : ٨] ؛ لأن معنى "تبتل" "بتل" نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل <sup>(٣)</sup> .

(١) تفسير القرطبي ١١١/١٣ .

(٢) النظم القرآني ص ١٧٧ .

(٣) تفسير القرطبي ص ١٩ - ٤٤ .

وكان الزمخشري قد أشار إلى هذا من قبل<sup>(١)</sup> ، والذي يلفت النظر أن وراء هذا العدول من "تبتل" إلى "تبتيل" سرّاً آخر ، وهو كما يقول د. السامرائي " وكان من المتوقع أن يقول "وتبتل إلى ربك تبتلاً" ، غير أنه لم يقل ذاك وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين حق التبتل والتبتيل ، وذلك أن التبتل على وزن التفعّل ، وتفعّل يفيد التدرج ، والتكلف ... ، وأما فعّل فيفيض التكثير والمبالغة ... فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ، ثم جاء بالمصدر بمعنى آخر ، وهو التكثير ، ولكنه أراد معنيين فجاء بالفعل من صيغة ، والمصدر من صيغة أخرى ، وجمعهما فهو بدل أن يقول وتبتل إليه تبتلاً ، وتبتل نفسك إليه تبتيلاً ، جاء بالفعل بمعنى ثم جاء من المصدر بمعنى آخر ، ووضعهما وضعاً فنياً ، فكسب المعنيين في آن واحد ، وهذا باب شريف جليل<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان القرطبي أشار إلى وجود اللفظ المناسب للفاصلة دون غيره ، فهي إشارة منه إلى أهمية هذا الجانب ، وليس إغفالاً لدوره المعنوي ، والسياقي الذي أشار إلى أهميته من قبل . ومن هنا نجد أنه يشير إلى المعنى اللغوي مكتفياً بذلك كما في قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [سورة الطارق : ٦] ، حيث يقول : (فهو ماء دافق ، أي مدفوق ، كما قالوا : سر كاتم أي مكتوم)<sup>(٣)</sup> .

وبصورة أعمق ، يتحدث الإمام الزمخشري عن هذا بقوله : " النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق كاللابن ، والتامر ، أو الإسناد المجازي ،

(١) انظر : الكشف ٤/ ١٧٧ .

(٢) التعبير القرآني ص ٣٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠ .

والدفع في الحقيقة لصاحبه <sup>(١)</sup> . فإنه لما كان صاحب الماء هو الدافع أطلق الفعل على الماء على سبيل المجاز <sup>(٢)</sup> .

ونجد القرطبي أحياناً يذكر جواز ذلك في لغة العرب دون إشارة إلى أهمية الأداء الصوتي ، أو الدلالة المعنوية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ [سورة الفجر : ٤] ، وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، ويعقوب يسري بإثبات في الحالين على الأصل ؛ لأنها ليست بمجزومة ، فثبتت فيها الياء ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو بإثباتها في الوصل ، وبحذفها في الوقف ، وروي عن الكسائي ، قال أبو عبيدة : قال الكسائي يقول : مرة بإثبات الياء في الوصل وبحذفها في الوقف إتباعاً للمصحف ، ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً ؛ لأنه رأس آية ، وهي قراءة أهل الشام ، والكوفة ، واختيار أبي عبيدة إتباعاً للخط ؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء .

قال الخليل : تسقط الياء منها لرؤوس الآي .

قال الفراء : قد تحذف العرب الياء ، وتكتفي بكسر ما قبلها ، وأنشد

بعضهم :

كفأك كف ما تليق درهماً ... جوداً وأخرى تعطى بالسيف الدما <sup>(٣)</sup> .

من خلال كلام القرطبي السابق ، اتضح اهتمامه الكبير بسبب حذف الياء ، وهو للفاصلة ، وهو يذكر آراء كثيرة ، وكأنه يريد أن يؤكد أهمية ذلك ، وأنه من صحيح لغة العرب ، ومن وجوه بلاغة الكلام ، وبراعته .

(١) الكشاف ٢٤١/٤ .

(٢) انظر : تفسير الرازي ١٢٨/٣١ .

(٣) تفسير القرطبي ٤٢/٢٠ .

ومن خلال ما سبق ، ندرك أن الفاصلة في القرآن تأتي تبعاً للمعنى ، ومقتضى الحال ، والسياق ، ويراعى فيها جرس الكلام ، بل وجو السورة ودلالاتها التعبيرية ، والفنية ، بل ويراعى فيها عموم التعبير القرآني الكريم<sup>(١)</sup> .

ومن هذا نجد أن هذه الفواصل تختلف من سورة إلى أخرى ، كما يقول سيد قطب - رحمه الله - : تبرز الفاصلة بروزاً واضحاً في السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير ، والتشخيص بصفة عامة ، وتتوارى قليلاً ، أو كثيراً في السور الطوال ، حتى تنفرد الدقة دونه في آيات التشريع<sup>(٢)</sup> ولقد وجدنا الإمام القرطبي يهتم بجزء كبير من طبيعة هذه الفواصل ، وأدائها الصوتي مندرجاً تحت التناسب العام للآيات ، والسور ، حيث تكون من ذلك كله تناسق معنوي، وصوتي بديع في هذا القرآن الكريم.

وزيادة على ما سبق نجده يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣] : " وقرأ حمزة : " وأنا اخترناك " ، والمعنى واحد ، إلا أن " وأنا اخترتك " هاهنا أولى من جهتين : إحداهما : أنها أشبه بالخط . الثانية : أنها أولى بنسق الكلام ؛ لقوله تعالى : " يا موسى إني أنا ربك فاخضع نعليك " وعلى هذا النسق جرت المخاطبة ، قاله النحاس<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر : التعبير القرآني ص ٢٤١ .

(٢) انظر : التصوير الفني ص ١٠٣ .

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٧٦ .

ويوجه القراءة تبعاً لذلك التناسب . قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٤] .

قال القرطبي : "قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وحمزة والكسائي فيغفر ويعذب بالجزم عطفاً على الجواب وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع فيهما على القطع أي فهو يغفر ، وروى عن ابن عباس والأعرج ، وأبي العالية وعاصم الجحدري بالنصب فيهما على إضمار أن ، وحقيقته أنه عطف على المعنى كما في قوله تعالى : " فيضاعفه له ... والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة " (١) .

وتخضع جودة القراءة عند القرطبي لدلالاتها البلاغية ، وللتناسق الصوتي لأنه يرى الدقة في الدلالة لقراءة دون أخرى فعند قوله تعالى : ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤] . يقول : "وقراءة ابن عباس : "والله يشهد على ما في قلبه" ، وقراءة الجماعة أبلغ في الظم لأنه قوى على نفسه التزام الكلام الحسن ثم أظهر من باطنه خلافه" (٢) .

وانطلاقاً من مناسبات الآيات التي كونت السور القرآنية ، وأصبح لكل سورة ميزاتها ، وجوها الخاص ، وبنائها المحكم لا بد أن يكون هناك ترابط بين هذه السور التي كونت هذا القرآن العظيم ، ولهذا يأتي دور التناسب بين السور محاولة من القرطبي تحسب له .

\*\*\*\*\*

(١) تفسير القرطبي ٤٢٤/٣ .

(٢) السابق ١٥/٣ .



## ب- تناسب السور :

إن الحديث عن تناسب السور وارتباط بعضها ببعض جاء من كون هذا الترتيب توقيفي على الرأي الصحيح كما سبق<sup>(١)</sup> . فهذا الترتيب له أثر كبير في النص القرآني عامة .

وإذا نظرنا إلى سور القرآن الكريم وجدنا كل سورة تحتفظ بوحدة خاصة تحت وحدة النص القرآني كاملاً .

يقول القرطبي عند سورة الأنعام : "قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة ؛ لأنها في معنى واحد من الحجّة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة" (٢) .

ومن هنا ينبغي النظر إلى النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها . ثم النظر إلى علاقة كل نظام بالسورة الأخرى . وهناك يتبدى من الصلات الأمر الكبير .

وقبل النظر في تناسب السور عند الإمام القرطبي يجدر بنا الوقوف سريعاً على التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها وحدة مستقلة مترابطة ، ومما ينبغي التنبيه إليه "أن من خصائص نظم القرآن الكريم مجيء خواتم السور كفواتحها بجماع الحسن ؛ لأن فاتحة السورة أول ما يقرع الأذن ، ويثير الانتباه ، وخاتمة السورة آخر ما يقرع السمع ويحسم الموقف" (٣) .

(١) انظر : ص ٢٣٢ من هذا البحث .

(٢) تفسير القرطبي ٦/٣٨٣ .

(٣) البرهان ١/١٢٠ .

إن فواتح السور تنوع ، فقد يكون بالثناء إما عن طريق إثبات صفات المدح أو التزويه ، كما في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۗ ﴾ [سورة الإسراء : ١] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۗ ﴾ [سورة الأعلى : ١] ، وهو كما يقول الزركشي : "سر عظيم من أسرار الألوهية" .

وقد يكون الاستفتاح بحروف التهجي <sup>(١)</sup> ، وقد ذكر الإمام الزركشي أقوال العلماء في ذلك ، كما أن الإمام القرطبي ينقل أهمية البحث في سر هذه الأحرف بقوله : "وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها" <sup>(٢)</sup> .

وقد يكون الاستفتاح بالنداء أو بالجمل الخبرية ، أو بالقسم ، أو بالشرط ، أو بالأمر ، أو بالاستفهام ، أو بالتعليل ، ومجمل هذه الاستفتاحات نجد أنها مما يشد الانتباه ، ويُعد مدخلاً لما بعده مما هو داخل في إطار المقدمة ، حتى تأتي خاتمة السورة لتكون متناسبة مع موضوعها ، ومع افتتاحها . ولذا فإن خواتم السور "هي أيضاً مثل الفواتح في الحسن ؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع ، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد ؛ لأنها بين أدعية ووصايا ، وفرائض ، وتحميد ، وتهليل ، ومواعظ ، ووعد ، ووعد ... إلى غير ذلك" <sup>(٣)</sup> .

(١) انظر : البرهان ١/١٢١ .

(٢) تفسير القرطبي ١/١٥٥ .

(٣) الإتقان ، ص ٦٩١ - ٦٩٢ .

يعلق القرطبي في نهاية سورة آل عمران بقوله : "فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر ، والاستدلال في آياته ، إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدوس ، سلام غني عن العالمين، حتى يكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين ، لا إلى التقليد" (١) .

وهي خاتمة تتسق مع جو السورة التي تضمنت الحديث عن القوى المتصارعة ، وأن قوة الله هي الأعلى ، وكأن في ذلك إشارة إلى توجيه نظر المتأمل إلى هذه الآيات والقوة التي وراءها ، ففيه تثبيت للمؤمنين ولا سيما أن فيها الحديث عن الهزيمة بعد معركة بدر (٢) . ولا ينخدع الكافر بقوته ، فهي أمام قوة الله وإعزازه ، وإذلاله لا شيء .

وينظر الإمام القرطبي إلى التناسب بين بداية السورة وخاتمها في بيان وحدتها ، وترابطها ، فيقول عند سورة النور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [سورة النور : ٦٢] .

وبيّن تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما التزول على محمد صلى الله عليه وسلم ، فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته - عليه السلام - يعلم أن أوامره كأوامر القرآن" (٣) .

وهذا الحديث عن الآيات والقرآن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يتصل في اتساق باهر في سورة الفرقان التي مقصودها "ذكر موضع عظم القرآن وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم ، فمن جملتها قولهم : إن القرآن افتراه محمد وإنه ليس من عند الله" (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٣١٠/٤ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٣٥٤/١ .

(٣) تفسير القرطبي ٣٢٠/١٢ .

(٤) تفسير القرطبي ١/١٣ .

هذه النظرة إلى ترابط السور في بدايتها وخواتيمها ، بل ومناسبة بعضها لبعض ينظر الإمام القرطبي حيث لم يغفل هذا التناسب الذي يكون بناء القرآن الكريم . وقد تنوّعت نظرتّه إلى إدراك التناسب بين السور ، فمنها أنه يلفت النظر إلى الربط بين السور ربطاً لغوياً قائماً على التركيب النحوي ، ثم ينص على أن القرآن كالسورة الواحدة يقول عند قوله تعالى : ﴿ لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١ ﴾ [سورة القيامة : ١] : " قيل : إن "لا" صلة . وجاز وقوعها في أول السورة ؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض ، فهو في حكم كلام واحد ، ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ومجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾ [سورة الحجر : ٦] وجوابه في سورة أخرى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ۝٢ ﴾ [سورة القلم : ٢] .<sup>(١)</sup>

وفي بداية حديثه عن سورة قريش يقول : "قيل إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى .. يقول : أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش أي : لتألف ، أو لتتفق قريش ، أو لكي تأمن قريش ، فتؤلف رحلتها"<sup>(٢)</sup> . وفي الحديث : "قالوا يا رسول الله نراك قد شبت ! قال : شيبني هود وأخواتها" .

يعلق القرطبي على هذا بقوله : "وأما سورة هود فلما ذكر الأمم وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم ، ولكن

(١) تفسير القرطبي ٩١/١٩ .

(٢) السابق ٢٠/٢٠٠ .

الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحيان حتى يقرأوا كلامه ، وأما أخواتها فما أشبهها من السور ، مثل : "الحاقة" ، وسأل سائل ، إذا الشمس كورت ، والقارعة" ، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه ، وبطشه فتذهل منه النفوس وتشببت منه الرؤوس<sup>(١)</sup> .

وهذه الصلة المعنوية بين هذه السور هي التي جعلت تأثيرها واضحاً على الواقع ويلمسه كل من كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وتبدو الصلة واضحة بين سورة التوبة ، وسورة يونس ، فإن في نهاية التوبة حديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وذكر لصفة عزيزة له وهي أنه "من أنفسكم" ، حريص على المؤمنين رحيم بهم ، لا يهمله إلا شأهم وهو القائم بالشفاعة لكم ، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة<sup>(٢)</sup> .

وفي بداية سورة يونس "يبدو الموقف غريباً من قريش أمام هذا النبي الرحيم الحريص ، لذلك ورد سبب نزول قوله تعالى : "أن أوحينا إلى رجل منهم" ، أن الكفار قالوا لما بعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب"<sup>(٣)</sup> ، فالحديث الجامع بينهما هو الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> .

أما الإمام السيوطي فيتجاوز إلى ربط سورة يونس بما قبلها من السور فمطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، ففي سورة يونس ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا

(١) تفسير القرطبي ١/٩-٢ .

(٢) انظر : السابق ٣٠٢/٨ .

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٦/٨ .

(٤) انظر : دراسات في التفسير الموضوعي ، ص ٨٤ .

أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ  
 الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ [سورة يونس : ٢] ، فقدم الإنذار ،  
 وعممه ، وأخر البشارة ، وخصصها ، وقال تعالى في مطلع الأعراف :  
 ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾  
 [سورة الأعراف : ٢] <sup>(١)</sup> .

كما يبرز الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في سورتين  
 أخريين هما سورة الضحى ، وسورة الشرح ، فإن الحديث عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم هو المسيطر على هاتين السورتين الكريمتين ، وهما متواليتان ،  
 فمقصود سورة الشرح هو "تفصيل ما في آخر سورة الضحى من النعمة ،  
 وبيان أن المراد بالتحدث بها هو شكرها بالنصب في عبادة الله والرغبة إليه  
 بتذكر إحسانه ، وعظيم رحمته الربوبية ، وامتنانه ، وعلى ذلك دل اسمها  
 "الشرح" <sup>(٢)</sup> .

ويروي القرطبي عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال :  
 الكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلامي <sup>(٣)</sup> ،  
 وما هذا إلا للصلة الكبيرة بين هذه السور .

يقول الإمام البقاعي : "لما ختمت طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي  
 والسعيد ، وكان هذا العلم تارة يكون في الدنيا بكشف الحجاب بالإيمان ،

(١) انظر : أسرار ترتيب سور القرآن ص ٥٤ .

(٢) نظم الدرر ٤٦٠/٨ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ٢٦٦/١١ . وتلامي : التالذ للمال القديم ، الأصلي ... وقيل  
 التلاد : كل مال قدم من حيوان وغيره يورث عن الآباء . وفي حديث عبدالله بن  
 مسعود أنه قال في سورة بني إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ... (هن من  
 العتاق الأول وهن من تلامي ، يعني السور ، أي من قدم ما أخذت من القرآن شبههن  
 بتلاد المال) . انظر : لسان العرب ، مادة (تلد) .

وتارة بمعاناة ظهور الدين ، وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الروح بقتل أو غيره ، وتارة ببعثها يوم الدين افتتحت هذه "الأنبياء" بأجلى ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين ، وهو يوم الحساب" (١) . ولكنه - رحمه الله - يحاول الربط بين خاتمة سورة مريم ومطلع سورة طه بكلام فيه شيء من البعد ، حيث حمل "طه" هذه الحروف الكثير من الرموز (٢) . وهذه الحروف مختلف في تفسيرها . ولعلّ ما لم يكن واضحاً جلياً يكون غيره من أسرار هذا الكتاب العزيز .

أما سيد قطب - رحمه الله - فيربط بين هذه السور من ناحية الموضوع والمعالجة والجو العام ، بل وأدائها الصوتي ، فهي تعالج قضية التوحيد ، وعرض القصص التي فيها إبراز لأهمية العقيدة (٣) . وما أجمل قوله - رحمه الله - : "ويزيد هذا وضوحاً بموازنة قصة إبراهيم - عليه السلام - في مريم ونظمها هنا "سورة الأنبياء" وكذلك بالتأويل في الحلقة التي أخذت منها هنا ، والحلقة التي أخذت منها هناك ، ففي سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرضي بين إبراهيم وأبيه . أما هنا "سورة الأنبياء" فجاءت حلقة تحطيم الأصنام وإلقاء إبراهيم في النار ؛ ليتم التناسق في الموضوع والجو ، والنظم ، والإيقاع" (٤) .

---

(١) نظم الدرر ٦٣/٥ .

(٢) انظر : السابق ٣/٥ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٢٣٦٤/٤ .

(٤) السابق ٢٣٦٦/٤ .

ويذكر الإمام السيوطي شيئاً من التناسب بين هذه السور ، بقوله :  
 "ومنها" أي التناسب بين السور أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل  
 على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة - أردفه بذكر الكتاب المشتمل على  
 الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما في سورة  
 الكهف ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [سورة الكهف :  
 ٤٩] ، وقال في طه : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [سورة  
 طه : ١٠٢] إلى قوله : ﴿ فَفَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
 يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [سورة طه : ١١٤] <sup>(١)</sup> .

وينظر الإمام القرطبي إلى رابط آخر يجمع بين سور القرآن ، فهو عند  
 الآية الأخيرة من سورة الفتح وهي قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ  
 عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكَاةً سَجَدًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] يسهب في ذكر  
 فضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> . ثم يعقب قائلاً : "فإن  
 خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم - رضي الله  
 عنهم - ممن أثنى الله عليهم وزكاهم - ورضي عنهم وأرضاهم ، ووعدهم  
 الجنة بقوله : "مغفرة وأجرًا عظيمًا" ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة  
 بإخبار الرسول هم القدوة، مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم  
 بعد نبينهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ  
 كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد وكل مجتهد مصيب وسيأتي الكلام

(١) الإتيان ص ٦٩٨ ، وانظر : أسرار الترتيب سور القرآن ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٩٧/١٦ وما بعدها .



في تلك الأمور في سورة الحجرات - إن شاء الله -<sup>(١)</sup> . وما أريد أن أقوله بعد هذا هو أن القرطبي أراد أن يوضح تماسك السورتين في كون سورة الحجرات تعالج ما يقع من الأخطاء المبنية على الاجتهاد ، وذلك امتداد لموضوع الصحابة رضي الله عنهم في آخر سورة الفتح ، كما أن في هذه السورة أيضاً محور النبي صلى الله عليه وسلم وهو محور امتد من سورة محمد "القتال" ، فهو سبحانه "لما نوّه في "القتال" بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في ابتدائها باسمه الشريف ، وسمى السورة به وملاً سورة محمد بتعظيمه وختمها باسمه ، ومدح أتباعه لأجله ، افتتح هذه "الحجرات" باشتراط الأدب معه في القول ، والفعل للعد من حزبه ، والفوز بقربه ، ومدار ذلك معالي الأخلاق<sup>(٢)</sup> .

ويظهر التماسك بين "الحواميم" وسورة "محمد" جلياً ، حيث إنه "لما أقام سبحانه الأدلة في "الحواميم" حتى صارت كالشمس لا يزيغ عنها إلا هالك"<sup>(٣)</sup> ، وختم بأنه لا يهلك بعد هذه الأدلة إلا القوم الفاسقون افتتح سورة "محمد" بالتعريف بهم "إذ أنه لا يهلك إلا هالك مشرك ، وهم في بداية سورة محمد الكفار سواء أكانوا كفار قريش<sup>(٤)</sup> أو عامة الكفار" .

ويبدو الربط اللغوي واضحاً هنا ، فإن هناك تلازماً لغوياً بين مفردة الهلاك والضلال . حيث يلمح التلازم بين الكفر والصد ، ثم الضلال والهلاك .

(١) تفسير القرطبي ٢٩٩/١٦ .

(٢) نظم الدرر ٢٢٠/٧ .

(٣) نظم الدرر ١٤٨/٧ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٢٢/١٦ - ٢٢٣ ، وانظر لمزيد من الأمثلة : ٥٢/٧ ، ٦/٩ ،

٢٥٠/١١ ، ٢٢٦ ، ٢٨٨/١٧ ، ٦١/١٨ ، ٢٥٢ .

فهنالك تصاعد بين هذه المفردات اللغوية ليعطي تكاملاً لهذه السور  
الكريمة التي صورت في جلاء الترابط المعنوي واللغوي بينها .

وبعد هذا ندرك كم ساهم القرطبي في البحث عن ترابط النص القرآني  
الكريم ، وهذا الترابط لا يدرك إلا بالتأمل في الآيات ، والنظر فيها ، وهو أمر  
دعانا الله إليه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد :

. [ ٢٤

\*\*\*\*\*

## المبحث الثاني

# التناسب بين النص القرآني في ضوء النصية المعاصرة

## المبحث الثاني

### التناسب بين النص القرآني في ضوء النصية المعاصرة

تكمن أهمية الدراسة النصية في أنها تنظر إلى أن النص "لا يتكون من مجرد جمل متتابعة ، وليس المقصود بتجاوز حد الجملة تجاوز الحد الشكلي ، أو المعجمي للجملة ، وإنما المقصود بهذا التجاوز تجاوز التحليل الجزئي ، والمستوى اللغوي إلى تحليل أعم وأشمل وإلى مستويات غير المستوى اللغوي ، وهو المستوى الدلالي ، والموضوعي ، والسياقي ، والتواصلي" (١) .

وهذه النظرة الشمولية هي التي تعطي رؤية أفضل للنص ، إلا أن هناك أمراً مهماً قبل الدخول إلى النص . وهذا الأمر هو كما يقول د. صلاح فضل أن النص يرتبط بموضوعه الكلي ، أو الهدف وراء هذا النص (٢) ؛ لأن فهم الهدف ، والموضوع هو الذي يجعل النظرة إلى هذا النص دقيقة ، وترد كافة الجزئيات فيه إلى غرضه الكلي . وهذا الفهم هو الذي ينبغي أن يدرك عندما ننظر إلى القرآن الكريم فهو في كل جوانبه يرجع إلى غرضه الأصلي وهدفه الأكبر ، وهو هداية الناس إلى الله رب العالمين .

فإذا درست المظاهر الجمالية ، واللغوية ، فيجب ردها إلى ذلك الهدف الكبير ، وهو أن القرآن كتاب هداية ، ودين ، وعقيدة في الدرجة الأولى . فكل ما نجده في القرآن من شرائع وقصص يجب أن يرد إلى هذا الهدف ، فالقصة في القرآن مثلاً "ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه ، وطريقة عرضه ، وإدارة حوادثه ، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ، التي

(١) نحو النص ، ص ٥٧ .

(٢) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص ٣١٠ ، وانظر : دليل الناقد الأدبي ، د. ميجان

الرويلي ، د. سعد البازعي ، المركز الثقافي ، ص ٢٦٣ .

ترمي إلى أداء غرض في طليق ، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء" (١) .

وهذه النظرة هي من وجوه النصية الحديثة . فمن الجور إذاً النظر إلى القرآن بعيداً عن هدفه الأصلي .

ومن هذا المنطلق فإن النظرة اللغوية ، والبلاغية إلى القرآن ينبغي أن تكون تحت الإطار العام لفهم القرآن الكريم ، وكما يقرر علماء النص المحدثون فإن البنية اللغوية ليست إلا بنية صغرى للنظر إلى ما يحتويها من بنية أكبر (٢) .

وعلى هذا فإن نظرتنا إلى القرآن تنطلق من فهم عام لأغراضه ، وأهدافه لهداية البشر ، وما لغته ، وبلاغته إلا جزء من هذا الهدف العظيم ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يمثل نصاً متكاملًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل إن الآية فيه تمثل نصاً متكاملًا ، ولولا ذلك لما أنزل منجماً . فالعبارة "في النص لا تتمثل في حجمه ، أو احتوائه على سلسلة من الجمل ، وإنما تتمثل في توافر المعايير النصية فيه ، ولو كان مكوناً من جملة واحدة" (٣) . وإذا كان الحديث فيما سبق انطلق من نص الجملة "إن صح التعبير" ، ثم إلى نص السورة ، فهنا الحديث عن القرآن ككل ، وكيف نظر إليه الإمام القرطبي من خلال تفسيره .

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ١٤٣ .

(٢) انظر : نحو النص ، ص ٦٠ .

(٣) السابق ، ص ٥١ .

إن الإمام القرطبي ينظر إلى القرآن على أنه قد توفرت فيه مقومات البلاغة العليا ، وهي النظم ، والجزالة ، والأسلوب ، وهذه ليست فقط للقرآن ، بل لكل سورة ، بل لكل آية <sup>(١)</sup> ، وهي رؤيا إلى تكامل الآية ، فضلاً عن القرآن كله .

ولعلّ أول ما ينبغي النظر إليه هو فاتحة الكتاب "الفاتحة" التي "افتتح سبحانه كتابه بها ؛ لأنها جمعت مقاصد القرآن ، لذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس . فصارت كالعنوان ، وبراعة استهلال" <sup>(٢)</sup> حيث إنها تضمنت جميع علوم القرآن ، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله - عزّ وجل - بأوصاف كماله ، وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها ، إلا بإعانتة تعالى ، وعلى الابتهاج إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين" <sup>(٣)</sup> . فما بعدها في القرآن هو تفصيل لما في هذه السورة الكريمة ، حيث إن الكلام سيكون بعدها كالكلام بعد المقدمة إلى التفصيل . وفي هذا استشراف للنفس ، وتطلع من الضمير لما بعدها <sup>(٤)</sup> .

وتأتي سورة البقرة على طولها ليكون مقصودها وصف الكتاب فقط ، وما عدا ذلك فتوابع ، ولوازم ولن يثبت أنه هدي إلا بإثبات أنه حق معنى ونظماً .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧٣/١ .

(٢) أسرار ترتيب سور القرآن : للإمام السيوطي ، المكتبة العصرية ، ص ١٧ .

(٣) تفسير القرطبي ١١٢/١ .

(٤) انظر : نظم الدرر ١١/١ .

إن القرآن في هذه الإشارة : "ذلك الكتاب لا ريب فيه" تقرير لماهية هذا الكتاب ، ثم بيان موقف الناس منه ، والنهاية : "أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم لا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض" (١) ، بل هم "كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله" ، وقد نظر القرطبي إلى بناء هذه السورة الكريمة من خلال هذا التدرج : المقدمة : وهي التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه هداية ، ورحمة .

المقصد الأول : في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام .

المقصد الثاني : في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة لترك باطلهم ، وإتباع الإسلام .

المقصد الثالث : في عرض شرائع من هذا الدين .

المقصد الرابع : ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على إتباع هذه الشرائع .

خاتمة في التعريف في الذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة" (٢) .

ولعلَّ هذا الحديث عن أهل الكتاب ، ومحاجتهم يحتاج إلى زيادة بيان فتأتي سورة "آل عمران" لبيان ذلك ، وذكر القرطبي أن صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران النصارى (٣) إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- .

إن هذا الربط بين سور القرآن الكريم لا يمكن الوصول إلى كل دقائقه إلا بالتأمل الدقيق الذي توصل إليه القرطبي في تفسيره ، فهو عند قوله تعالى :

(١) انظر : نظم الدرر ٣/٣٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣/٤٢٩ .

(٣) النبأ العظيم ، ص ٢٠٤ .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ۗ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [سورة الزمر : ٣] . يقول : "يعني الأصنام ، والخير محذوف ، أي قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، قال قتادة : كانوا : إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله . فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ . قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده . ويذكر القرطبي أن : جواب هذا الكلام في الأحقاف نقلًا عن الكلبي ، وهو قوله تعالى : "فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا لآلهة" (١) . فهذا ربط بين سورتين هو بمثابة بيان الصلة بين آيات القرآن الكريم من الناحية المعنوية .

وعند قوله تعالى : "إنا أنزلناه في ليلة القدر" [القدر : ١] : نلاحظ مدى حرص القرطبي على النظر إلى القرآن كوحدة كاملة ، حيث يقول : "إنا أنزلناه" ، يعني : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة ، وقد قال : "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن" ، وقال : "حم والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة" (٢) .

فعدم ذكر القرآن هنا ؛ لأنه سبق له ذكر في سورة سابقة ، فيترك ذكره هنا لدلالة ما سبق عليه ، كما أن في إضماره دلالة لفت للنظر إلى قضية الإنزال التي يجادل فيها الكفار ، وفيه أيضًا دلالة تفخيم وتعظيم (٣) ،

(١) تفسير القرطبي ١٥/٢٣٣ .

(٢) السابق ٢٠/١٢٩ .

(٣) انظر : نظم الدرر ٨/٤٩٠ .



ولا سيما أن هذه السورة تأتي في أخريات ما يتلى من المصحف ، فكأن الأمر في شأن القرآن قد اتضح مما سبق .

كما دأب القرطبي على تفسير القرآن بعضه بعضاً ، فيذكر عند آية التفسير الآيات المشابهة لها التي توضحها كما عند قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة النحل : ٤] ، قال : لما ذكر الله الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكرته ، وتعدي طوره "الإنسان اسم جنس ، وروى أن المراد به أبي بن خلف الجمحي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعظم رميم ، فقال يجيئ الله هذا بعدما قد رمم؟ ، وفي هذا أيضاً نزل : "أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين" ... فمعنى الكلام التعجب من الإنسان "ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه" (١) .

فالإمام القرطبي هنا يربط بين الآيات ، ثم يتجاوز ذلك ، ويربط بين القرآن بتفسير الآية بالأخرى ، كما نراه يشير إلى أسباب التزول وهو سبب خارجي له دور في فهم القرآن ، بل وفهم النص بشكل عام ، كما ترى الأسلوبية المعاصرة .

ويستدل على معنى الآية المحتمل بأية أخرى واضحة الدلالة ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّجَالِ يَوْمًا ﴾ [سورة النحل : ٦٨] ، وقوله : "قد مضى القول في الوحي ، وأنه قد يكون بمعنى الإلهام . وهو ما يخلقه الله في القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : "ونفس وما سواها . فأنزلها فجورها وتقواها" ، ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها ، وتدبير معاشها ، وقد

(١) تفسير القرطبي ٦٨/١٠ .

أخبر - عز وجل - بذلك عن الموات ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُكَ أَخْبَارَهَا ﴾ [سورة الزلزلة : ٤] <sup>(١)</sup> .

ومن الملاحظ أن القرطبي يذكر الآيات التي تشتمل على معنى واحد يلامس جزءاً مهماً من تحليل النص ، وهذا الجمع بين الآيات ذات الهدف المشترك ، وتناولها بالشرح ، والبيان ، يسمى في عصرنا (بالتفسير الموضوعي للقرآن) <sup>(٢)</sup> .

قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] . يقول القرطبي : "أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل ، وهو التسبيح ... ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : "وإن من شيء إلا يسبح بحمده .." ، واختلف في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقال : فرقة ليس مخصوصاً ، والمراد به تسبيح الدلالة ... وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفهمه" <sup>(٣)</sup> . ثم يرجح القول الثاني ويستدل على ذلك من القرآن بآيات أخرى تتضافر فيها قوة الدلالة على ذلك : "قلت ويستدل لهذا التأويل ، وهذا القول من الكتاب ، يقول تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ١٧] إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ ﴾ [سورة ١٨]

(١) تفسير القرطبي ١٠/١٣٣ .

(٢) انظر : دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ص ٢٢ ، وكتاب الوحدة

الموضوعية في القرآن الكريم : د. محمد محمود حجازي ، دار الكتب الحديثة .

(٣) تفسير القرطبي ١٠/٢٦٦ .

ص: ١٧ - ١٨] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَضُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] ، " على قول مجاهد ، وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴾ [سورة مريم: ٩٠] <sup>(١)</sup> .

إنه هنا يثبت دلالة الأولى المحتملة بآيات واضحة الدلالة ليسند رأيه في ذلك .. هو يربط بين أجزاء النص القرآني في ترابط واضح يحمل فيه المحتمل الدلالة على ما كانت دلالاته واضحة .

وهذا الجمع بين الآيات التي يفسر بعضها بعضاً وحمل ما هو محتمل الدلالة على ما كان واضحاً في الدلالة هو جزء من عملية "التناص" في القرآن الكريم ، كما يذكر ذلك د. تمام حسان ، حيث يقول : "ومن خصائص الأسلوب القرآني ما يشير إليه القول المأثور" ، القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهو ما يتفق مع الدلالة الحديثة للنصوص ، من حيث مبدأ "التناص" ، فالمعروف من صور التناص أن التناص يقوم بين النص وترجمته ، أو محاكاته أو التعليق عليه ، أو شرحه ، أو نقده ، فإذا كان التفسير شرحاً للقرآن فبينه وبينه تناص ، وإذا أعانت آية على شرح "أي تفسير" آية أخرى فبين الآيتين تناص ، وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضاً فبين بعضه وبعض تناص" .

وهذا كلام ينبغي أن يؤخذ في صورة الشرح ، والتفسير بعيداً عن معاني التناص الأخرى ؛ لأنها لا تتفق مع قدسية الكتاب العزيز ، ولكن وجود التفسير بالمأثور ، وتفسير القرآن بالقرآن ، أو بالحديث الشريف ، أو حتى

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٦٧ .

بأقوال الصحابة رضي الله عنهم هو عملية توضيح للقرآن يمكن أن تحمل صورة من صور التناص" (١) .

وتظهر ملامح ما ذكره د. تمام عن التناص عند القرطبي في حديثه عند قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٠] ، فهو يرجع القارئ إلى التفصيل في سورة مريم وسورة الأنبياء (٢) ، وكأن الأمر في القرآن أن يرد بعضه إلى بعض ، كما أن في ذكر مريم مع عيسى أن من قصتهما وشأهما أن في ذلك آية (٣) .

ويحاول القرطبي أيضاً أن يفسر ما أشكل في آية بآيات أخرى ، ومن ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [سورة طه : ٤٤] .

يفسر "القول اللين "بآيات أخرى : "قال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : "فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى" ... والقول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه ... وقد قال تعالى : "وقولوا للناس حسناً" (٤) .

إن دائرة التفسير هنا تتسع لنجد كلمة "لينا" تتخذ تفسيراً في إطار القول لفرعون ، ثم يتخذ لها إطاراً آخر أشمل وهو القول الحسن ، ولعل ما ذكره القرطبي من أقوال يعد صورة من صور التناص التي أشارت إليها

(١) البيان في روائع القرآن ١/٤٥٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٢/١٢٧ .

(٣) انظر : السابق ١١/٣٣٨ .

(٤) السابق ١١/٢٠٠ .

اللسانيات المعاصرة ، فعند قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣] ، تستدعي هذه الآية في ذهن القرطبي تلك الآيات التي عاجلت هذا الموضوع رابطاً فيها في سياق نصي متكامل ، حيث يقول : "حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله" .

وذم على خلاف هذا الوصف ، فقال : "نحن أعلم بما يستمعون به ... " ، فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل ، وأمر عباده بذلك أدباً لهم ، فقال : "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحموا" . وقال هنا : "فاستمع لما يوحى" ؛ لأن بذلك إثبات الفهم عن الله تعالى" (١) .  
فموضوع الاستماع بتنوعه يجمعه القرطبي هنا في آيات كريمات ، وإذا كانت كل آية ذكرت في سياقها الخاص فإن الجمع بينها هنا في سياق الاستماع يكون معالجة لموضوع واحد ، وكأن كل آية خصت بهذا الاستماع ومعالجته ، وفي تأمل ذلك فهم آخر لبلاغة القرآن الكريم ، وإعجازه .

وإذا نظرنا إلى جانب آخر من جوانب نظرة القرطبي إلى القرآن نظرة عامة لوجدناه يذكر وجوهاً للربط بين آيات تأتي كالمقدمة لما بعدها ، وهذا ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة النمل : ٦] : "وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاويص ، وما إلى ذلك من لطائف حكمته" (٢) .

(١) تفسير القرطبي ١٧٦/١١ .

(٢) السابق ١٥٥/١٣ .

ومن ترابط النص القرآني كذلك ما نجد من تلاحم موضوعي ،  
وصوتي بين سور متعددة ، كما في أواخر سورة الحجر ، وسورة الشعراء ،  
حيث نجد تشابهاً ، وتلاؤماً منقطع النظير <sup>(١)</sup> ، وفي سورة الرعد مثلاً نجد  
تشابهاً كبيراً بينها وبين سورة فاطر في الحديث عن الموضوع نفسه ، العقيدة  
والتوحيد ، وإقامة وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته <sup>(٢)</sup> .

ويلفت الدكتور أبو موسى النظر إلى هذا الترابط المعنوي في سور  
(الطواسيم) حيث يقول : " لا شك أننا إذا درسنا ترتيب (الطواسيم)  
وعلاقات المعاني التي في هذه السور الثلاث (الشعراء ، النمل ، القصص) فإننا  
واجدون لا محالة باباً من أبواب البلاغة الغائبة حاول أن تستخلص قصة  
موسى - عليه السلام - في السور الثلاث وكيف تكاملت تكاملاً يمتد  
للخلف ، فبدأت القصة في الشعراء وهي أول السور الثلاث ترتيباً بتكليف  
موسى بالرسالة وأن يأتي القوم الظالمين بينما بدأت في سورة النمل وهي  
السورة الثانية بقصة موسى مع أهله وأنه آنس من جانب الطور ناراً ، وأنه  
سيأتيهم منها بخير ، ثم كان لقاءه بربه وإعداده للنبوته وإظهار المعجزات له ،  
وسمعه نداء ربه : "إني أنا الله" "وألقى عصاه" "ورآها تهتز" "وأخرج يده"  
"إلى آخره" ، وهذا الجزء سابق للجزء الذي جاء في الشعراء ، لأنه قبل الأمر  
بالذهاب إلى فرعون ، ثم جاءت سورة القصص وهي السورة الثالثة والأخيرة  
في (الطواسيم) وتبدأ بقصة موسى مع طفولته : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرَ مُوسَىٰ أَنْ

(١) سورة الحج آية ٨٩-٩٩ ، سورة الشعراء : آية ١٩٨ - ٢١٤ .

(٢) انظر : النظم القرآني في سورة الرعد ، ص ١٨٣ .

أرضيعه ﴿ [ سورة القصص : ٧ ] . وكأننا مع ترتيب تنازلي يتقدم بالسور إلى  
الأمام وفي القصة إلى الخلف" (١) .

وتكاد تندمج السور المكيّة ، والمدنيّة في بوتقة واحدة لما بينها من  
تناسق ، فهذا مثلاً الجزء الثلاثون من القرآن الكريم "ذو طابع غالب سوره  
مكيّة فيما عدا سورتي البينة ، والنصر ، وكلها من قصار السور على تفاوت  
في القصر ، والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة على  
وجه التقريب في موضوعها واتجاهها ، وإيقاعها ، وسورها ، وظلالها ،  
وأسلوبها العام" (٢) .

وإذا كان وحدة الموضوع قد تكون أسهل في كون الكلام منتظماً ،  
متناسقاً ، فإن القرآن مع اختلاف موضوعاته نجد فيه كما يقول دراز من  
الانتظام والتناسق ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز (٣) .

ومن الأمور المهمة في تناسق النص ما يُسمى بالترابط المنطقي من  
خلال السياق ؛ لأن الجمل تتحول إلى سلاسل من القضايا التي تتحول إلى  
ترابط لدى المستقبل تبدو متتالية (٤) ، مما يساعد في الفهم ، والإدراك .  
والقرآن الكريم تميز بهذه الخاصية ، حيث الترابط المنطقي بين أول الكلام  
وآخره ، بحيث لا تجد فيه تناقضاً ، ولا تنافراً على العكس من كلام البشر  
الذي لا يخلو من هذا التناقض والاضطراب ، لا سيما إذ طال الكلام  
وتعددت موضوعاته وطرقه .

(١) من أسرار التعبير القرآني - دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، ص ٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٨٠٠ .

(٣) انظر : النبأ العظيم ، ص ١٨٢ .

(٤) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص

يقول القرطبي : "وقيل إنه ليس من متكلم يتكلم كلاماً كثيراً إلا وجد في كلامه اختلافاً كثيراً ، إما في الوصف واللفظ ، وإما في جودة المعنى ، وإما في التناقض ، وإما في الكذب ، فأنزل الله - عز وجل - القرآن وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافاً في وصف ولا رداً له في معنى ولا تناقضاً ، ولا كذباً فيما يخبرون به من الغيوب وما يسرون" (١) ، وذلك من خلال شرحه لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٨٢] .

وهذا المنهج هو الذي يجعل الحقائق التي في القرآن تنحو منحى الإقناع لا الإخبار ، فالقرآن كما يقول د. أبو موسى : ليس من غايته "أن يعلمنا الحقيقة وإنما الغاية أن يقنعنا بها وأن يقررها في أعماق نفوسنا" (٢) .  
والأكثر إعجازاً كما يقول د. محمود غازي أن هذا الترتيب المنطقي وعدم التناقض جاء في كتاب : "لم يتزل في وقت واحد ، بل استمر نزوله وترتيبه لمدة تتجاوز ثلاثاً وعشرين حجة" (٣) .  
وهذا مظهر من بلاغة النص القرآني الكريم ، وهو قيام الأحكام فيه على الترابط الشديد بين الآيات بل بين السور ، وهذا دليل على أن النظر إلى القرآن في عمومته هو الأولى ولاسيما في بناء الأحكام ، ويؤكد ما ذهبنا إليه قول د. محمد الشتيوي : " إنه ينبغي النظر إلى القرائن اللفظية المتصلة أو ربط الآية بما قبلها وما بعدها لفهم معناها وقد يقتضي ربطها بسياق السور كلها" (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٢٩٠/٥ ، وانظر : المدخل الوجيز ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) من أسرار التعبير القرآني ، ص ٧١ .

(٣) المدخل الوجيز ، ص ٢١٠ .

(٤) التغير الدلالي وأثره في فهم النص القرآني ، د. محمد علي الجيلاني الشتيوي ، مكتبة

حسن العصرية ، ص ١٨٤ .



ولقد رأينا القرطبي لم يغفل ذلك فقد حكم السياق المتصل المتكامل في الحكم الذي يذهب إليه ، فعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٣] . كأنها خطاب لآل البيت بعيداً عن زوجات محمد -صلى الله عليه وسلم- كما يقول الشيعة <sup>(١)</sup> . إلا أن القرطبي له رأي آخر ، فالذي "يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال ويطهركم لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلياً وحسناً وحسيناً كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر" <sup>(٢)</sup> . هذا من ناحية اللغة ، أما من ناحية السياق فيقول : "إن الآيات كلها من قوله تعالى : "يا أيها النبي قل لأزواجك ... إلى قوله : لطيفاً خبيراً منسوق بعضها على بعض فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهن" <sup>(٣)</sup> .

وهذه لفظة مضيئة من القرطبي إلى ظاهرة هامة في علم النص وهي تكرر الخطاب لطائفة معينة وهن- هنا- زوجات النبي صلى الله عليه وسلم "كنتن - فتعالين - أمتعن - وأسرحكن - منكن - قرن " ، وكل ذلك يدل على محور الآيات الأول وهو زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخولهن في قوله تعالى : "ويطهركم من باب أولى" والله أعلم .

\*\*\*\*\*

- 
- (١) انظر : التغير الدلالي وأثره في فهم النص القرآني ، ص ١٨٤ .  
(٢) تفسير القرطبي ١٨٣/١٤ .  
(٣) السابق ١٨٤/١٤ ، وانظر : التغير الدلالي ، ص ١٨٥ .

## الخاتمة

- وتتضمن أهم ، وأبرز النتائج التي توصل اليها ، وأهمها :
- لقد كان القرطبي - رحمه الله - على وعي لأهمية البلاغة في إبراز جوانب الإعجاز القرآني .
- أبرزت الدراسة أهمية تفسير القرطبي من الناحية البلاغية ، وخاصة بلاغة التراكيب .
- كشفت الدراسة أهم السمات البارزة لبلاغة التراكيب القرآنية في تفسير القرطبي ، ومعالجته لها من خلال تعليقاته عليها ، سواء المنسوبة إليه ، أو التي ارتضاها ، وأبرز ذلك كله في ضوء المفاهيم النصية المعاصرة للتراكيب اللغوية .
- أكد البحث دور القرطبي ومشاركته في معالجة أوجه إعجاز القرآن ، ولا سيما فيما يخص التراكيب التي كان كثيراً ما يربط بينها من خلال الدلالات البلاغية .
- الدور الكبير الذي قام به القرطبي في الدرس البلاغي ، من خلال تحليله لأي الذكر الحكيم ، حيث أدرك من خلال دراسة النص القرآني جوانب أكثر دقة في دراسة التراكيب ، والغوص في أعماق النص ، ومعالجة جوانبه المختلفة .
- تأثر القرطبي بآراء البلاغيين والمفسرين ، وبخاصة الزمخشري ، فجاءت نظراته البلاغية دقيقة ، لا سيما في معالجته للتراكيب القرآنية ، منتقلاً بفكرة النظم من التعامل مع الجملة إلى التعامل مع النص القرآني

بأكمله ، وكان تأثره بالزمخشري في الجانب البلاغي دون الجانب العقدي (الاعتزالي) .

- استطاع القرطبي الربط الدقيق بين التفسير وإدراك الأسرار البلاغية .
- اهتمّ القرطبي بالبناء الداخلي للتراكيب ، موضحاً العلاقات بين المفردات ، معتمداً على البناء النحوي ، والقراءات ، وهي نظرة أسلوبية دقيقة .
- تفاوت موقف القرطبي من المعالجة البلاغية بين الإيجاز ، والإطناب ، معتمداً في إيجازه على إدراك المتلقي ، ومطناً فيما تتطلبه المعالجة البلاغية .
- تعد آراء القرطبي ثروة علمية ، كبيرة ، حيث كان يضيف من اجتهاداته ، وتحليلاته .
- لم يكن القرطبي يهتم بالمصطلح البلاغي قدر اهتمامه بالتحليل ، والتعليق ، وهذه النظرة هي الأقرب إلى الدراسات الأسلوبية ، والنصية المعاصرة .

\*\*\*\*\*

## فهرس المصادر والمراجع

### أولاً : المصادر :

١. القرآن الكريم .
٢. الإتقان في علوم القرآن : للإمام جلال الدين السيوطي ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
٣. أسرار البلاغة في علم البيان : عبدالقاهر الجرجاني ، علق حواشيه : السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
٤. أسرار ترتيب سور القرآن : تأليف : جلال الدين السيوطي ، تحقيق : رضى فرج الهمامي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لم توضح الطبعة ، ولا التاريخ .
٥. أساس البلاغة : جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر ، لم توضح الطبعة ، ولا تاريخها .
٦. إعجاز القرآن : للقاضي أبي بكر الباقلاني ، دراسة وتحقيق وتعليق : أ.د : محمود محمد مزروعة ، دار كنوز المعرفة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
٧. إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء - دراسة نقدية مقارنة - : د. محمد موسى الشريف ، دار الأندلس الخضراء ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
٨. أنوار الترتيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي : ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن محمد البيضاوي ، مؤسسة شعبان ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها .
٩. الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني ، دار الجيل ، بيروت .
١٠. الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : للإمام ناصر الدين أحمد ابن محمد ابن المنير الأسكندري ، حاشية على الكشاف .
١١. البحر المحيط : لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
١٢. البرهان في علوم القرآن : للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
١٣. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .

١٤. البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
١٥. تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لقاضي القضاة أبي السعود محمد العمادي الحنفي ، تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا ، مكتبة الرياض الحديثة .
١٦. التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ، لم توضح السنة .
١٧. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : للرماني ، والخطابي ، وعبدالقاهر الجرجاني ، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف .
١٨. الجامع الأحكام القرآن : لأبي عبدالله القرطبي ، اعتنى به وصححه : الشيخ هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب .
١٩. الخصائص : لابن جني أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : د. عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٨م .
٢٠. درء تعارض العقل و النقل : لابن تيمية ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم ، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٢١. دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي .
٢٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للإمام أبو الفضل الألويسي البغدادي ، إدارة الطباعة المنبرية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها .
٢٣. سر الفصاحة : لأبي محمد عبدالله بن سعد بن سنان الخفاجي ، اعتنى به وخرج شعره وعمل فهارسه : د. داود عكاشة الشوابكة ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
٢٤. شرح التصريح على التوضيح : للشيخ خالد الأزهرري ، دار الفكر ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها .
٢٥. طبقات الداوادي : ضبطه : عبدالسلام عبدالمعين ، دار الكتب .

٢٦. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : للشيخ بهاء الدين السبكي ، تحقيق : د. عبدالحميد هندراوي ، المكتبة العصرية ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
٢٧. غريب القرآن في شعر العرب . سؤالات نافع بن الأزرق إلى ابن عباس: تحقيق : محمد عبدالرحيم ، وأحمد نصر الله ، مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ - فتح القدير : للإمام الشوكاني ، دار الخير ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
٢٨. الفهرست : لابن النديم ، اعتنى بها وعلق عليها : الشيخ/ إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
٣٠. القاموس المحيط : الفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
٣١. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز : تأليف : يحيى بن حمزة العلوي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، انتشارات آفتاب شهران .
٣٣. لسان العرب لابن منظور دار صادر ، لم توضح الطبعة ، ولا تاريخها .
٣٤. لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد : لابن قدامة المقدسي ، شرح : الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين ، مكتبة الإمام البخاري ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
٣٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير ، قدم له وحققه وشرحه وعلق عليه : د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
٣٦. المزهري في علوم اللغة وأنواعها : للعلامة/ السيوطي ، شرح وتعليق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد جاد المولى ، علي محمد البجادي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
٣٧. المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم : للعلامة سعد الدين التفتازاني ، تحقيق : د. عبدالحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧م .
٣٨. معترك الأقران في إعجاز القرآن : للإمام السيوطي ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .

٣٩. معاني القرآن : للأخفش سعيد بن مسعدة ، دراسة وتحقيق : د. عبدالأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
٤٠. مغني اللبيب عن كتب الأعراب : للإمام ابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
٤١. مفتاح العلوم : للإمام أبي يعقوب السكاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان .
٤٢. مقدمة ابن خلدون : دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م .
٤٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : للإمام برهان الدين البقاعي ، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : عبدالرزاق غالب مهدي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
٤٤. نفع الطيب : للمقري التلمساني ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٩٦م .

## ثانياً : المراجع :

٤٥. اتجاهات البحث الأسلوبي : د. شكري محمد عياد ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
٤٦. الاتجاه البياني في تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن : إعداد : محمد رضا حسن الحسن ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، ٢٠٠٣م .
٤٧. الاتجاه الفني في تراثنا النقدي والبلاغي : د. حمد بن عبدالعزيز السويلم ، نادي القصيم الأدبي بريدة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
٤٨. أثر القرآن في تطور النقد العربي : د. محمد زغلول سلام ، مكتبة الشباب ، الطبعة الأولى ، لم توضح الطبعة، ولا تاريخها.
٤٩. أثر النحاة في البحث البلاغي : د. عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها .
٥٠. أحاديث في تاريخ البلاغة وفي بعض قضاياها : د. عبدالكريم محمد الأسعد ، دار العلوم ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٥١. الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية : د. فتح الله أحمد سليمان ، دار الآفاق العربية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م .
٥٢. الأسلوبية والأسلوب : د. عبدالسلام المسدي ، الكتاب الجديد ، الطبعة الخامسة ، ٢٠٠٦م .
٥٣. أساليب بلاغية . الفصاحة . البلاغة . المعاني : د. أحمد مطلوب ، وكالة المطبوعات .
٥٤. أسماء سور القرآن وفضائلها : د. منيرة محمد ناصر الدوسري ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الثانية ، شوال ، ١٤٢٩هـ .
٥٥. أصوات اللغة العربية : د. عبدالغفار حامد هلال ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
٥٦. إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، الطبعة التاسعة ، ١٩٩٣م .
٥٧. إعراب القرآن وبيانه : الأستاذ/ محيي الدين الدرويش ، اليمامة ، دمشق ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
٥٨. الإعراب وأثره في ضبط المعنى . دراسة نحوية قرآنية : د. منيرة بنت سليمان العلولا ، دار المعرفة الجامعية ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
٥٩. الأعلام : خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة .
٦٠. آل حم ، غافر ، فصلت - دراسة في أسرار البيان : د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
٦١. الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : د. أحمد محمد ويس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
٦٢. إنكار المجاز عند ابن تيمية بين الدرس البلاغي واللغوي : إبراهيم بن منصور التركي ، دار المعراج الدولية ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
٦٣. البحث الدلالي في كتب معاني القرآن : لأبي عبدة والأخفش والفراء د. عماد الددو ، عالم الكتب الحديث ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
٦٤. الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن - دراسة تحليلية ونقدية : د. عبدالرؤوف مخلوف ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٨م .



- ٦٥ . البلاغة بين عهدين : د. محمد نايل أحمد ، دار الفكر العربي .
- ٦٦ . بلاغة التراكيب - دراسة في علم المعاني - : أ.د. توفيق الفييل ، مكتبة الآداب .
- ٦٧ . البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٣ م .
- ٦٨ . البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول : د. محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، ٢٠٠٥ م .
- ٦٩ . بلاغة الخطاب وعلم النص : د. صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٧٠ . البلاغة العربية أصولها وامتداداتها : د. محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، ١٩٩٩ م .
- ٧١ . البلاغة العربية تاريخها ، مصادرها ، مناهجها : أ.د. علي عشري زايد ، مكتبة الآداب ، الطبعة السادسة ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م .
- ٧٢ . البلاغة العربية قراءة أخرى : د. محمد عبدالمطلب ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م .
- ٧٣ . البلاغة العربية . فنونها وأبنائها علم المعاني : د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، الطبعة الحادية عشرة ، ٢٠٠٦ م .
- ٧٤ . البلاغة العربية في ثوبها الجديد : د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، الطبعة العاشرة ، ٢٠٠٥ م .
- ٧٥ . البلاغة القرآنية - دراسة في جماليات النص القرآني : أ.د. أحمد درويش ، وأ.د. عزة جدوع ، مكتبة الرشد ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م .
- ٧٦ . بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار ، وأثره في الدراسات البلاغية : د. عبدالفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ م .
- ٧٧ . البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية : د. محمد حسنين أبو موسى ، دار الفكر العربي .
- ٧٨ . البلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين : د. هند بنت جميل بن صالح ناتيه ، كنوز إشبيلية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م .
- ٧٩ . بلاغة القرآن دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الأفعال : د. ظافر بن غرمان العمري ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م .
- ٨٠ . البلاغة والأسلوبية : هنريس بليت ، ترجمة : د. محمد العمري ، أفريقيا الشرق .

٨١. البيان في روائع القرآن : د. تمام حسان ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م .
٨٢. بينات المعجزة الخالدة : حسن ضياء الدين عتر ، دار النصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م .
٨٣. التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .
٨٤. التعبير القرآني : د. فاضل صالح السمرائي ، دار العمار ، الطبعة السادسة ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م .
٨٥. التغير الدلالي وأثره في النص القرآني : د. محمد بن علي الجيلاني الشتيوي ، مكتبة حسن العصرية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م .
٨٦. التفسير البياني للقرآن الكريم : د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، لم توضح السنة .
٨٧. تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور : سماحة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور ، مؤسسة التاريخ ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ليس لها تاريخ .
٨٨. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار : محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية .
٨٩. التفسير النفسي للأدب : د. عز الدين إسماعيل ، مكتبة غريب ، الطبعة الرابعة .
٩٠. التفسير والمفسرون : د/محمد بن حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٩٧٦/٥١٣٩٦ م
٩١. الخصائص الأسلوبية في الشوقيات : محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١ م
٩٢. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م .
٩٣. الخطاب القرآني . القرآن مرجعية للخطاب النهضوي : د. سعد كموني ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨ م .
٩٤. خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم : أ.د. تمام حسان ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م .

٩٥. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : د. زاهر بن عواض الألمي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .
٩٦. دراسات في علوم القرآن : أ.د. فهد بن عبدالرحمن الرومي ، الطبعة السادسة عشر ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
٩٧. الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري : د. فاضل صالح السمرائي دار عمار ، الطبعة الثانية ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
٩٨. دلالات التراكيب - دراسة بلاغية : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
٩٩. الدلالات وأثرها في تفسير القرآن الكريم : د. محمد سالم أبو عاصي ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
١٠٠. دليل الناقد الأدبي : د. ميجان الرويلي : د. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٧م .
١٠١. دينامية النص تنظير وإنجاز : د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٦م .
١٠٢. ديوان جران العود برواية أبي سعيد السكري ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٠م .
١٠٣. رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية : د. سعد أبو الرضا ، الناشر : المعارف بالأسكندرية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
١٠٤. شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بين تصوير الوحي وتصورات الدارسين : د. سعيد المغناوي ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
١٠٥. ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد : د. محمد زغلول سلام ، مكتبة فخصة مصر ، لم يوضح الطبعة ، ولا السنة .
١٠٦. عجائب القرآن : للإمام فخر الدين الرازي ، تحقيق : الشيخ خليل إبراهيم ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .
١٠٧. العز بن عبدالسلام حياته ، وآثاره ، ومنهجه في التفسير : د. عبدالله بن إبراهيم الوهبي

١٠٨. علم الأسلوب - النظرية البنائية : د. صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ،  
الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
١٠٩. علم الدلالة : أ.د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، الطبعة السابعة ، ١٤٣٠هـ -  
٢٠٠٩م .
١١٠. علم الدلالة تأصيلاً ودراسة وتطبيقاً : د. عثمان محمد أحمد الحاوي ، مكتبة المتنبي ،  
الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
١١١. عالم اللغة عبدالقاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها : د. البدر اوي زهران ، دار  
المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٧م .
١١٢. علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع : أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ،  
الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
١١٣. عن بناء القصيدة العربية الحديثة : د. علي عشري زايد ، مكتبة الرشد الطبعة الخامسة .  
١١٤. ١٩٩٣م .
١١٥. فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث : د. لطفي عبدالبيديع ، مكتبة لبنان ،  
الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .
١١٦. فنون بلاغية ، بيان - البديع : دكتور أحمد مطلوب ، دار البحوث العلمية ، الكويت ،  
الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
١١٧. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة : د. سعد عبدالعزيز مصلوح ،  
عالم الكتب .
١١٨. في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، لم توضح الطبعة ولا تاريخها .
١١٩. القراءة وتوليد الدلالة تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي : د. حميد الحميداني ، المركز  
الثقافي العربي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧م .
١٢٠. القرطبي ومنهجه في التفسير : د. القصي محمود زلط ، دار الأنصار ، ١٣٩٩هـ -  
١٩٧٦م .
١٢١. لسانيات النص. مدخل إلى انسجام الخطاب : د. محمد خطاب ، المركز الثقافي العربي .
١٢٢. اللغة بين البلاغة والأسلوبية : د. مصطفى ناصف ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ،  
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

١٢٣. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني . نشأتها ، وتطورها حتى القرن السابع الهجري : د. أحمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
١٢٤. مباحث في التفسير الموضوعي : أ.د. مصطفى مسلم ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة السابعة ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
١٢٥. المجاز في اللغة والقرآن بين الإيجاز والمنع . عرض وتحليل ونقد : د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
١٢٦. المحلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى : دكتوراة كاملة الكواري ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
١٢٧. مدخل إلى علم الأسلوب : د. شكري محمد عياد ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
١٢٨. مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
١٢٩. المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز : د. محمود أحمد غازي ، اعتنى به وخرج أحاديثه : محمد رحمة الله حافظ الندوي ، دار البشائر الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
١٣٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه : محمد فؤاد عبدالباقي دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
١٣١. المعجم الوسيط : مؤسسة الرسالة .
١٣٢. المفارقة القرآنية - دراسة في بنية الدلالة : د. محمد العبد ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
١٣٣. مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء : د. حامد صالح خلف الربيعي ، سلسلة بحوث اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
١٣٤. من أسرار التعبير القرآني - دراسة تحليلية لسورة الأحزاب : د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
١٣٥. من بلاغة القرآن : د. أحمد أحمد بدوي ، فضة مصر ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م .
١٣٦. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير : د. فهد بن عبدالرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٤هـ .

١٣٧. مناهج النقد المعاصر : د. صلاح فضل ، أطلس للنشر ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥ م .
١٣٨. موسيقى الشعر : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٨ م .
١٣٩. النبأ العظيم : د. محمد عبدالله دراز ، اعتنى به وخرج أحاديثه : عبدالحميد الدخاخي ، دار طيبة للنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .
١٤٠. نحو النص بين الأصالة والحداثة : د. أحمد محمد عبدالراضي ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م .
١٤١. النحو الوافي : عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .
١٤٢. نظرية النظم : عبدالقاهر الجرجاني - دراسة . تطبيق . تحليل : د. نجاح بنت أحمد الظهار ، مكتبة الرشد ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م .
١٤٣. النظم القرآني في سورة الرعد : محمد بن سعد الدبل ، عالم الكتب ، لم توضح الطبعة ولا السنة .
١٤٤. النظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية : د. شفيع السيد ، دار غريب
١٤٥. النقد الأدبي الحديث : د. سعد أبو الرضا ، مذكرة مصورة .
١٤٦. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم : د. محمد محمود حجازي ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ م .

### البحوث والمقالات :

١٤٧. آفاق الأسلوبية المعاصرة ، عالم الفكر ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت ، المجلد الثاني والعشرون ، المجلد الثالث والرابع ، يناير - مارس - إبريل - يونيو ، ١٩٩٤ م .
١٤٨. بلاغة التعريف عند عبدالقاهر ، والسكاكي ، والقزويني ، وبعض المعاصرين : د. إبراهيم بن منصور التركي ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد التاسع ، شوال ، ١٤٢٩هـ .
١٤٩. قراءه في معنى المعنى عند عبدالقاهر : د. عز الدين إسماعيل ، مذكرة مصورة .
١٥٠. مفهوم النظم عند عبدالقاهر : د. محمود توفيق محمد سعد ، مذكرة مصورة .
١٥١. النظم القرآني في تفسير القرطبي - دراسة أسلوبية : د. السيد عبدالسميع حسونة ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، دبي ، العدد (٢١) لسنة ١٤٢٢هـ .

## فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	م
	<b>بلاغة التراكيب في تفسير القرطبي</b>	
٤	المقدمة	١.
١٤	تمهيد	٢.
١٥	أ- البلاغة بين الأفراد والتركيب	٣.
٢٧	ب- خصائص التراكيب عند البلاغيين	٤.
٥٨	<b>الفصل الأول</b>	٥.
	<b>بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي</b>	
٥٩	المبحث الأول : خصائص التراكيب في تفسير القرطبي	٦.
٦٠	المحور الأول : خصائص التراكيب عند المفسرين	٧.
٧٤	المحور الثاني : خصائص التراكيب في تفسير القرطبي	٨.
٨٨	المبحث الثاني : بلاغة التراكيب في بناء الجملة عند القرطبي	٩.
٨٩	أ- الجملة الحرة	١٠.
١٠٦	ب- الجملة الإنشائية	١١.
١٢٢	ج- جملة القصر	١٢.
١٢٩	د- الجملة المتعلقة بطرفي الإسناد (الحذف ، والتقدم ، والتأخير)	١٣.
١٥٩	هـ- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (الالتفات)	١٤.
١٧٠	<b>الفصل الثاني</b>	١٥.
	<b>بلاغة التراكيب في بناء الجمل عند القرطبي</b>	
١٧١	المبحث الأول : الوصل والفصل عند القرطبي	١٦.
١٧٢	أ- الوصل والفصل عند البلاغيين	١٧.

الصفحة	الموضوع	م
١٨٣	ب- الوصل والفصل عند القرطبي	.١٨
١٩٦	المبحث الثاني : الإيجاز والإطناب عند القرطبي	.١٩
١٩٧	أ- الإيجاز والإطناب عند البلاغيين	.٢٠
٢٠٤	ب- الإيجاز والإطناب عند القرطبي	.٢١
٢٢٥	<b>الفصل الثالث</b> <b>بلاغة التراكيب في بناء النص القرآني عند القرطبي</b>	.٢٢
٢٢٦	المبحث الأول : تناسب بين الآيات والسور عند القرطبي	.٢٣
٢٦٧	المبحث الثاني : التناسب بين النص القرآني في ضوء النصية المعاصرة	.٢٤
٢٨٢	<b>الخاتمة</b>	.٢٥
٢٨٤	<b>الفهارس العامة</b>	.٢٦
٢٨٥	<b>فهرس الآيات القرآنية</b>	.٢٧
٢٩٨	<b>فهرس المصادر والمراجع</b>	.٢٨
٣٠٩	<b>فهرس الموضوعات</b>	.٢٩

\*\*\*\*\*